تاريخ المغول والعالم الاسلامي

٤

(دراسات نقدية وتحليلية وإستنتاجية)



المغول

بيئتهم الطبيعيّة وحياتهم الإجتماعيّة والدينية

تأليف

الأستاذ الدكتور سعد بن محمد حذيفه الغامدي

أستاذ التاريخ الإسلامي ودراساته الشرقية

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

الرياض

المملكة العربيّة السعودية

الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م

الطبعة الأولى

١٤١٠هـ/١٩٨٩ م

تم فسح هذا الكتاب من وزارة الاعلام بالمملكة العربية السعودية

تحت رقم ٢٨٥٥/م وتاريخ ١٤٠٩/٥/١٠ هـ

بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية

« إهــداء الكتــاب »

أهدي ثمرة جهدي ، في هذا الكتاب المتواضع ، إليك يا والدي (محمد حذيفة بن مسفر بن سعد) ، يامن وافاك أجلك المحتوم الساعة السابعة والنصف من صبيحة يوم الأحد ١٦ ربيع الأول عام ١٤١٠هـ الموافق ١٥ تشرين الأول ، أكتوبر ١٩٨٩م ، في مستشفى الملك خالد الجامعي ؛ نسأل الله أن يجعل الجنة متقلبك ومثواك ؛ وأن يُبدلك بدارٍ خيراً من دارك ، وبأهلٍ خيراً من أهلك ، وبزوجٍ خيراً من زوجك ، وبجيرانٍ خيراً من جيرانك ؛ وأن يجازيك بالحسنات إحساناً ، وبالسيئآت عفواً وغفراناً ؛ وأن ينوّر لك في قبرك ؛ وأن يؤنس وحشتك ؛ وأن يجعل قبرك روضة من رياض الجنة . وأسأل الله ، بأسمائه الحسنى ، وبصفاته العليا ، أن يجعل منزلك في الفردوس الأعلى من الجنة .

إبنك : سعـد

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على محمد ، رسول الله ، ﷺ وعلى آله وصحابته ، ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين ، وبعد :

فإنه يسعدني كثيراً أن ألتقي مع الباحث والقارىء العزيزين ، مرة أخرى على صفحات هذا البحث الجديد[1] . وهنا أود أن اذكره بتلك القوة الرهيبة ، التي نشأت على يدي زعيمها المعروف في الأوساط التاريخية ، بـ «جنكيزخان» ، وذلك في الشرق من القارة الآسيوية ، وبالتحديد في منغوليا ، في أواخر القرن السادس وأوائل السابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد . وقد تَلا ذلك إنتشار تلك القوة الهائلة ، فامتدت بنفوذها في شتى الاتجاهات ، مشرقة ومغربة ، ضاربة بجيوشها شمالاً ، ومخترقة حدود الدول المجاورة واحدة تلو الاخرى في جهات الجنوب ، مكونة بذلك أكبر إمبراطورية عرفها تاريخ البشرية ، وفي أقصر مدة ، عرفت في ذلك التاريخ بـ «امبراطورية المغول» ، أو بـ «دولة المغول الكبرى» . فقد شملت ممتلكاتها جميع الأراضي الممتدة من السواحل الغربية للمحيط الهادي شرقاً ، إلى قلب القارة الأوربية غرباً ، ومن سيبيريا وبحر البلطيق شمالاً إلى شمال الجزيرة العربية ، والهند والسند ، والهند الصينية جنوباً . إذ إنها استطاعت أن تتوسع في تلك البقاع الشاسعة ، خلال النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .

لقد إنقضت ثمان سنوات طوال ، وأنا أقوم بتدريس مادة «المغول والشرق الإسلامي» في قسم التاريخ ، بجامعة الملك سعود بالرياض . وقد

---

(١) سبق أن صدرت عدة مصنفات ومقالات في تاريخ المغول وتاريخ المسلمين في الشرق الإسلامي للمصنف ، انظر حياة المؤلف في آخر صفحات الكتاب .

كانت رسالتي لنيل شهادة الدكتوراه، وهي بعنوان «سقوط العباسيين في عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م» ذات صلة قوية بتاريخ المغول. إذ إنه من المعروف جيداً أن سقوط دولة بني العباس كان على أيدي أولئك المغول، الذين جاءوا من الشرق، فوضعوا جميع أراضيه، حتى بلاد الشمام، تحت سلطانهم.

لم تكن الدولة العباسية ، عندما جاءها المغول فقضوا على خلافتها ، إلا واحدة من سلسلة الدول ، بل الدويلات ، المتهالكة التي قوض المغول عروشها ، بكل سهولة ويسر ، في وقت وصلت إليه هاتيك الدول إلى الحضيض ؛ فأضحى الحكم في أيدي المماليك من الاتراك وسفلة الناس ، فهم أصحاب القول الفصل ، وهم صانعوا القرارات التي عليها يتحدد مصير الأمة الاسلامية ، في كل دويلة منها . فما بال القارىء ، إذا علم أن المغول استطاعوا ، ودون عناء يذكر ، أن يقوضوا عروش إمبراطوريات ، أكثر مَنَعَة ، وأشد شوكة ، وأصلب عوداً ، وأبرز سؤدداً من بني العباس ، كإمبراطوريتي «جن وسُنْكْ» في بلاد الصين ، ودولة «هسي – هسيا» في شمال غرب الصين والتبت ، «وامبراطورية الدولة الخوارزمية» في المشرق الاسلامي ، بكافة أراضيها ، وغير ذلك من الدول كدول روسيا ودول شرق أوربا .

بناءً على ذلك ، رأيت أن أكتب في تاريخ المغول ، وعلاقته بالشرق الاسلامي ، وقد قسمت هذا المؤلَّف البسيط إلى مباحث عدة ، حيث جعلت المبحث الأخير هذا الذي بين يدى القارىء الذي هو الآن بين أيدينا للخلفية الاجتماعية لأولئك القوم . سبق هذا الكتاب بحوث تتعلق بتاريخ المغول في مجموعهم ، قبل إسلامهم ، وفي النية تناول الفترة التي أعقبت إسلامهم بعد ذلك ، بإذن الله[1] . سبق أن نشرت بعض مادة

---

(١) صدر لنا كتب ومقالات تتعلق بتاريخ المغول قبل إسلام من أسلم منهم أهمها الكتب الثلاثة التي وردت في «حياة المؤلف» الواردة في آخر صفحات هذا الكتاب .

هذا البحث على حلقات في قافلة الزيت ، وفي أعداد عام ١٤٠٣هـ المختلفة[١] . ولقد استجد الشيء الكثير على هاتيك المواضيع منذ نشرت قبل ستة أعوام ؛ ثم إنني رأيت أن أوثق ما سبق ونشر ، بشكل أكثر دقة ، وأوسع معنى ، وأشمل ميداناً . وسيجد القارىء الكريم الفرق شاسعاً بين ما سبق ونشر ، وبين المنشور هنا ، في هذا البحث . فجاءت معلومات هذا الموضوع في ثوب جديد ، وقالب حديث ، وسنطلع سوياً على بيئة ذلك الانسان المغولي من النواحي الاجتماعية ، والاقتصادية ، والدينية ، وكيفية تفكيره وما يعتقده في الحياة الثانية بعد نهاية حياته من هذه الدنيا ، ثم نلقي ضوءً على طباعه ، وأخلاقه ، وكيفية تعامله مع أفراد مجتمعه ، والناس الخارجين وراء دائرة ذلك المجتمع الوطني المغولي ؛ ثم نطلع على نوعية حرفته ، رجلًا كان أو امرأة ، تلك الحرفة التي كانت وما تزال قائمة ، إلى حد كبير ، في الوقت الحاضر .

قُسّمَت مواضيع هذا المصنف إلى فصول خمسة؛ تناول الفصل الأول بيئة الأراضي المغولية، من حيث موقعها وتكويناتها الطبيعية، وتضاريس أرضها، ومناخها السائد؛ ثم أُخْتُتِمَ في الكلام عن الحياة الحيوانية فيها. طُرِق في الفصل الثاني غذاء الفرد المغولي، ونوعية لباسه وصفة مسكنه وهيئته.

اما الفصل الثالث فقد عني بحياة المغول الاجتماعية ، قبلياً ، ثم حياتهم الاسرية ، وخاصةً ما يتعلق منه بالزواج ؛ وحرفة الرجل والمرأة .

اما ما يتعلق بالديانة ، التي يعتنقها أفراد ذلك المجتمع ، قبل خروجه إلى عالم وقته المتحضر ، فقد تناولها الباحث في الفصل الرابع ؛ سواءً منها ما يؤمن به المرء في حياته الدنيوية أو فيما يعتقده بعد الموت . ثم أُختتم الفصل بمراسم دفن الموتىٰ ، وطقوسه .

---

(١) صدرت تلك السلسلة في «القافلة» الاعداد : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ من المجلد ٣١ ، إضافة إلى مقالات آخر سيشار إلى كل واحدة في مكانها .

أُخْتُتِمَ هذا الكتاب بفصله الخامس ، الذي دُرس فيه أنواع المقابر الملكية وغيرها ؛ ومحاولة إلقاء الضوء على أماكنها وتحديد مواقعها ؛ سواء منها ما كان في داخل الأراضي المغولية أو خارجها .

ثم أُنهي هذا الفصل بالحديث عن التغيير الجذري الذي طرأ علىٰ طريقة المغول في دفن موتاهم ، خاصةً أولئك الذين نبذوا دين الوثنية واعتنقوا الإسلام ؛ فأصبح هذا الدين وتعاليمه الوضاءة تُغطي سماء المسلمين منهم في كل أراضيهم الواقعة إلى الغرب من جبال «التاي» .

لعل هذا الكتاب يكون اللبنة الاساسية ، لمعرفة الخلفية الاجتماعية والدينية ، التي كان عليها آباء وأجداد أباطرة المغول المسلمين ؛ ليتسنىٰ للباحث والقارىء الكريمين معرفة ، كيف خلق الإسلامُ ، من مجتمعها البدائي ، وجعل منهم أُناساً بُناةَ حضارة من أرقىٰ الحضارات ؛ حيث أصبح واحد مما بنوه من إحدىٰ عجائب الدنيا السبع .

الباحة / الْحَمَدَة / المريري

الاربعاء غرة محرم ١٤١٠هـ/٢ آب ، اغسطس ١٩٨٩ م

الفصـــل الأول

بيئة أراضي المغول الطبيعية

١ – موقع الأراضي المغولية وحدودها .

٢ – التكوينات الطبيعية للأراضي المغولية .

(أ) البحيرات .

(ب) الأنهـــار .

٣ – تضاريس الأراضي المغولية ومناخها .

(أ) التضاريس .

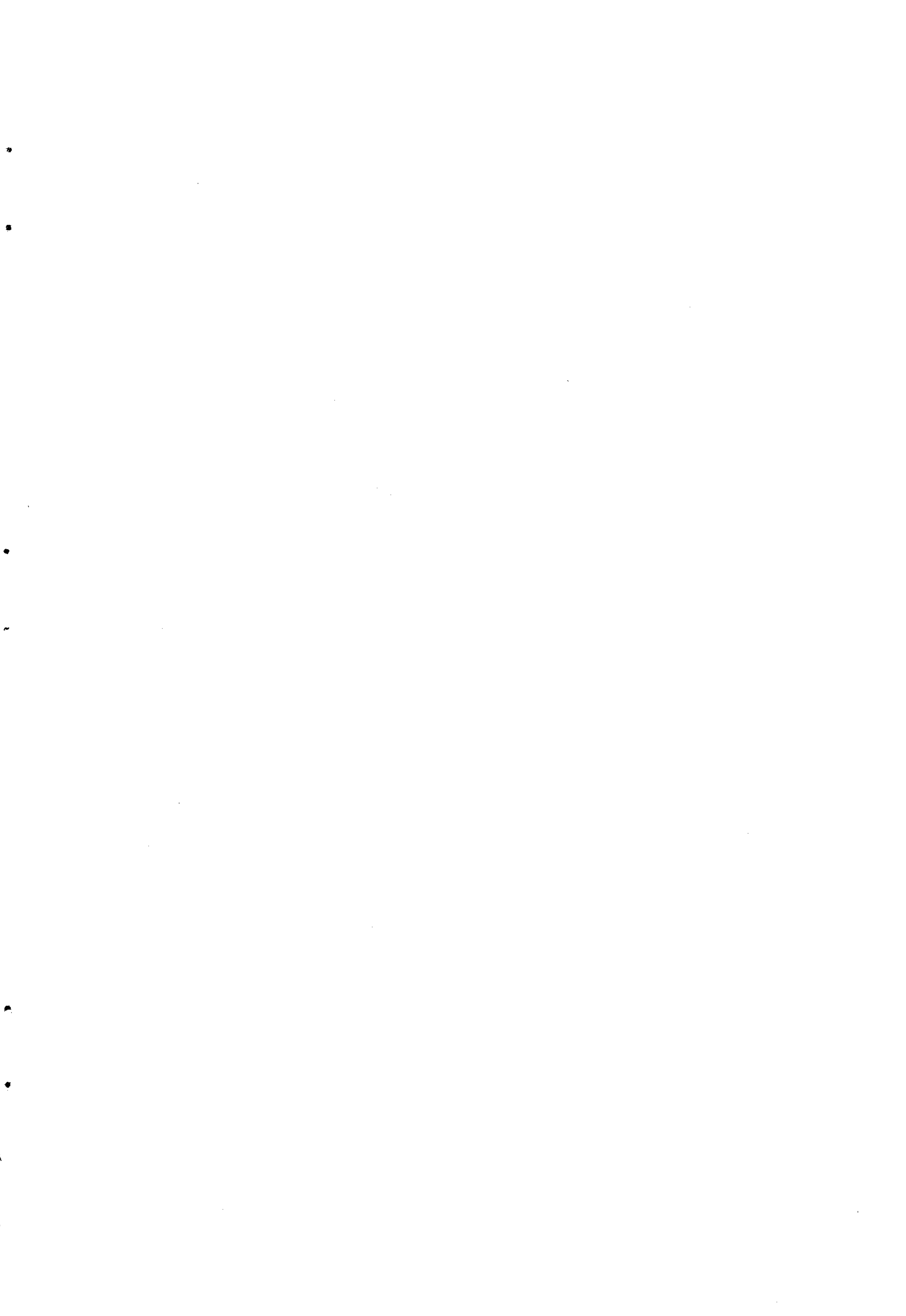
(ب) المناخ السائد في منغوليا

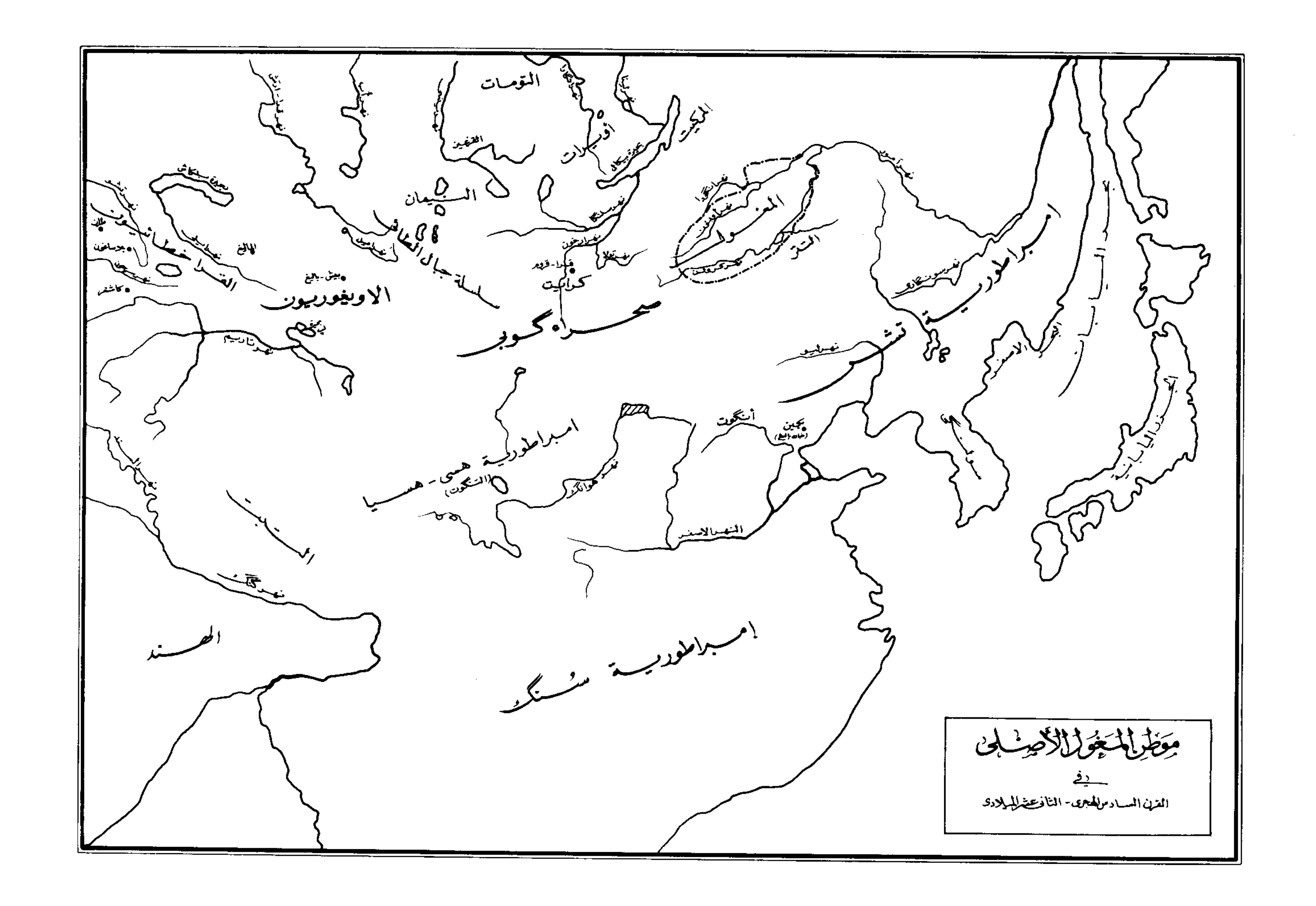
(جـ) الرطوبـــة .

(د) فصول منغوليا السنوية .

(هـ) أقاليم منغوليا النباتية .

٤ – الحياة الحيوانية في منغوليا .




موطن المغول الأصلي
في
القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي
التومات
أويرات
السيان
الاويغوريون
صحراء كوبي
كرايت
المغول
التتر
امبراطورية تشن
امبراطورية هسي - هسيا
(التنكوت)
امبراطورية سنك
الهند
أنكوت
النهر الاصفر

بيئة المغـول الطبيعية

١ - موقع الأراضي المغولية وحدودها :

تقع أراضي المغول ، أرض الآباء والأجداد ، فيما بين نهريها المشهورين وهما «أونُون وكِرُولين» ، وهي المناطق الواقعة إلى الشمال من الصحراء المغولية «صحراء كوبي» ، كما سبق أن ذكرنا ذلك في بحث سابق لنا[١] . ولكن حدود مواطن المغول ، في كليتها ، قد أوردها لنا المؤرخون والرحالة المعاصرون لأحداث تاريخ الفترة ، التي ظهر المغول فيها على مسرح أحداث التاريخ العالمي أنئذٍ ، من مسلمين وغير مسلمين . فقد جعل أولئك المصنفون أراضي المغول تشمل مناطق وأصقاعاً شتى ، أوسع من ذلك بكثير . ففي هذا الخصوص يذكر لنا الجويني ، المؤرخ المسلم المعاصر للفترة ، بأن أراضي سُكْنَى قبائل المغول ، بطونها وفخوذها المختلفة ، هي تلك التي تقع ضمن الحدود التقريبية التالية : من الشرق يحدها أراضي الخطا ، ومن الجهة الغربية أراضي الاويغوريين ، ومن الشمال أراضي قبائل القرغيز ونهر سِلِنْكَا[٢] ، ومن الجنوب أراضي التنكوت والتبت[٣] .

كما ذكر ذلك المؤرخ المسلم بأن أراضيهم غير ذي زرع ، وأن عرض بلاد أولئك القوم ، الذين يسميهم بـ «التتار» يزيد على مسيرة سبعة أو ثمانية أشهر .

---

(١) الغامدي ، سعد حذيفة «سقوط الدولة العباسية» ١٤٠١ ، ص.ص : ٥٢ - ٥٣ .
(٢) نهر سِلِنْكَا هو أحد الأنهار في أراضي المغول ، ويصب في بحيرة بيكال .
(٣) علاء الدين عطا ملك الجويني ، «جهانكشاي» فارسي اللغة ، تحقيق المرحوم محمد بن عبدالوهاب القزويني ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م ، جـ١/ص : ١٥ وله ترجمة قام بها الأستاذ الدكتور : J. A. Boyle, "The History of the World Conqueror" Manchester University Press, 1958, Vol. I, P: 20 & F.N. 4.

لعله من الأنسب ، في هذا المقام ، أن نحدد ونُعَرِّف بعض الأسماء والأعلام التي أوردها مؤرخنا أو جاءت عند غيره . فقد جاء عنده «الخطا» وهو بذلك يقصد بكل تأكيد ، هاتيك الأراضي التي عرفت في المصادر الغربية الاوربية بـ «كاثاي - **Cathay**» ، وهي الأراضي الصينية الشمالية ، والتي يبدو لي أنها كانت تقع إلى الشمال من النهر الاصفر . وقد حكمها أسر كثيرة متعاقبة ، لعل أهمها «أسرة ليو» . وقد استمر حكمها لهاتيك الديار من عام ٢٩٥هـ/٩٠٧م حتى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م[١] . حيث طوحت بها أسرة جديدة جاءت بعدها وحكمت مكانها ، هي «أسرة جن أو جورتجن» وقد قدمت إلى أراضي الصين من منشوريا ، وحكمت الصين الشمالية خلال السنوات التالية ٥١٩ - ٦٣٢هـ/١١٢٥ - ١٢٣٤م[٢] .

من المعروف أن الأسرة التي حكمت فيما وراء النهر من أراضي المسلمين ، وفي إقليم التركستان ، هي فرع من «أسرة ليو» وعرفت في التاريخ الاسلامي بـ «القراخطائيين» أو «الكَورخانيين»[٣] ؛ حيث هزم

(١ـــ٢) لمعلومات عن تينك الاسرتين انظر : رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ، «جامع التواريخ» ، تحقيق د. بهمن كريمي ، طهران ١٣٣٨هـ . ش.جـ ١/ صفحات ٢٣٤ - ٢٣٥ - ٣٢٠ - ٣٢١ . راجع كذلك المصادر والمراجع باللغة الانجليزية ، للاستزادة من المعلومات ، حول تاريخ هاتين الاسرتين في :
Unknown, "The Secret History of the Mongols" translated by: A. Wally, London, 1963, P: 256; Carpini, "The Mongol History" Ed., Dawson, P: 21; Wittfogel and Feng Chia-Sheng, "History of Chinese Society: LIAO "407-1152, translated from Chinese Sources Philadelphia, 1949, PP 10-FF.; De Rachewilts, "Papal Envoys to the Great Khas, "London, 1971, P:32; Bretschneider, "Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources, "London, 1967, Vol. I, PP: 208-9; W.W. Bartold, "Four Studies in the History of Central Asia, "Leyden, 1962, Vol. I, PP: 78-80

(٣) فيما يتعلق بدولة «القراخطائيين» ، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٨٦ وبعدها .

«كَورخان» سلطان السلاجقة سنجر في معركة قطوان ، عام ٥٣٦هـ/١١٤١ م ، فكانت بذلك بداية النهاية لآخر السلاطين السلاجقة العظام[١] .

أما «الأويغوريون» فقد كانوا يسكنون أراضي أواسط آسيا ، مثلهم في ذلك كأي فرد ينتمي إلى العنصر التركي ، أو الجنس التركي . وقد كانت لهم دولة ذات سيادة ، بلغت أوج قوتها خلال الفترة من عام ١٣٣هـ/ ٧٧٠ م إلى سنة ٢٣٦هـ/ ٨٥٠ م . إلا أنهم طردوا من منغوليا على أيدي عنصر آخر من الجنس التركي عرفوا بـ «القرغيز» ، ثم إنكمشت قوة «الاويغوريين» من أواسط آسيا على أيدي الدولة «القرخطائية» السابق ذكرها . ورغم ذلك ، فقد ظلت لهم بعض المناطق إلى الجنوب ، حول البحيرات المنتشرة إلى الشمال من «نهر تاريم»[٢] .

أما «التتار» فإن الجويني ، في هذا الشأن لا يعني القبيلة المغولية المعروفة بهذا الاسم ، والتي تقع أراضيها القبلية إلى أقصى الحدود الجنوبية الشرقية من أراضي المغول في مجموعها . وقد أطلق المؤرخون ، المعاصرون وأغلب المحدثين ، مسلمون وغيرهم ، كلمة «التتار» أو «التتر» ، أو «تَرْتَوُسْ» أو «ترتر» أو «التأتأر» على الاراضي التي كان يسكنها المغول في مجموعهم . وقد سبق لنا أن ناقشنا هذا الخطأ الشائع ، كما يبدو لي ، في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» وأوضحنا وجه الالتباس ، في هذا الشأن[٣] .

---

(١) لمعلومات تفصيلية عن «معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها» أنظر مقالة لنا بهذا العنوان في مجلة «العصور» المجلد الثاني ، الجزء الأول ، جمادي الأولى ، ١٤٠٧هـ ، ص.ص : ٧٥ - ٩٤ .

(٢) فيما يتعلق بالدولة الاويغورية ، نشأتها وإتساع نفوذها ومصادر ومراجع مادتها ، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٧٩ وبعدها .

(٣) راجع : الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/١٥ ، والحاشية ٤ في جـ١/٢٠ من الترجمة الانجليزية ؛ رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/٥٧ ؛ كذلك :

أما مايتعلق بقبائل «القرغيز» فهم أيضاً إحدى الأقوام الذين ينتمون في أصلهم الجنسي إلى العنصر التركي ، وهم أقرب إلى حياة البداوة منهم إلى حياة الحاضرة ، المستقرة في مكان ومُسْتَقَرٍ معين . ومع ذلك ، فقد كان أولئك الأقوام ، وقت بروز المغول بقيادة «جنكيز خان» كقوة دولية ، تتمركز مناطق نفوذهم في الأراضي العلوية لنهر يَنَسِي . وقد كونوا لهم قبل هذه الفترة مملكة مستقلة جاءت بعد دولة «الأويغوريين» بعد أن طردوهم ، وأخذوا يتوسعون في مد نفوذهم حتى شمل كافة الأراضي المغولية . بلغت قوتهم ذروة مجدها في خلال سنوات القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريين/التاسع والعاشر للميلاد[1] .

أما سفير البابا انوسنت الرابع (٦٤١ - ٦٥٢هـ / ١٢٤٣ - ١٢٥٤ م) إلى البلاط الخاني المغولي «جون البلانو الكربيني «John of plano De Carpini- والذي بعثه ذلك البابا للتعرف على كنه المغول ، وطبيعتهم ، وأوضاعهم من كافة أوجهها ، ومن ثم نشر الديانة المسيحية بينهم وكسبهم إلى جانب القوى الصليبية الأوربية ضد المسلمين ، فقد

تابع (٣)
Rubruck, Friar William, "The Journey of william of Rubruck to the Eastern Part of the World 1253-55" with two accounts of the earlier Journey of John of Pian De Carpini, by: W.W. Rockhill, London, 1967, P:15 Preface; B. Ya. Vladimirtsov, "The life of Chigis-Khan", translated from Russian by: D.S. Mirsky, London, 1930, PP:10 - 11
انظر كذلك ترجمته العربية التي قمنا بها بعنوان : «حياة جنكيز خان - السياسية والادارية والعسكرية» بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ص.ص : ٢٧ - ٣٠ .

(١) لمعلومات عن القرغيز : أنظر الجويني ، «جهانكشاي» جـ ١/١٥ ، الترجمة الانجليزية ، جـ ١/٢١ والحاشية ٧ ؛ رشيد الدين ، «جامع التواريخ» جـ ١/١٠٩ - ١١٠ ، كذلك: "Hudud Al-Alam", Ed. & Tran. by: V. Minorsky, E.J.W. Gibb Memorial,XI, London, 1970, PP: 96-7, 282-6.

أورد ذلك السفير والرحالة الأوربي حدوداً لأراضي المغول ، منسجمة إلى حد كبير مع تلك الحدود التي قال بها المؤرخ علاء الدين الجويني ؛ ورغم ذلك فقد وصف حدود الأراضي المغولية في إطار أوسع ، حيث جعل مملكة المغول ، أو حدود نفوذ قبائل المغول ، إلى جهات الشمال والجنوب والغرب أكثر مما أورده الجويني . إذ إنه أدخل سيبيريا من الشمال ضمن أراضي المغول ، وجعل المحيط المتجمد الشمالي حدها من جهة الشمال ، كما جعل الأراضي الاسلامية في جنوب إقليم التركستان حدودها من جهة الجنوب ، وجعل أراضي قبائل النيمان وجبال الطاي حدودها من الجهة الغربية . وقد أضاف هذا الرحالة بأن رحلته في داخل أراضي المغول قد أخذت منه خمسة أشهر ونصف[1] .

من المعروف أن النيمانيين كانوا من القبائل المغولية التركية الكبرى ، والتي كانت أراضيها تحتل الحدود الغربية القصوى من أراضي منغوليا ؛ فقد كانوا يتمركزون في الجهات العلوية من منابع نهر «قرا-ارتش» وقد دخل جنكيز خان في حروب طاحنة مع قبيلتي النيمانيين الشرقية والغربية ، وهو يوحد كافة قبائل المغول تحت نفوذه . لذلك فقد كانت هاتان القبيلتان من أشد وأعتى ما واجه ذلك القائد المغولي من حروب أثناء فترة التوحيد تلك . وقد قضى عليهم بشكل نهائي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م[2] .

لذلك ، فإنه يبدو لنا أن حدود المغول من الشمال قد تمتد إلى أبعد لتشمل «بحيرة بيكال» والأراضي الواقعة على مصبات «نهر لينا ونهر

---

(١) Carpini, John of Plano, "History of the Mongol" Ed. by Ch. Dawson "The Mongol Mission" London, & New York , 1955, P: 6.

(٢) حول ذلك ، أنظر : الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/٤٦ - ٥٢ ، الترجمة الانجليزية ، جـ١/٦١ - ٧٠ ؛ رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/٩٥ - ٩٩ . كذلك ما كتبناه في هذا الخصوص في «سقوط الدولة العباسية» ، ٧١ - ٧٤ .

انكارا» . إذاً ، فما يمكننا استنتاجه من مصادر مادتنا إنه قد تكون حدود المغول في إطار الأماكن التالية : سيبيريا الباردة تحدها من الشمال ، وصحراء كَوبي الحارة صيفاً والقارصة البرودة شتاءً هي حد المغول من الجنوب ، وربما تصل في هذه الناحية إلى أسوار الصين العظيمة وقت قوة قبائل المغول ، وجبال خنكاي من الشرق ، وجبال الطاي (التاي) الشاهقة من الغرب . ولو أمعنا النظر في هذه الحدود لوجدنا أنفسنا قد إستبعدنا أراضي قبائل القرغيز وأراضي التومات وهم – أي التومات من القبائل التركية المغولية وتقع أراضيهم إلى الشمال من القرغيز وأراضي النيمانيين ، من أراضي قبائل المغول ، على الرغم أن هذه القبائل قد أصبحت فيما بعد تعتبر جزءً من ممالك المغول ؛ بعد أن أضحت أراضيهم الشاسعة وقبائلهم المختلفة جزءً من إمبراطورية جنكيزخان ، التي أسسها ، وأشاد بناءها ، كما أمسى يطلق على ساكنيها فيما بعد «المغول»[1] .

أما مايتعلق بما أورده المصنفون حول ماعرف بـ «التنكوت أو هسي – هسيا» فإنهم يرجعون في أصلهم الجنسي إلى التبتيين ، وهم القاطنون في مناطق مرتفعات جبال التبت . وقد كونوا لهم دولة تقع أراضيها إلى الشمال الغربي من الأراضي الصينية ، وذلك في أراضي المقاطعتين الحاليتين «كانسو» و «نينغسيا» الصينيتين . وقد شرع المغول ، بقيادة جنكيزخان ، بغزو أراضيهم ، وذلك في أوائل القرن السابع الهجري/١٣ للميلاد ؛ فاستطاعوا إخضاعهم تحت نفوذهم . إلا أنهم أظهروا تمرداً على جنكيز خان ، فقاتلهم ، ومات وهو يقاتلهم . وقد

---

(١) لقد جعل رشيد الدين في «جامع التواريخ» ، جـ١/٢٦ ، هذه القبائل من ضمن قبائل المغول القديمة ، ومع ذلك فالذي يظهر لي أن هذا غير دقيق ، لأن أراضي «التومات» تقع في الشمال من أراضي «القرغيز» ، أي إنهم أكثر بعداً من «القرغيز» ، عن موطن المغول وقبائلهم ، إلا إذا قلنا بأن «القرغيز» هم أيضاً من قبائل المغول القديمة ، كما هو الوضع بالنسبة لقبائل التومات .

استأنف المغول ، بقيادة «أكتاي قآن» الحرب ضدهم حتى قضى على إستقلالهم ؛ بعد حروب متواصلة ، وبذلك أضحت مملكتهم تعد من ضمن إمبراطورية المغول المترامية الأطراف[1] .

أما فيما يخص «قبيلة الكرايت» ، فإنه على الرغم من أن الأراضي التي كانوا يسكنونها منذ فترة ظهور جنكيزخان ، فإنها تقع في قلب منغوليا تقريباً ، إلا أن رشيد الدين لم يعدها من المغول ، وأنما جعلهم ممن أطلق عليهم مغولاً فيما بعد ، أي بعد زمن ظهور جنكيزخان ، وتوحيده لقبائل المغول المختلفة ، بفترة ، مثلهم في هذا الشأن مثل النيمانيين والقرغيز وغيرهم[2] .

إن القاريء للتاريخ السياسي الحديث سيجد أن الاراضي المغولية قد تقلصت بشكل كبير جداً . فقد أصبحت في وقتنا الحاضر أصغر مما كانت عليه وقت مجيء جنكيزخان ، وتوحيد قبائل المغول تحت زعامته . حيث أخذت الدولتان العملاقتان الشيوعيتان (الدب الروسي من الشمال ، والتنين الأصفر الصيني من الشرق والجنوب والغرب) أجزاءً كبيرة من أراضي منغوليا الأصلية . إذ إن الصين أخذت مساحات شاسعة من الجهات الشرقية والجنوبية الشرقية ، والجنوبية الغربية ، فأصبحت هاتيك الأراضي ، التي تحتلها الصين وضمتها تحت سلطتها تعرف

---

(١) لمعلومات إضافية ، في هذا الخصوص ، أنظر : رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ ١/١٠٥ – ٢٠٢ ، ٣٠٦ – ٣٠٨ ثم المراجع التالية المتخصصة : R.K.Douglas, "The life of Janghiz Khan", translated from the Chinese Contemporary Chroniclers, London, 1877, PP: 54-8; Martin, H.D., "The Mongol Wars with Hsi-Hsia (1205-1227), Journal of the Royal Asiatic Soceity", 1942, PP: 195-228; C.C.Walker, "Jenghiz Khan", London, 1939, PP:39-44; Ralf Fox, "Janghis Khan", London, 1936, P: 143; J.J.Saunders, "The History of The Mongol Conquests", London, 1971, P:53. ؛ ثم كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٧٧ – ٧٨ .

(٢) رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/٢٦ . لمعلومات عن «قبيلة الكيرايت» أنظر كتابنا«سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٥٩ – ٧٠ .

بـ «منغوليا الداخلية» . ثم جاء الدب الروسي من الشمال الغربي فاحتل مساحات واسعة من الشمال من أراضي منغوليا ؛ فأخذت «بحيرة بيكال» وما يحيط بها من مساحات شاسعة ، فاحتلت جميع أراضي المواطن الأصلي للمغول ، تقريباً ، وهي المنطقة الواقعة بين نهري «أونون وكيرولين» . ولم يبق إلا أراضي قليلة تحيط بالأجزاء العلوية من «نهر كيرولين» ، فأصبحت هاتيك البقاع تعرف اليوم بـ «مقاطعة شيتا» الروسية . ومازالت روسيا تحتفظ بأكثر من مائة ألف جندي ، بآلاتهم وعتادهم الحربي الحديث ، داخل أراضي جمهورية منغوليا . وهي في صراع سياسي مع جمهورية الصين الشعبية حول الهيمنة على جمهورية منغوليا الصغيرة ، لإجبارها على الدوران في فلك هذه الدولة أو تلك . وهذه المسألة من أهم دواعي توتر العلاقات السياسية بين «التنين الأصفر في بكين» و «الدب الروسي الأسود في موسكو» في الوقت الحاضر ، فهما في صراع دائم على احتواء أكبر قدر ممكن من أراضي إمبراطورية جنكيزخان السابقة .

٢ - التكوينات الطبيعية للأراضي المغولية :

يذكر الراهب – John De Plano De Carpini ، الذي شاهد طبيعة أراضي المغول ، والتي سلكها ذهاباً وإياباً على قدميه ، أثناء بعثته إلى الخان المغولي «كويوك»[1] ، بأن أجزاء من أراضيهم ذات جبال شاهقة جداً[2] . كما أن

---

(١) كويك (٦٤٤ - ٦٤٦هـ/١٢٤٦ - ١٢٤٨ م) هو حفيد جنكيزخان ، وابن خليفته «اكتاي» (٦٢٧ - ٦٣٩هـ/١٢٢٩ - ١٢٤١ م) ، تولى السلطة بعد فترة وصاية أمه «تراكيناخاتون» (٦٣٩ - ٦٤٤هـ/١٢٤١ - ١٢٤٦ م) . وقد توفي عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨ م ، وهو في طريقه على رأس حملة إلى الغرب يعتقد بأنها كانت موجهة ضد دولة الاسماعيلية في إيران ، والخلافة العباسية في بغداد ؛ وقيل بأنه كان يريد قتل ابن عمه «باتو بن جوجي» والذي كان عميد بيت جنكيزخان في هذه الفترة . أنظر في هذا الشأن : كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ١٥٧ وبعدها .

(٢) لعله كان يقصد بهذه المناطق الجبلية سلسلة جبال «التاي أو الطاي» الواقعة إلى الجهة الغربية من منغوليا . والتي تتجه في تدرجها من الشمال إلى الجنوب الشرقي ، وتنتهي في صحراء «كوبي» كما سنرى بعد قليل .

أجزاءً أُخر عبارة عن أرض ذات سطح مستوٍ ؛ لذلك فإن أرضهم على وجه العموم ، كما يقول هذا الراهب ، تتكون من مساحات كبيرة تغطي معظمها الحصباءُ الرملية . ويوجد في بعض المقاطعات غابات صغيرة ؛ وما عدا ذلك فإنها عارية تماماً من أي أثر للأشجار ، ولا تمثل الأراضي الخصبة فيها ولا واحداً من مائة من مجموع أراضي منغوليا . كما أن أشجارها لا تثمر ما لم تروها الأنهار أو المياه الجارية . ثم يردف قائلاً ، بأن منغوليا قليلة الغدران ، والجداول ، والأنهار نادرة جداً هناك . إلا أنه يذكر بأن أراضي المغول هي أراضي رعوية ؛ وأن مراعيها كافية إلى حد كبير لمواشي أهلها[1] .

رغم هذا الوصف لذلك السفير البابوي، فقد أخفق في أن يذكر أي إسم من أسماء تلك المرتفعات ، أو لهاتيك السهول المنبسطة ، أو لأنهار منغوليا ، أو لبحيرات أرضها ، على الرغم من أنه أشار إلى ذلك إشارات عابرة ، حيث يقول بأن الغدران والجداول قليلة بها ، أما الأنهار فهي نادرة .

لعل وصف «جون» هذا لا ينطبق إلا على المناطق الجنوبية فقط ، والتي تقع إلى الجنوب من عاصمة المغول القديمة «قرا – قروم» ، وإلى الشمال من «صحراء كَوبي» وهي المناطق التي زارها «جون» ، في رحلته المشهورة ، كمندوب «للبابا انوسنت الرابع» إلى خان المغول .

في حقيقة الأمر أن الأراضي المغولية تتمتع بوفرة في بحيراتها ؛ وخاصة في الجهات الشمالية الغربية ؛ وكذلك بالكثير من الأنهار الجارية على مدار السنة ، والتي تقع في الجهات الشمالية ، والشمالية الشرقية والشمالية الغربية ، أكثر منها في القسم الجنوبي من أراضي المغول ؛ وهذه الأخيرة هي المناطق التي زارها «جون» . ولو قدر له ، وشاهد المناطق الشمالية ، لربما وجدها لاتختلف كثيراً عن أوربا في ذلك الوقت .

---

(١) Carpini, "The Mongol History" Ed., Dawson, P:5.

(أ) البحيرات :

كان يوجد في الأراضي المغولية سابقاً ، وهي الفترة التي شاهدت ظهور جنكيزخان ، عدد كبير من البحيرات . أولى ، وأكبر ، هذه البحيرات هي «بحيرة أوبسا Upsa Nur»(١) ؛ وتقع إلى الجهات الشمالية من نهاية وادي البحيرات الكبرى . وهي تعتبر أكبر وأعمق بحيرة ، ذات مياه عذبة في هذه الأراضي ، حيث تقدر المساحة التي تحتلها هذه البحيرة بحوالي ٢٠٨١ كيلاً مربعاً ، ذات عمق يقدر بحوالي ٧٨٥ قدماً (٢٣٩ متراً) تقريباً . ومع هذا ، فإن العديد من البحيرات الواقعة في وادي البحيرات الكبرى ، هي بحيرات مالحة ، وذلك لعدم وجود منافذ لمياهها ، فأصبحت بحيرات مغلقة . ومن أهم وأكبر هذه البحيرات «بحيرة هارا Hara Nur» و «بحيرة هارا اوسا Hara Usa nur» و «بحيرة هركس Hirgis Nur» .

ولعل «بحيرة خُنْبُسكُلْ Khubsugul» تتمتع بأروع منظر طبيعي بين البحيرات العديدة في منغوليا ، والتي تقع في أقصى الجزء الشمالي من البلاد ؛ إذ إن الجبال الشاهقة تكتنف هذه البحيرة من جميع جهاتها ، وتقع على إرتفاع يقدر بحوالي ١٦١١ متراً (٥٢٨٠ قدماً) عن سطح البحر ؛ وتستمد مياهها من أنهار كثيرة ، لا يقل عددها عن سبعة أنهار ؛ حيث تحتل مساحة تقدر بحوالي ١٦٢٩ كيلاً مربعاً . إضافة إلى ذلك ، فإنه يوجد في الجهات الشرقية القصوى من البلاد العديد من البحيرات ، ولعل أهمها «بحيرة بوير Buir Nur» ، والتي تحتل أيضاً مساحة تقدر بحوالي ٣٧٨ كيلاً مربعاً . وتعتبر أكبر البحيرات المغولية الواقعة في الشرق من منغوليا(٢) .

---

(١) لقد إستثنينا هنا البحيرات التي أصبحت جزءً من أراضي روسيا ، وأهم هذه البحيرات «بحيرة بيكال» لمعلومات إضافية حول هذه البحيرة وخاصة وضع مناخها في الشتاء ، أنظر : James Milmour, ''Among the Mongols'' London,?, PP: 46FF.

(٢) أعتمدت في هذا الموضوع وفي الذي يليه على : V.P.Petrov, ''Mongolia'' London, 1970. PP.17FF.

(ب) الأنهار المغولية :

يوجد نوعان من الأنهار في أراضي المغول، أنهار خارجية، وأخر داخلية. فالأنهار التي تقع تحت قائمة الصنف الأول، أنهار تفرغ مياهها في المحيطين المتجمد الشمالي، والهادي، على طول السواحل الروسية والصينية على التوالي. ولعل «نهر سِلِنْكَا Selenga» ، وهو أعظم وأهم الأنهار المغولية، من هذا الصنف الخارجي ؛ فهو ينحدر بمياهه باتجاه الشمال؛ هاتيك المياه التي تتجمع في هذا النهر من مساحات كبيرة، تقدر بحوالي سدس مساحة البلاد، ويستمد هذا النهر مياهه من منحدرات سلسلة «مرتفعات خنكَاي Khangai Mountains» . إذ إنه عندما ينتهي من الأراضي المغولية، فإن مياهه تتدفق في الأراضي المعروفة في الوقت الحاضر بـ «ولاية ماوراء بحيرة بيكال» الروسية، حيث إنها تصب متدفقة في «بحيرة بيكال»، ومنها إلى مياه المحيط المتجمد الشمالي، وذلك عن طريق «نهري أنكَارا Angara» ، والذي يصب بدوره في «نهر ينسي Yanisei R.» ، و «نهر لينا Lina R.» . وتقدر مساحة «نهر سِلِنْكَا» بحوالي ٢٦٣٩٤٣ كيلاً مربعاً؛ منها ٨٧٩٨١ كيلاً مربعاً فقط يقع في أراضي سيبيريا الروسية، والباقي، يقدر بحوالي ١٧٥٩٦٢ كيلاً مربعاً تقع في داخل الأراضي المغولية، في الوقت الحاضر. ويقدر طول هذا النهر بحوالي ١٢٠٤ أكيال منها ١٠٤٦ كيلاً تقع في الأراضي المغولية، والباقي، وقدره (١٥٨) كيلاً في الأراضي الروسية، كما أن أقل من نصف مجرى هذا النهر بقليل قابل للملاحة النهرية، وخاصة في مجرى النهر الشمالي، والقريب من الحدود المغولية- الروسية. ولهذا النهر روافد كثيرة، وهي في حد ذاتها تعتبر أنهاراً، كما سيرد معنا ذلك فيما بعد. كما يوجد أيضا أنهار أُخر، من هذا النوع، حيث تنتهي مياهها في المحيط المتجمد الشمالي، منها «نهر هرا Hara R.» الذي يقع قريباً من عاصمة المغول الحالية «أولان بأتور»؛ و «نهر يورو Yuroo R.» والذي يقع إلى الغرب من سلسلة «مرتفعات كنتي Kentei Ranges» و «نهر أورخون Orkhon R.» والذي يعتبر أحد روافده النهر الكبير «سِلِنْكَا». ورغم أن «نهر

أورخون» يعتبر رافداً ، فإن مساحة حوضه يقدر بحوالي ٨٢٦٤٠ كيلاً مربعاً ؛ وطول مجراه حوالي ١١٢٣ كيلاً . ومن أهم روافد هذا النهر الكبير «نهر تولا .Tula R» .

أما الأنهار التي تصب مياهها في المحيط الهادي ، عبر سواحل دولة الصين الحالية ، فإن أهمها «نهر كرولن .Kerulen R» و «نهر أونون **.Onon R**» الذي من روافده الكبرى «نهر إنكودا .Inkuda R» ؛ وكلا النهرين (كرولن وأونون) يلتقيان ليكونا نهراً عظيماً ، وهو «نهر أمور .Amur R» ، والذي بدوره يلتقي مع نهر آخر هو «نهر سونكاري .Sungari R» فيكونا نهراً واحداً تتجه مياهه إلى ناحية الشمال، فتصب حمولتها من المياه في السواحل الشمالية الغربية من المحيط الهادي . وتتجمع مصادر مياه «نهري أونون وكرولن» من منحدرات «سلسلة جبال كنتي» الشرقية، المذكورة أعلاه.

أما الصنف الثاني من الأنهار المغولية ، فهي من الأنهار الداخلية ، أي الأنهار التي تصب مياهها إما في بحيرات منغوليا ، وأواسط آسيا المغلقة الداخلية ، أو في سهولها ، أو في صحاريها الواسعة الأرجاء . ومن هذه الأنهار «نهر كبدو .Kobdo R» و «نهري دزبكان .Dzabkan R» و «نهر توين .Tuyin R» و «نهر بايدرك .Baydarag R» ، حيث تنتهي مياه معظم هذه الأنهار الداخلية في رمال «صحراء كوبي» .

مما يظهر لنا ، أن الأنهار والبحيرات الحلوة متوفرة في الأراضي المغولية . إلا أنه على الرغم من ذلك ، فإننا نجد أن المغول وحيواناتهم ، التي كانت ومازالت في الوقت الحاضر تقريبا ، مصدراً أساسياً لحياتهم ، يعانون من نقص في مياه الشرب ، صيفاً كان أم شتاءً . لأنه خلال أشهر الشتاء نجد أن الأنهار والبحيرات المغولية تتجمد ، وتظل على حالتها هذه لمدة قد تصل في بعض الفصول السنوية الشتوية إلى ستة أشهر . لهذا ، فإنه يتوجب على المغول وحيواناتهم ، أن يحفروا في أعماق الثلوج المتراكمة ،

وفي المياه المتجمدة حتى يَصِلوا إلى المياه الصالحة للشرب[1] .

وإذا ما قسمنا الأراضي المغولية إلى ثلاثة أقسام رئيسة ، لوجدنا أن ثلثاً منها فقط هو الذي يمكن أن يقال بأنه تتوفر فيه المياه السطحية (أنهار وبحيرات وجداول) بشكل كافٍ ؛ بينما نجد أن الثلث الآخر يعتمد في مصادر مياهه على المياه الجوفية فقط . أما الثلث الآخير ، فإنه لا توجد به مياه ، لا جوفية ولا سطحية .

وعلى وجه العموم ، فإن القسم الأول في المناطق الشمالية ، والثاني يحتل معظم المناطق الوسطى من البلاد ، بينما نجد أن الجهات الجنوبية هي التي تعاني من ندرة في المياه ، بل إنعدامها ؛ وبمعنى آخر فإن كمية المياه تزداد كلما اتجه المرء إلى الشمال من البلاد[2] .

٣ - تضاريس الأراضي المغولية ومناخها :

(أ) التضاريس :

توجد في الأراضي المغولية الجبال الشاهقة ، والتلال والسهول المرتفعة ، والصحاري المنبسطة الواسعة . فالجبال العالية تقع في الأجزاء الغربية ، والجنوبية الغربية ، كما توجد في الأجزاء الشمالية ، والشرقية من البلاد . فنجد أن الجبال ، والتلال ، والنجود ، والسلاسل الجبلية تغطي الجهات الغربية والجنوبية الغربية والوسطى والشرقية من منغوليا بمعدل يتراوح في ارتفاع جباله بحوالي ٣٣٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ قدماً (١٠٠٦,٥ إلى ٣٠٥٠ متراً) فوق سطح البحر ؛ بينما نجد أن معدل ارتفاع سهولها يتراوح ما بين ٣٣٠٠ إلى ٦٦٠٠ قدماً (١٠٠٦,٥ إلى ٢٠١٣ متراً) فوق سطح البحر ؛ حتى إننا نجد أن مايسمى بالمناطق المنبسطة ، والتي تقع إلى

---

(١) يجد القاريء الكريم وصفاً حياً لنوعية الشتاء في هذه المناطق ، وكيفية تجمد المياه في الأراضي المغولية ، فيما دونه لنا : James Milmours, "Among the Mongols, PP: 46 FF.

(٢) فيما يتعلق بهذه المعلومات عن الأنهار المغولية ، فقد استقيتها من : «J. Petrov, "Mongolia" P: 16

الشرق من البلاد ، ذات ارتفاع ليس بالقليل . حيث إن أكثر المناطق إنخفاضاً «عقدة نوور» ذات إرتفاع يقدر بحوالي ١٨٢٢ قدماً (٥٥٥,٧١ متراً) فوق سطح البحر .

تتمثل أعلى نقطة في الأراضي المغولية في قمة جبل «تابون بُوكَدو أُوْلا» الواقع في مرتفعات جبال الطاي ؛ حيث يبلغ إرتفاعها ١٥٢٦٦ قدماً (٤٦٥٦,١٣ متراً) فوق سطح البحر . ويبلغ المعدل العام لارتفاع جبال الطاي ١٢٥٤٠ قدماً (٣٨٢٤,٧ متراً) فوق سطح البحر ، بعرض قدره حوالي ٢٠٠ كيلًا تقريباً . تتدرج سلسلة هذه الجبال الشاهقة من جهاتها الشمالية الشرقية ، في انحدارها حتى تصبح سهولاً مرتفعة في الجهات الشرقية منها ؛ في حين أن الجهات الجنوبية الغربية متطرفة في شدة إنحدارها . وعلى العموم ، فإن سلسلة مرتفعات جبال الطاي الغربية تنحدر - كما قلنا - تدريجياً إلى الجهات الشرقية ، من إرتفاع ١٣٢٠٠ قدماً (٤٠٢٦ متراً) فوق سطح البحر غرباً ، حتى تصبح سلسلة من الجبال ذات الارتفاع المنخفض تسمى «بوجي الطاي» على إرتفاع قدره حوالي ٥٨٠٠ قدماً (١٧٦٩ متراً) فقط .

يقع إلى الشمال والشمال الشرقي ، من مرتفعات جبال الطاي ، مرتفعات آخرى تسمى «مرتفعات خنكَاي» . وتتميز هذه المرتفعات بكثرة البحيرات والأنهار ؛ وكذلك فإن الغابات تغطي معظم وديان هذه الجبال الكثيرة . وتأخذ سلسلة المرتفعات الجبلية لجبال «خنكَاي» بالانحدار إلى الجهات الشمالية ، حتى تندمج مع مرتفعات جبال «سايان» السيبيرية .

أما سلسلة جبال «كنتي Kentei Ranges» والواقعة إلى الشمال من البلاد فإنها تتدرج في إنحدارها إلى الجهات الشرقية والجنوبية ، حيث تنتهي من الجنوب في صحراء كَوبي ، وفي السهول المغولية من ناحيتها الشرقية ؛ ويبلغ إرتفاع سهول منغوليا في هذه الجهة مابين ١٩٣٠ و ٢٦٤٠ قدماً (٥٨٥,٦ إلى ٨٠٥,٢ متراً) فوق سطح البحر ؛ ويتخللها تلال تصل في إرتفاعها إلى حوالي ٣٩٦٠ قدماً (١٢٠٧,٨ متراً) فوق سطح البحر .

لعل أجمل جزء في الأراضي المغولية هي المنطقة التي تسمى بوادي البحيرات الكبرى ، والتي – كما قلنا – تقع في الجزء الشمالي من البلاد ، في المنطقة الواقعة بين سلسلة مرتفعات جبال «خنكَاي» ومرتفعات «جبال الطاي» العالية . لأن هذا الوادي الكبير تحتضنه من جميع جهاته ، قمم الجبال الشاهقة ؛ وتزيد في جمال البحيرات المتعددة ، بشكل غاية في الجمال الطبيعي .

أما في أقصى الشرق من الأراضي المغولية فهناك مرتفعات «جبال خنكَاي Khangai Mountains» والتي تشكل قوساً يتجه من الشمال إلى الجنوب ، وتتدرج في إنحدارها الجنوبي حتى تنتهي في الشمال الشرقي من صحراء كَوبي المغولية .

أما الجهات الجنوبية من الأراضي المغولية ، فإنه على الرغم من أنها ذات علاقة كبيرة بصحراء كَوبي ، فإنها – على وجه العموم – لم تكن صحراء جرداء . إذ ليست مناطق كَوبي صحراء بالمعنى الدقيق ، إذ إنها في الحقيقة شبه صحراوية بدون أنهار . أما صحراء كَوبي فلا تحتل سوى ثلث مجموع أراضي كَوبي في شكلها الكلي[1] .

(ب) المناخ السائد في منغوليا :

وصف لنا «جون الكربيني» المناخ في منغوليا في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، بأنه مناخ متطرف جداً ؛ فهو ليس مناخاً شاذاً فقط ، بل وغير منتظم . ففي حين تسود الكثير من الأماكن حرارة عالية جداً في أشهر الصيف الحارقة ، نجد أن السحب المصحوبة بعواصف رعدية ، وبرق يتلألأ كالشهب المتساقطة من السماء ، تسود أماكن آخرى ، ولا تلبث أن تعم الجو كله بسرعة مذهلة ودون سابق إنذار ؛ وهذا الأمر يؤدي ، في معظم الأحيان ، إلى موت الكثيرين من

---

(١) V.P.Petrov, ''Mongolia'', PP: 11-13.

الناس وأعداداً كبيرة من المواشي ؛ وفي غالب الأوقات تتساقط الثلوج في هذه الأشهر الحارة من السنة[1] .

كما يضيف «جون» القول بأن الأعاصير الباردة تطوح بالخيالة من على صهوات أجيادهم ، ويصبح من الصعب عليهم مواصلة ركوب دوابهم أثناء هبوب الرياح الشديدة . وذكر بأنه عندما تهب تلك الريح الشديدة فإن القوم يلقون بأنفسهم على الأرض خشية أن تجرفهم الريح ، لشدة وعنف هبوبها ، وهي محملة بكميات هائلة من الأتربة ، تنعدم معها الرؤية بالكلية .

أما في فصل الشتاء ، فيقول «جون» بأنه لا ينعم بشيء من المطر ، وإن شذت القاعدة وسقط مطر في هذا الفصل فإنه غالباً ما يكون مصحوباً بتساقط كميات من البرد . ويروي حادثة من هذا النوع جرت في فصل الصيف ، وقعت أثناء وجوده في منغوليا ، قائلاً بأنه عندما توج الخان (وكان آنذاك كويوك خان ، في ربيع الثاني سنة ٦٤٤هـ/آب – أغسطس عام ١٢٤٦ م) هبت عاصفة مصحوبة ببرد ، ونظراً لشدة الحرارة ذابت مياه البرد بسرعة فجرفت مياهها أكثر من مائة وستين شخصاً ؛ كما إكتسحت معها الكثير من المنازل بما كانت تحتويه من أمتعة[2] .

هذه نبذة مختصرة عن صفة المناخ ، كما وصفها ذلك الرجل نقلناها للقارىء . أما الآن فنعود إلى معالجة الموضوع بطريقة أكثر علمية .

فنقول بأن الأراضي المغولية تقع ضمن خطوط ودرجات العرض والطول التقريبية التالية :

---

(١) لعل جون يعني هنا تساقط البَرَد الذي غالباً ما يصاحب الأمطار الغزيرة ، والعواصف الرعدية ، وخاصة في فصل الصيف . ففي الجنوب من المملكة العربية السعودية ، وعلى مرتفعات غامد وزهران وما يقع شمالاً أو جنوباً منها تأتي أمطار فصل الصيف وفي الغالب ما تكون هاتيك الأمطار مصحوبة بزخات من البرد أو في بعض الآحايين يكون البَرَد شديداً ، وذا حجم كبير .

(٢) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, PP: 5-6.

بين (٤٢ درجة و ٥٢ درجة) عرضية، وبين (١٢٠ درجة و ٨٥ درجة) طولية. وكما ذكر «جون»، فإن المناخ في منغوليا مختلف وشاذ عن مناخ الأقطار الأخرى في العالم، التي تقع على نفس خطوط العرض الجغرافية، ولا يماثل مناخ منغوليا سوى مناخ التبت، وبعض مناطق أواسط قارة آسيا .

تعود العلة لتلك الاختلافات الشديدة إلى علو هضبة منغوليا الكبير عن مستوى سطح البحر أولاً ؛ ثم إلى التكوينات غير العادية في تضاريس البلاد ثانياً ؛ ثم إلى إنعزالها عن التأثيرات البحرية ثالثاً . فالأراضي المغولية بعيدة جداً عن تأثيرات المحيطات والبحار ، حيث تحجب السلاسل الجبلية المرتفعة تلك التأثيرات البحرية والمحيطية من أن تصل إلى داخل أراضي منغوليا . وقد نتج عن ذلك وجود مناخ جاف جداً ، مع تطرف شديد في درجات الحرارة بين الليل والنهار ، وبين الشتاء والصيف .

إذا ما قسنا درجة الحرارة في فصل الصيف ، فسنجدها شديدة التطرف ، ومرتفعة جداً ؛ وإن كانت تتدرج بالانخفاض كلما إتجه المرء إلى الجهات الشمالية من البلاد ، وتتراوح ما بين ٥٠ درجة فهرنهايت (١٠ درجات مئوية) في الشمال و ٧٧ درجة فهرنهايت (٢٥ درجة مئوية) في الجنوب . وقد تصل درجة حرارة بعض أيام فصل الصيف إلى ١٠٤ درجة فهرنهايت (٤٠ درجة مئوية) . أما معدل الفرق في درجات الحرارة فيما بين الشتاء القارس البرودة والصيف شديد الحرارة ، فإنه يصل في بعض الأحيان إلى ١٦٢ درجة فهرنهايت (٧٢,٢ درجة مئوية) . ويصل الفرق بين درجات الحرارة بين الليل والنهار إلى ٤٥ درجة فهرنهايت (٧,٢ درجة مئوية) . وفي الحقيقة فإن شتاء منغوليا قاسي البرودة جداً ، تصل درجة الحرارة في وسط أشهر شتائه ما بين ٥ درجات فهرنهايت (١٥ درجة مئوية تحت الصفر) ، وبين ٢٥,٦ درجة فهرنهايت (٣٢ درجة مئوية تحت الصفر تقريباً) ، وغالباً ما تصل إلى أقل من ذلك بكثير ، إلى ٤٩ درجة فهرنهايت (٥٦ درجة مئوية تحت الصفر تقريباً) . وفي بعض الآحايين تنزل درجة الحرارة إلى أقل من ذلك بحوالي

عشر درجات ، وخاصة في أيام الشتاء ذات السماء الصافية[1] .

(جـ) الرطوبة في منغوليا :

لم تحظ الأراضي المغولية بنسبة كبيرة في الرطوبة (أمطار أو ثلوج) ؛ ثم إنه بالاضافة إلى قلة نسبة الرطوبة فيها فإنها فوق ذلك غير مستقرة على وتيرة معينة ، حيث تتراوح ما بين ١٥,٣ بوصة في بعض السنوات ، بينما نجدها لا تصل في سنوات أخرى إلا إلى ٤ بوصات فقط . وقد أدى ذلك بدوره إلى وجود زراعة (في العصر الحديث طبعاً) غير مستقرة ، وقلقة غير ثابتة على وتيرة واحدة إلى حد كبير .

أما أوقات حدوث الرطوبة في منغوليا فإن ما يقارب ٩٠٪ منها تأتي في فصل الصيف ؛ ويتمثل ذلك في سقوط كميات كبيرة من البرد ، وأحياناً يتمثل في هطول أمطار مصحوبة بعواصف رعدية ، وأعاصير ؛ قد تصل الكمية الساقطة في بعض الأيام إلى ما يساوي نصف معدلها السنوي . أما بالنسبة إلى شتاء منغوليا ، فهو شتاء شديد الجفاف على وجه العموم ، أما إذا كان هناك شيء من الرطوبة في هذا الفصل فتتمثل في تساقط الثلوج ، والتي قد لا تصل في مجموعها إلى ما يساوي ٣٪ من معدل الرطوبة السنوي في هذه الأراضي .

لقد كان بُعْدُ الأراضي المغولية عن التأثيرات البحرية هو العامل الأول في وجود ذلك النقص في كمية الرطوبة الذي تعاني منه منغوليا ؛ هذا بالإضافة إلى وجود تلك السلاسل الجبلية الشمالية والغربية الشاهقة العلو ، حيث تقف حاجزاً أمام وصول أية بقية من رطوبة إلى الأراضي الداخلية في منغوليا ، إذ إن تلك المرتفعات تمتص ما تحمله الرياح من رطوبة ، الأمر الذي نتج عنه تكون غطاء عشبي في أراضي الغابات الغربية والشمالية من البلاد ؛ هذا بالإضافة إلى كونه المصدر الوحيد لمياه البحيرات المنتثرة في هاتيك البقاع ؛ أما السفوح الجبلية الواقعة خلف

---

(١) V.P.Petrov, ''Mongolia'', PP: 13-14.

الجبال المواجهة لهبوب الرياح فإنها لا تتلقى إلا النذر القليل من نسبة الرطوبة ، لذلك فقد أصبحت عارية من أي غطاء نباتي تقريباً .

بناءً على ذلك فقد تسبب شتاء منغوليا ، الشديد البرودة ، إلى تجمد التربة ؛ ومما يزيد حالة التجمد افتقار الشتاء إلى تساقط الثلوج ، كي تقوم بتكوين طبقة عازلة فوق التربة ، لتخفيف حدة تجمدها . لذلك ، نجد أن حالة التجمد تصل إلى أعماق في داخل التربة . لهذا نجد أن تربة ما تحت القشرة العلوية «Subsoil» تعتبر دائمة التجمد ، مثلها في ذلك مثل تربة سيبيريا . وهذا النوع من التربة الدائمة التجمد تمتد من حدود منغوليا الشمالية إلى أواسط البلاد ، بالقرب من الحدود الشمالية للعاصمة المغولية الحالية «آولان بأتور»[١]

(د) فصول منغوليا السنوية :

أما بالنسبة إلى الفصول السنوية ، فهي واضحة المعالم في منغوليا ؛ فإذا ما حسبناها حسب الأشهر الشمسية ، واتبعنا في ذلك الأشهر الميلادية ، لوجدنا أن فصل الربيع يبدأ في شهر نيسان/ابريل ، حيث تبدأ درجة الحرارة في الصعود إلى ما فوق درجة التجمد . ويتميز هذا الفصل بشدة هبوب الرياح ، والأعاصير الرملية ، فتهب الأعاصير الغربية على منغوليا ، وتحمل معها كميات هائلة من الرمال ، والأتربة إلى ناحية الشرق حتى تصل إلى منشوريا والأراضي الصينية الشمالية . وقد يعم ضررها إلى أبعد من ذلك ، فتغطي بالأتربة سماء مدن مثل بكين وتينتسين ، وهاربن . ويستمر فصل الربيع لمدة شهرين تقريباً . وقد شاهد ذلك الرحالة والمبعوث البابوي «جون الكربيني» فأورد لنا ما شاهده في مصنفه الذي دونه كشاهد عيان[٢] .

أما أشهر فصل الصيف فهي ثلاثة أشهر ، هي حزيران/يونيه

---

(١) V.P. Petrov, ''Mongolia'', PP: 14-15.

(٢) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, PP: 5-6.

وتموز/يوليه- حيث تبلغ درجة الحرارة قمتها في شهر آب/اغسطس بعد ذلك تبدأ أشهر فصل الخريف، إذ هي الأشهر المحببة والمفضلة في منغوليا؛ حيث السماء تصبح صافية، وتسمن المواشي خلال هذه الأشهر، ويكثر فيها حليب الأفراس بكميات كبيرة جداً، وهو- كما سيرد معنا- الشراب المفضل لدى الشعب المغولي.

أما فصل الشتاء، فهو أطول الفصول السنوية المغولية، حيث تتراوح أشهره ما بين أربعة إلى خمسة، وقد يصل إلى أكثر من ذلك. وهذا الفصل، على وجه العموم، فصل بارد؛ وتهب فيه رياح قوية يزول معها ذلك الغطاء الرقيق من الثلج، والمتكون فوق التربة ليحميها من التجمد؛ لأنه، وكما هو متوقع، لا يوجد أي عائق يقف حائلاً أمام الريح الثلجية التي تهب من سيبيريا بقوة، وعنف غاية في الشدة، لكي تسد ذلك الضغط الواطيء أو (المنخفض الجوي) الذي يسود المناطق الجنوبية، حيث الهواء الدافيء الذي يهب من جنوب البلاد. ومع هذا، فإن إزالة الغطاء العازل من الثلج، والذي يصحبه تجمد التربة، هو عامل مفيد للرعاة من المغول، حيث يحافظ على النباتات الرعوية للحيوانات المغولية، على مدار السنة بكميات كافية.

وعلى وجه العموم ، فإنه يمكن تلخيص مناخ منغوليا في كلمات قصيرة مختصرة . وهي أن المناخ في الشتاء سيبيري غاية في شدة البرودة ، وفي فصل الصيف صحراوي شديد الحرارة ، وفي فصل الربيع تكون شدة التقلب في درجات الحرارة ، دون سابق إنذار ، حيث تسوده العواصف الرملية المفاجئة ، مع إنخفاض شديد في درجة الحرارة ؛ ولعل فصل الخريف أفضل فصل لدى المغول . ومع هذا فإن التطرف المناخي الشديد ، هو القاعدة العامة للمناخ في منغوليا[١] .

(هـ) أقاليم منغوليا النباتية :

تختلف النباتات في منغوليا حسب نوعية التضاريس ، والمناخ ،

---

(١) V.P. Petrov, "Mongolia", PP: 14-15.

وخطوط العرض ، ونسبة الارتفاع عن سطح البحر . ويوجد في الأراضي المغولية ، على وجه العموم، ستة أقاليم مناخية للنباتات ، بشكل واضح إلى حد كبير .

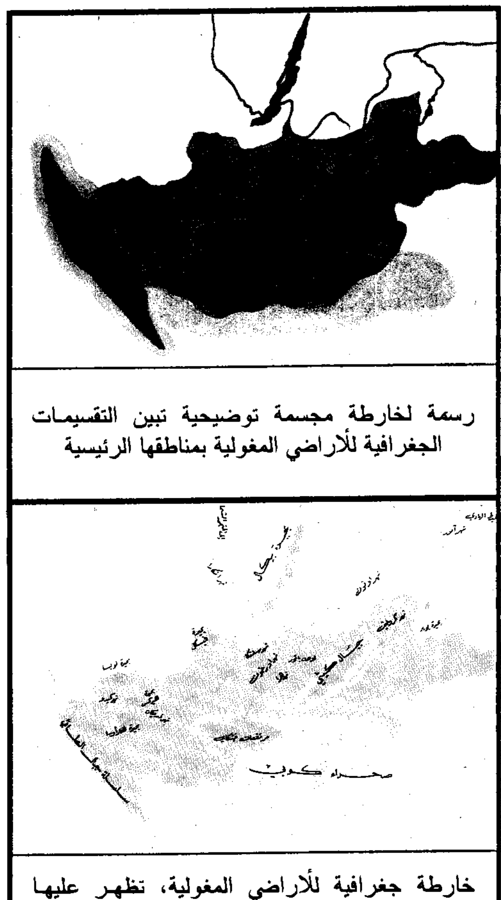
١ - **النباتات الألبية**: وهذه النباتات تنمو وتعيش ضمن نباتات خطوط العرض العالية؛ وهذا النوع من النبات يوجد على إرتفاع يتراوح بين ٦,٥٠٠ إلى ١٠,٠٠٠ قدماً (٩٨٢,٥ إلى ٣٠٥٠ متراً) فوق سطح البحر ، حيث يوجد في المناطق الشمالية، والشمالية الغربية من البلاد، وخاصة في مرتفعات السلاسل الشرقية لجبال «سايان، وخنكَاي Sayan and Khangai Mountains» وجبال «الطاي Al-Tai» ويوجد في هذه المناطق مروج خضراء، ومناطق رعوية خصبة للحياة الحيوانية، التي تمثل العمود الفقري لبقاء الفرد المغولي، وعماد إقتصاده.

٢ - بعد ذلك نجد **غابات الصنوبر الجبلية** تغطي منطقة صغيرة المساحة نسبياً ؛ حيث توجد في الأجزاء الشمالية من سلسلة مرتفعات جبال خنكَاي ، وفي منطقة «بحيرة خوبسكَول Khubsugul lake» على إرتفاع حوالي ٦٠٠٠ قدماً (١٨٣٠ متراً) عن سطح البحر .

٣ - **الغابات** ، **أو السهوب الجبلية** ، وتقدر المساحة التي تحتلها هذه النباتات المناخية النفضية بخمس الأراضي المغولية تقريباً . وتتمتع هذه المنطقة بغطاء من الحشائش تمثل مراع جيدة للمواشي . وتوجد هذه المنطقة المناخية في المقاطعات الجبلية من الجزء الشمالي من البلاد .

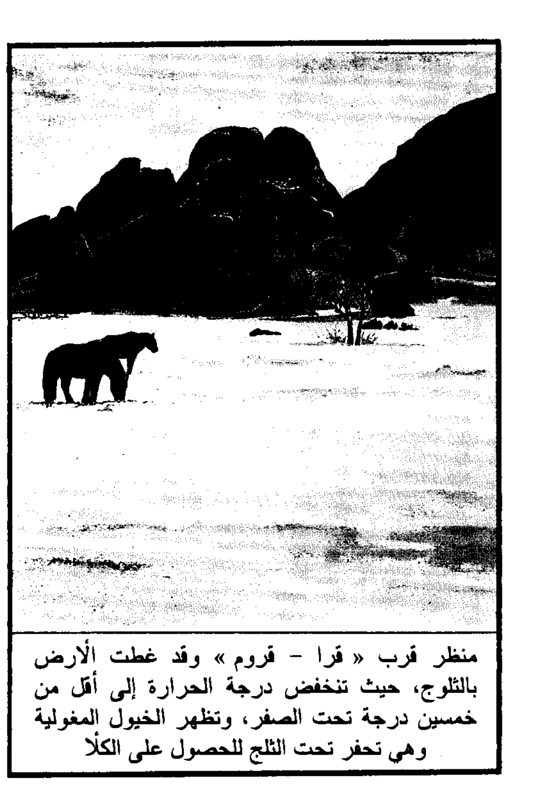
٤ - **إقليم السهوب** ، **أو البراري** : ويوجد هذا الأقليم في المناطق الشرقية من البلاد ؛ حيث يغطي مساحات واسعة ؛ إذ أن حوالي ٩٠٪ من هذه السهوب تعتبر مناطق رعوية من النوع الجيد .

٥ - **إقليم شبه الصحراوي** : ويوجد هذا الإقليم المناخي بشكل رئيس في الجهات الشمالية من صحراء كَوبي ؛ كما يوجد أيضاً في جزء من وادي البحيرات العظمى . وأعشاب وحشائش هذا الأقليم خشنة ، لجفاف وخشونة المناخ .



رسمة لخارطة مجسمة توضيحية تبين التقسيمات الجغرافية للأراضي المغولية بمناطقها الرئيسية

خارطة جغرافية للأراضي المغولية، تظهر عليها المرتفعات الجبلية، والهضاب والصحارى المنبسطة، ومناطق الأنهار، والبحيرات المتعددة



منظر قرب « قرا - قروم » وقد غطت الأرض بالثلوج، حيث تنخفض درجة الحرارة إلى أقل من خمسين درجة تحت الصفر، وتظهر الخيول المغولية وهي تحفر تحت الثلج للحصول على الكلأ



رسمة تخيلية لفتاتين مغوليتين مسلمتين من اقليم القفجاق، وعليهما الملابس الوطنية



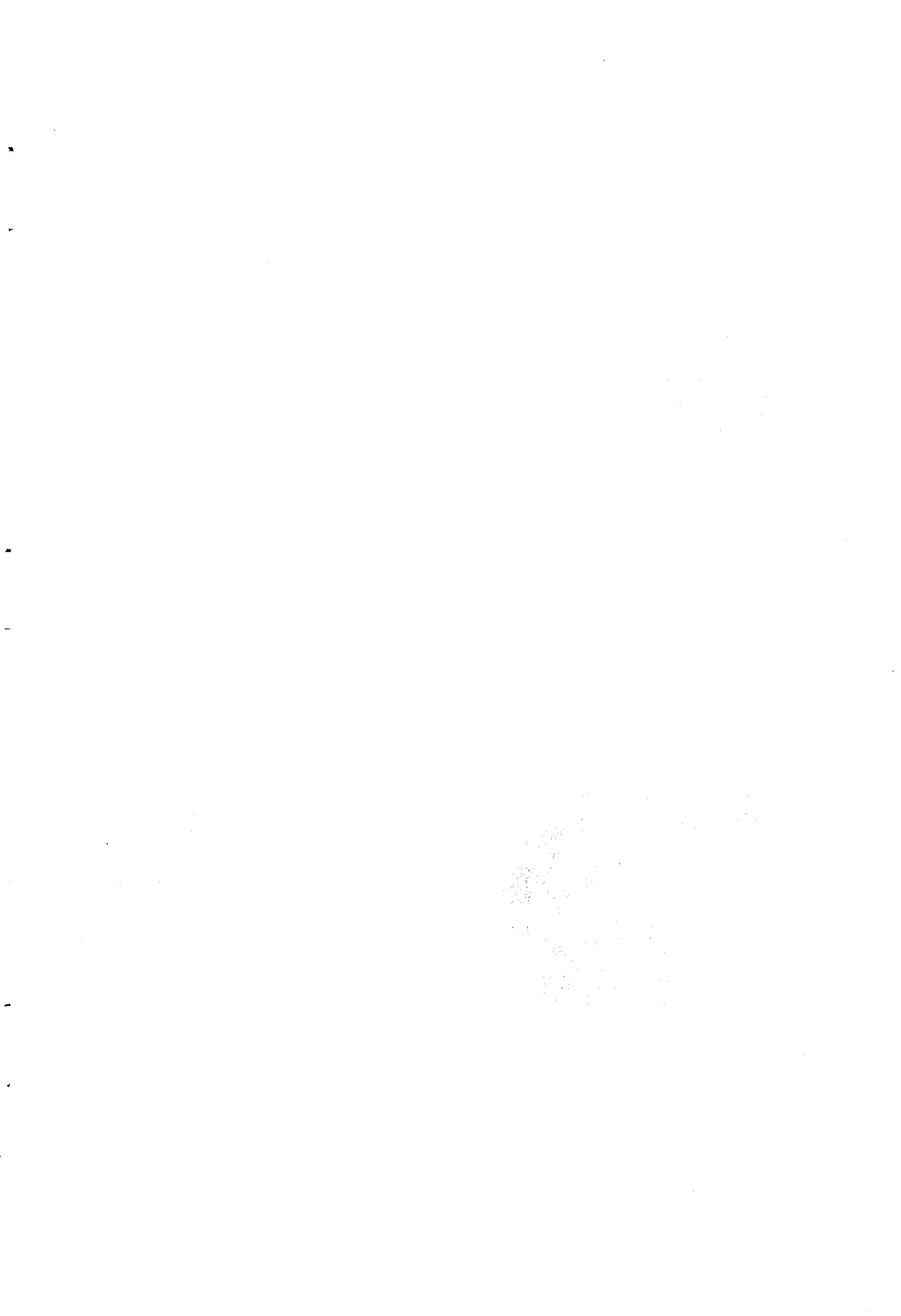
رسمة تخيلية لفتاة مغولية مسلمة من اقليم القفجاق، ليلة عرسها



رسمة تخيلية لجلسة أكل وفرح، من جلسات المغول البيض «أي المتطورين حضارياً»



رسمة تخيلية لامرأة مغولية مسلمة من اقليم القفجاق، ومعها صغيرها



٦ - **الإقليم الصحراوي** : ويوجد هذا الإقليم بشكل واضح ورئيس في الجهات الجنوبية الغربية من صحراء كوبي ؛ كما يوجد على حافات صحراء آسيا الوسطى . وهو تقريباً عارٍ من أي غطاء نباتي ؛ لأن هذا الإقليم إقليم جاف جداً ، ومتطرف في مناخه .

وعلى العموم ، فإن ثلثي الأراضي المغولية تعتبر أراضي رعوية من النوع الممتاز[1] .

٤ - الحياة الحيوانية في منغوليا :

يعتمد الانسان المغولي في حياته على الحيوان إعتماداً ، لا أكون مبالغاً إذا قلت بأنه ، يبلغ مائة في المائة . إذ لا يمكن للمرء هناك أن يعيش بدون الحيوان . وتتمتع الأراضي المغولية بوفرة هائلة في الحياة الحيوانية ، من حيث العدد وتعدد أشكال الحيوانات هناك ؛ وسواء أكان ذلك في المناطق الجبلية ، أم كان في الغابات والأدغال ؛ حيث توجد في هذه المناطق الحيوانات ذات الفراء . ومن هذه الحيوانات ـ على سبيل المثال : السمور ، والقضاعة (ثعلب الماء) ، والفاقم (أو القاقوم) ، والسنجاب ، والقندس . كما توجد في هذه المناطق أيضاً الحيوانات ذات الحوافر ، منها الرَّو (وهو نوع من الظبي) ، والآيل ، والموظ ، والرنة .

أما في المناطق ذات المناخ شبه الصحراوي ، فتوجد فيها حيوانات برية ، أهمها حُمر الوحش ، حيث توجد على وجه الخصوص في الجهات الجنوبية الغربية من البلاد ؛ وكذلك الحصان المغولي البري ، حيث يوجد في منطقة «نهر بلكَونه Balguneh Region» ؛ وكذلك هناك الجمال ، وإن كان هذا النوع من الحيوانات كان آنذاك قليلاً جداً .

أما بالنسبة للطيور ، فيوجد في منغوليا أنواع شتى من الطيور البرية ، وخاصة في الغابات ، والسهوب المغولية ، إلا أن أكثرها وفرة هو الحجل ، والرومي البري ؛ كما توجد أنواع كثيرة من الطيور المهاجرة ، تجذبها كثرة

---

(١) المرجع السابق ، ص.ص : ١٨ ـ ١٩

الأنهار والبحيرات ، وخاصة في المناطق الشمالية . وأهم هذه الطيور المهاجرة البط ، والوز . أما الجهات الغربية من البلاد فتسود فيها ، وبشكل رئيس ، طيور التدرج [١] .

أما فيما يتعلق بالحيوانات الأليفة الداجنة لدى المغول ، فإن بيئتهم تمتلك ثروة حيوانية كبيرة جداً ؛ وأهم هذه الحيوانات : الضأن والماعز ، والثيران ، والبقر ، والجمال ، والخيل . وهنا يحدثنا «جون الكربيني» بأن بيئة المغول غنية جداً في هذه الحيوانات التي ذكرناها ، وأن المغول يملكون أعداداً هائلة من الخيول والأفراس ، لدرجة أن «جون الكربيني» لا يعتقد بأن العالم في مجموعه يملك عدداً منها يساوي ما لدى المغول [٢] . على الرغم مما يظهر من مبالغة في رواية هذا السفير ، فإن هذه إشارة إلى الكثرة الهائلة العدد ، التي تتمتع بها أراضي منغوليا من هذا الحيوان في ذلك الوقت .

حول هذا الموضوع ، وتأكيداً لما رواه «جون» في هذا الصدد ، يحدثنا الرحالة المسلم شمس الدين بن بطوطة عن ثروة المغول الهائلة من هذا النوع من الحيوانات ، وعن مدى إعتماد حياتهم عليها . وقد زار ابن بطوطة المغول في إقليم (القبتشاق) ، وذلك طبعاً بعد أن استقروا ، وكونوا لهم دولاً ، منها الدولة المغولية في إقليم القفجاق (القبتشاق) والتي عرفت أيضاً بـ «القبيلة الذهبية» هذه التي زارها هذا الرحالة المسلم [٣]

---

(١) لقد إعتمدت بشكل رئيس ، في معلوماتي ، لأعداد هذه المعلومات على : V.P. Petrove, ''Mongolia'', PP : 11-20; C.C. Walker, ''Jenghiz Khan'', PP : 13-16; Micheli Silvio, ''Mongolia in Search of Marco Polo and other Adventures'', translated from the Italian by : Bruce penman, London 1967, through his book; Carpini ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, PP :6-8 .

(٢) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, P : 8.

(٣) ابن بطوطة ، شمس الدين أبو عبدالله اللواتي ، «رحلة ابن بطوطة» ، بيروت ، ١٣٧٩هـ ، ص.ص : ٣٢٧ – ٣٢٨ .

ورغم أن المغول إنتقلوا إلى بقاع كثيرة من العالم ، وكونوا لهم إمبراطورية واسعة الأرجاء ، فإنهم لم يغيروا شيئاً من صلب حياتهم ، وخاصة ما يعتمد منها على الخيل ؛ حيث نجدهم يحافظون على طابعها العام في هذا الميدان ، أينما ذهبوا ، وحيثما حلوا ، رغم مضي السنوات ، وتعدد الأجيال .

يقول «ابن بطوطة» ، بعد ما يقرب من قرن من الزمن بعد زيارة «جون» لمنغوليا ، أن الخيل بتلك البلاد (يعني بالطبع أراضي القبتشاق المغولية) كثيرة جداً ، وأن ثمنها زهيد ، قيمة الجيد منها خمسون درهماً أو ستون درهماً من دراهمهم ، وذلك ما يعادل صرف دينار أو نحوه . ومن هذه الخيل معاشهم ، «وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا ، بل وأكثر ، فيكون للترك (وهو هنا يعني المغول) منهم آلاف منها . ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد (وحياة المغول لا تختلف عن حياة بقية الأسر المغولية في أية بقعة من بقاع الأرض التي إحتلوها) أصحاب الخيل أنهم يضعون في العربات التي تركب فيها نساؤهم قطعة لُبُد في طول الشبر مربوطة إلى عود رقيق في طول الذراع في ركن العربة ، ويجعل لكل ألف فرس قطعة . ورأيت منهم من يكون له عشر قطع (يعني أن صاحب تلك العربة يملك عشرة آلاف فرس) ومن له دون ذلك ..» . ويقوم المغول بتصدير هذا الحيوان ، العظيم الأهمية في حياتهم ، إلى بقاع شتى من أرض المعمورة في وقته . ويقول «ابن بطوطة» بأنهم يصدرون أعداداً كبيرة إلى بلاد الهند والسند ؛ فتكون الدفعة المصدرة في بعض الأحيان ستة آلاف ، وما فوقها وما دونها ؛ ولكل تاجر المائة والمائتان ، فما دون ذلك وما فوقه ، حسب قدرة التاجر . وللعناية بهذه الأفراس والخيول يستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم[1] .

يسمى الخيل المغولي «البوني» ؛ ويمتاز بالقوة ، والرشاقة ، وخفة الحركة ، وتغلب على طبعه الحدة . كما أن الخيل المغولي له صفتان مهمتان

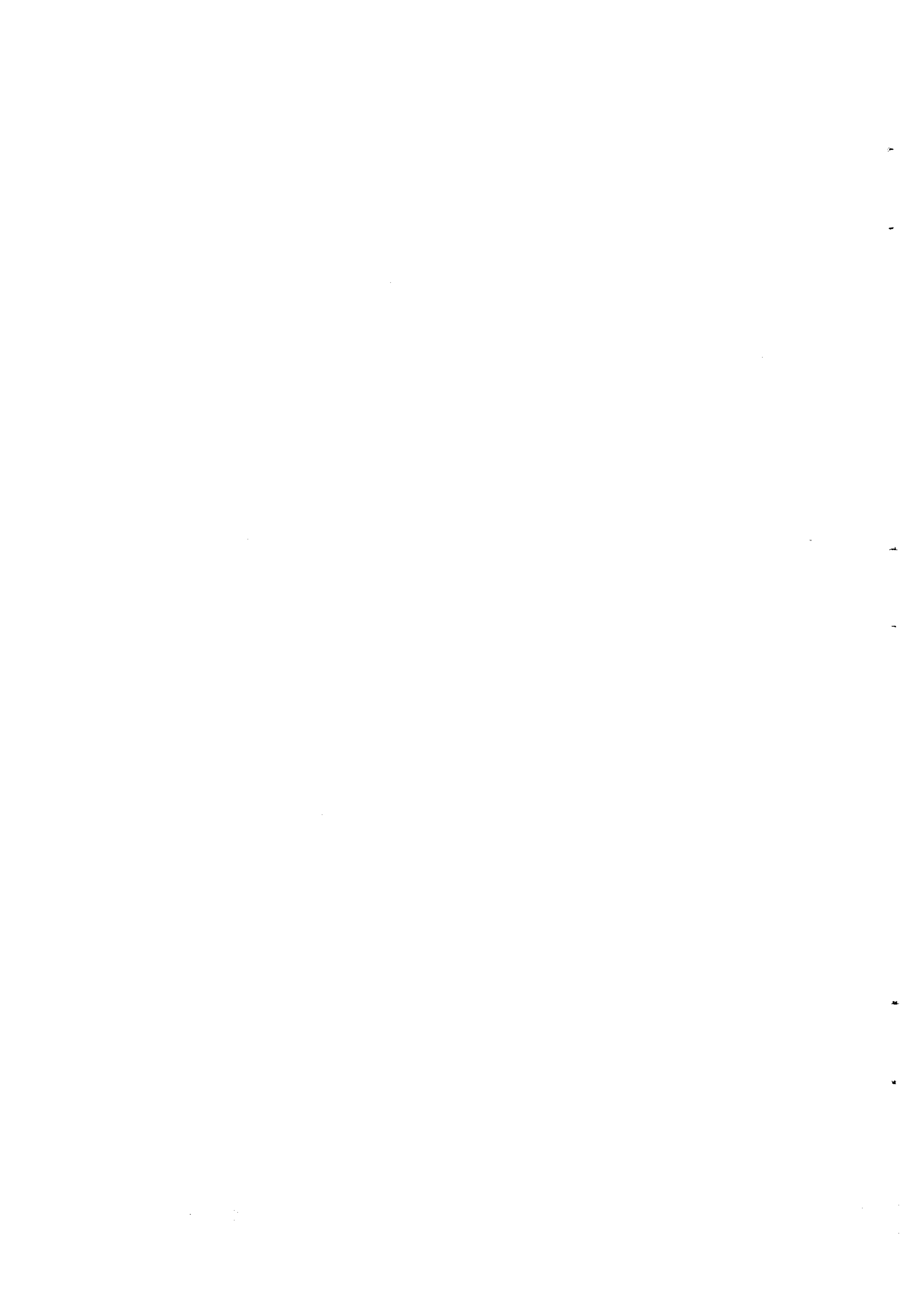
---

(١) المصدر السابق ، نفس الصفحات .

القوة وشدة التحمل ، واتساع خطاه . ولهاتين الصفتين المتميزتين كان أهل السند والهند ، كما يقول «ابن بطوطة» ، يبتاعونها ، وذلك لاستخدامها في الحرب ، حيث يلبسون الدروع ، ويدرعون الخيل[1] .

---

(١) المصدر السابق، ص: ٣٢٨. أنظر كذلك: Marco polo, "The Description of the World", Ed. by: Aurther Ch. Moule and Paul Pelliot, London, 1938, Vol. I, PP: 167-8; also: B. Spuler, "History of the Mongols...,"The English Ed., London, 1972, P:172.



الفصـــل الثاني

غـذاء المجتمع المغولي ولباسـه ومسكنـه

١ – غذاء المجتمع المغولي .

(أ) مقدمة الفصـل .

(ب) طعام المجتمع المغولي .

(جـ) مايشربه المجتمع المغولي .

٢ – اللباس في المجتمع المغولي .

(أ) لباس الرجل .

(ب) لباس المرأة المغولية المتزوجة .

(جـ) لباس الفتاة المغولية .

(د) لباس المرأة المغولية المسلمة .

٣ – المسكن في المجتمع المغولي .

(أ) الشكل الخارجي العام للمنزل المغولي .

(ب) الشكل الداخلي للمنزل المغولي وتقسيماته .

١ - غذاء المجتمع المغولي :

(أ) مقدمـة الفصـل :

حينما برز «جنكيزخان» على مسرح أحداث التاريخ ، في الجهة الشرقية من قارة آسيا ووسطها ، ثم في غربيها فيما بعد ، كان الانسان المغولي يعتبر في قائمة الانسان البدائي ، في جميع مناحي شؤون حياته ، وخاصة ما يتعلق بأكله وشربه . ويعتبر ذلك جزءً من التقليد والعادة التي درج عليهما ، فقد ظل على هذا المنحى حتى بعد أن احتك بعالم زمانه المتحضر ، وذلك في أواخر القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد . فعلى الرغم من إتساع رقعة دولتهم ، والتي شملت كافة أقاليم وشعوب الأمم الآسيوية تقريباً ، ومدت نفوذها إلى أقطار أوربا الشرقية والوسطى ، إلا أن مسألة التحضر والتطور في نوعية طعامه ، وطريقة أكله وشربه ، لم يطرأ عليها تغيير كبير ، في مجتمع المغول ، في موطنهم الأصلي ، وحتى العصر الحديث . فما كان ينطبق عليهم ، في أيام «جنكيزخان» ، نجده يتمثل في كثير من مجتمعاتهم في هذا القرن ، وخاصة بين أوساط مجتمعاتهم البدوية ، فيما بين القبائل التي تسكن المناطق شبه الصحراوية ، أو في مناطق الغابات ، والأدغال . لذلك فالقاريء لأي تقرير عنهم في العصر الحديث يجد أن الحياة الاجتماعية والناس لا يكادون يختلفون عما يقرأه عنهم في كتابات المؤرخين ، والرحالة ، في زمن «جنكيزخان» وأبنائه وأحفاده من بعده ، قبل سبعة قرون مضت . فهو مجتمع بدوي ، إلى البدائي أقرب منه إلى الانسان الأكثر تمدناً . إذ إنه يعتمد كلية على حيوانه ، الذي يقوم على تربيته ، ويحلبه ويصربه ؛ أو الذي يصيده للحمه وجلده وفِرائه ، للأكل وللباس[١] .

---

(١) صنف في آواخر الثمانينيات من القرن الهجري الرابع عشر الماضي عن المغول في الوقت الحاضر وهو يصف المغول ، وحياتهم . فلا تكاد تجد فرقاً بين ماضيهم وحاضرهم . والكتاب هو : "Mongolia in Search of Marco Polo and other adventures", for Micheli Silvio in Italian Language translated into English by: B. Penman, London, 1967.

لذلك فإننا سنتطرق في الصفحات القليلة التالية من هذا الفصل إلى جزء من حياة المجتمع المغولي ؛ وهذا الجزء هو أهم مقومات الانسان ، ألا وهو «طعام المجتمع المغولي وشرابه» . يقول المؤرخ المسلم ، الذي عاصر المغول ، وزحفهم ضد العالم الأسلامي ، عز الدين بن الاثير ، في معرض كلامه عنهم بأنهم : «... ، ولايحرمون شيئاً ، فإنهم يأكلون جميع الدواب ، حتى الكلاب ، والخنازير وغيرها ...»[1] .

لقد أصاب مؤرخنا ، فيما رواه عن المغول ، بل إنه لم يذكر شيئاً يأكله المغول ، سواءً من لحم الكلاب ، والخنازير ؛ حيث ربما إنه لم يكن يتصور بأنهم يأكلون لحم البشر ، بل وحتى مشيمة الحيوان بعد الولادة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، كما سيرد معنا بعد قليل ؛ وهذا ما يحدثنا به رجل عرفهم عن قرب ، وتعامل معهم ، وعاش بين ظهرانيهم ، وهو «John De Plano De Carpini» . حيث يقول بأن طعامهم يتكون من كل شيء يستطيعون أكله ؛ فهم يأكلون الكلاب ؛ والذئاب ، والثعالب ، والخيول ؛ وعندما تجبرهم ظروف الجوع والضرورة ، فإنهم يقتاتون على لحوم البشر . ثم يردف «جون الكربيني» روايته تلك من أنهم ، أثناء الفترة التي كانوا يحاصرون «الخطا»[2] ، نفدت عليهم المؤن الغذائية ، واستمر حالهم على ذلك لمدة طويلة . وعندما لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، شرعوا يأخذون من بينهم رجلاً من كل عشرة رجال . ثم يذهب هذا السفير البابوي إلى رواية أبعد من هذه بكثير ، فيقول بأنهم يأكلون ما يخرج من انثى الخيل (الفرس) من أوساخ عندما تلد مُهرها ، يعني

(١) عز الدين بن الأثير ، «الكامل في التاريخ» بيروت ، دار صادر ، جـ ٩/ ٣٦٠ .

(٢) يقصد بذلك أثناء حصار المغول عاصمة إمبراطورية «جن» شمال الصين ، وهم الذين عرفت أراضيهم لدى الأوربيين في ذلك الوقت بـ «الكاثاي Cathay» . وقد غزاهم «جنكيزخان» ، وإقتحم عاصمتهم «بكين» في صفر عام ٦١٢هـ/حزيران ، يونيه سنة ١٢١٥ م . راجع ذلك في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص : ٧٨ وبعدها ، وما ورد في تلك الصفحات من الحواشي .

المشيمة وغيرها . بل ليس هذا فقط ، فقد شاهدهم يأكلون القمل ؛ ويذكر بأنه عندما يسأل بعضهم عن ذلك كانت إجابته : «لماذا لا آكل القمل ، في حين أنهم يتغذون على لحم إبني ويمصون من دمه» . ويذكر بأنه شاهدهم يأكلون الفئران[١] .

أما رواية «ويليم الربركي القس Friar William of Rubruck»[٢] فإنها تعتبر أكثر تفصيلاً ، في هذا الموضوع ، من غيره ممن عرف المغول . وقبل أن نورد ما ذكره هذا السفير الملكي في هذا الشأن ، يروق لي أن أشرح للقاريء والباحث الكريمين شيئاً عن هذا الرجل ، وأسباب رحلته إلى منغوليا ، وبعضاً مما قيل عنها .

قام الملك «لويس التاسع» ؛ ملك فرنسا فانتدب هذا القس إلى بلاط خانات المغول ، فاستغرقت رحلته حوالي سنتين (٦٥١ - ٦٥٣هـ/١٢٥٣ - ١٢٥٥ م) . فهو ممن عاصر المغول ، وسكن معهم في عاصمتهم «قرا - قروم» وغيرها لفترة كافية ، عرَّفته عليهم عن كثب ، وأصبح ما كتبه عنهم ، في رحلته إليهم ، من أهم مصادر معلوماتنا التاريخية ، والعلمية بشكل عام . لقد حاول «I. De. Rachewiltz» في مصنف له أن ينفي دور الملك «لويس التاسع» في مسألة إرسال ذلك القس ، إلى مهمة سياسية ، كان الغرض منها توحيد الجهد مع المغول ضد المسلمين وأخذ بيت المقدس منهم ؛ والمصنف بذلك أراد نفي الرأي الشائع بين المؤرخين في هذا الخصوص . ومع ذلك ، فإن الحقيقة تبدو جلية في ناحيتين :

١ - أن هذا القس كان مصاحباً للملك الفرنسي في حملته الصليبية الفاشلة ، والتي بدأت بمصر ، فكان نصيبه الآسر ، بعد هزيمة جيشه على أيدي المماليك . ورغم كرم المسلمين بإطلاق سراحه ،

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, P: 16.

(٢) فيما يتعلق بمصنف هذا السفير ، أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٣٩ - ٤٠ .

فقد كان حقده دفيناً على المسلمين ، ولو جاءه شيطان لتحالف معه ضدهم . لذلك فقد أرسل «لويسُ» «القسَ ويليَم» لأنه يحمل نفس الروح العدائية للمسلمين ، ليكون رسوله إلى خانات المغول ؛ لعله يجد عندهم ماكان يبتغيه ، وذلك لإيجاد حلف شرقي وغربي ضد المسلمين[1] .

٢ – أن هذا المصنف قد ناقض نفسه في ناحيتين :

(أ) إثبات صحة صحبة القس لذلك الملك القس هو الآخر ، وهذه حقيقة لا يمكنه إنكارها ، إن هو حاول ؛ ثم بقاؤه مع الملك في فلسطين حتى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢ م ، أي إن ذلك يعني أنه ظل مع الملك قرابة أربع سنوات (٦٤٦ – ٦٥٠هـ/١٢٤٨ – ١٢٥٢م) ، فلا يمكن أن يذهب ذلك القس إلى منغوليا ليجد أو يبحث عن فلان أو علان من رجال الدين المسيحيين ، ممن كان قد ذهب إلى منغوليا ، ولم يعد ، في محاولات لتنصير المغول ، وعقد أحلاف معهم . وقد عرف ما آلت إليه رحلات السابقين من الفشل الذريع ، وهذا ما ذكره هذا المصنف أثناء كلامه عن رحلة «الكربيني» في نفس الصفحة .

(ب) لقد ذكر المصنف أن الملك قد وصلته أنباء تفيد أن أميراً مغولياً قد اعتنق المسيحية ، وأن هذه المعلومات قد جاءت إلى الملك من جهات مختلفة . على حد تعبير هذا المصنف[2] . لقد كان ذلك

---

(١) يستطيع القارىء والباحث الكريمان أن يرجعا إلى ماكتبه «ويليم» في رحلته تلك عن المسلمين في آسيا الصغرى ، ليطلعا على حقد سيده ، الذي إنعكس فيما كتبه هو في ص : ٢١٧ . راجع كذلك ماقلناه في هذا الخصوص في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٣٦٣ – ٣٦٤ .

Friar William of Rubruck, "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World, 1253-55", with two accounts of the earliar journey of John of Plano De Carpini, Ed., by: Dawson, P:217.

(٢) I.DeRachewiltz,"PapalEnvoystotheGreatKhans",London,1971,P:125.

الأمير المغولي الذي اعتنق المسيحية ، هو «سرتق بن باتو بن جوجي بن جنكيزخان» . ومن المعلوم جيداً أن مسألة اعتناق هذا الأمير المغولي للمسيحية تعني وقوف القوم إلى جانب الملك الراهب ضد المسلمين . وفي الحقيقة فإن في سفارة ذلك الراهب تكمن مهمة فتح باب المفاوضات معهم ، لإيجاد حلف مع المغول ضد المسلمين . كيف لا ، ونحن نعرف مدى تشبث الأوربيين بأي حليف ضد المسلمين ، فقد انتشرت بينهم أساطير كثيرة ، وما أسطورة ذلك الملك المسيحي المشرقي ، الذي سيقدم من الشرق ، ويهزم المسلمين ، ويأخذ منهم فسلطين وبيت المقدس ، ذلك الملك الأسطوري هو ما عرف في مصنفات المؤرخين الأوربيين بـ «بريسترجون Prester John» . وقد طرقنا هذا الموضوع بنوع من التفصيل في بحث لنا سابق ، كما طرقه مؤرخون أوربيون ؛ فلابد أن يكون في مخيلة «لويس التاسع» صورة ماتزال حية لذلك الملك المسيحي الأسطوري ، الذي سيقدم إليه من الشرق ، ويحالفه ، ويهزم المسلمين(١) .

(ب) طعام المجتمع المغولي :

نرجع الآن إلى موضوعنا «طعام المجتمع المغولي» ، وإلى ما أورده لنا «القس الراهب ويليم الربركي» في هذا الشأن ، حيث يذكر بأنه يقول على أن طعام ومؤن المغول تتمثل حتى في الحيوانات الميتة ، وبدون استثناء ؛ وإن الحيوانات والمواشي ، التي تتوفر بأعداد هائلة هناك بشكل خاص ، كانت تموت وبأعداد كبيرة ، فلا يترددون على الإطلاق في أكلها ، إلا أنهم ، مع ذلك ، لا يهتمون في فصل الصيف ، بأي نوع من أنواع الأكل أو اللحوم ،

---

(١) فيما يتعلق بذلك الملك المسيحي الأسطوري «بريسترجون Prester John» أنظر : «Travel and Travellers of the Middle Ages''. Ed., by: A. Newton, London, 1930, Chapter IX كذلك كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٣١٨ وبعدها ، كذلك مقالتنا التي بعنوان : «معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها» مجلة العصور ، ص.ص : ٧٥ – ٩٤ من المجلد الثاني ، الجزء الأول عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م .

أو الحرص في الحصول عليه ؛ لأن «الكوزموس Kuzmos»[1] يوجد بكثرة هائلة . لذلك فإنهم في القليل النادر يأكلون لحماً ، بل إن ذلك يترك للظروف ، وحسبما يتفق ، أي عندما يقدمه إليهم أحد ، أو ما قد يقع تحت أيديهم من الصيد ، سواءً كان ذلك حيواناً ، أم طيراً ، قد يحصل لهم عن طريق الصدفة . أما إذا صادف ومات ثور ، أو حصان ، فإنهم يُشَرِّحُون لحمه إلى شرائح طويلة ودقيقة ، ثم يعلقونها لتتعرض لضوء الشمس وحرارتها ، ولهبوب الهواء ، حتى تجفف بهذه الطريقة ، دون أن يصبح لها رائحة كريهة ، وحتى بدون أن يضيفوا عليها أملاحاً ؛ إذ إنها لا تنعدم ولا يصيبها تلف . أما الأمعاء ، فإنهم يضعون بداخلها مادة مأكولة ، فيصبح لديهم محشي ، ويتعمدون أكلها طازجة . أما بقية اللحم ، فإنهم يحتفظون به إلى فصل الشتاء ، حيث يصنعون من جلود الثيران جِرَارًا عظيمة الحجم ، وذلك بتجفيفها بالدخان ، وبطريقة فنية . كما يقوم المغول بطبخ طعامهم على النار ؛ حيث يجلسون حولها ، الرجال على طبقاتهم ، من الرئيس ، أولاً ، أو الأمبراطور ، إلى الفقير . ويتكون وقود نارهم ، بصفة أساسية ، من روث الأبقار ، والخيول ، وغيرها ، بعد أن يكون جافاً[2] .

يذكر «ويليم» أن الرجل المغولي يمكنه أن يطعم خمسين شخصاً ، وأحياناً مائة ، من لحم شاة واحدة فقط ؛ حيث يقوم بتقطيعها ، بعد أن يقدها نصفين من الصدر ثم يذبحها من حلقها ، حيث يضع اللحم بعد طبخه في إناء صغير ، ثم يُقَطِّعُهَا برأس سكينته ، أو شوكة مخصصة لهذا الغرض[3] . بعد الانتهاء من ذلك يناول الرجال ، القيم على ذلك العمل ، كل شخص عنده لقمة أو لقمتين ، حسب العدد ، وكمية اللحم المتوفر . إلا أنه لا يشرع في تقسيم اللحم إلا بعد أن يبدأ برئيس القوم أولاً ، حيث

---

(١) هو حليب الفرس . لمعلومات عن هذا النوع من الشراب المفضل لدى مجتمع المغول ، أنظر : «Rubruck, ''The Journey..,''Ed., Dawson, P:98.

(٢) أنظر المصدر السابق ، ص.ص :٩٧ – ٩٨ .

(٣) لمعلومات عن طريقة ذبح المغول لحيواناتهم ، أنظر الجويني ، «جهانكشاي» ج ٢٠٦/١ .

يأخذ الكمية التي يرتضيها، ثم يوزع الباقي على الحاضرين. أما إذا ما أعطى ذلك الرئيس أحداً قطعة أو شيئاً من ذلك اللحم ، فله أن يأكله، وله أن يعطي شيئاً منه إلى من يشاء. وإن أراد أن يأخذه معه إلى منزله فله ذلك، حيث يضعه في جراب يحمله معه لوضع أشيائه من هذا النوع بداخله. ثم يردف هذا الرحالة والسفير قوله، أما العظام، فإن كان لديهم وقت كافٍ في مجلسهم ذاك، فإنهم يقرضونه بأسنانهم، ويستخرجون منه المخ، وإذا لم يكن لديهم، في مجلسهم ذلك، متسع من الوقت فإنه يوزع على بعض الحضور، لأخذه معهم؛ وبعضهم يعطيه إلى خادمه، إن كان موجوداً معه ليحتفظ به له ليقرضه فيما بعد، ثم يستخرج ما بداخله من المخ، قبل إعطاء باقي العظام إلى الكلاب. وعلى هذا الأساس فإن طعامهم لا يتلف منه حتى القليل، الذي يعتبره غيرهم من الأمم شيئاً يتلف[(١)].

أما «جون الكربيني» فيردف القول ، في هذا الشأن ، أن المغول لا يملكون خبزاً ، ولا يأكلون أعشاباً ، ولا فاكهة . فلا أكل لديهم إلا اللحم ، ومع ذلك فلا يأكلون منه إلا بكميات قليلة .

لهذا فلا تستطيع أمة من الأمم ، غيرهم ، أن تعيش على ما يعيش عليه المغول لقلته وزهادته . يتناول المغول أكلهم بأيديهم ، التي تتسخ بالدهنيات أثناء عملية الأكل . وبعد الانتهاء فإنهم لا يغسلونها ، بل يمسحونها في ملابسهم التي يرتدونها ، وخاصة في ذلك الغطاء أو اللباس المصنوع من الجلد الذي يغطي سيقانهم ، أو في العشب ، أو ما شابه ذلك . أما القليل منهم ؛ وخاصة من الناس ذوي المكانة الكبيرة ، فربما يؤتى لهم بقطعة قماش ، فيمسحون بها أيديهم من الدهنيات بعد الانتهاء من أكل اللحم[(٢)] .

عندما يأكلون بشكل جماعي ، فإن الرجل قد يقطع اللحم إلى قطع

---

(١) Rubruck, ''The Journey..,''P: 98.

(٢) Carpini, ''History of the Mongol'' Ed., Dawson, P:16.

صغيرة ، فيقدم إلى كل واحد قطعة برأس سكينته ؛ فيعطي البعض منهم كثيراً أو قليلًا ، تختلف باختلاف مكانة الرجل المُطْعَم[1] .

أما ما يتعلق بغسل الأواني، التي يستخدمونها لطهي طعامهم ، فإن المغول يضعون اللحم مع المرق، وبعد ذلك لا يغسلونها. وإن أرادوا تنظيفها فإنهم يشطفونها بالمرق الذي طبخ فيه اللحم ، فيعيدون ذلك المرق إلى الإناء الذي نقل فيه اللحم والمرق بعد الانتهاء من طبخه. كما أن الملاعق والشوك تنظف بنفس الطريقة.

يعتبر الانسان المغولي من الذنب، أن يتلف أي طعام أو شراب، بأية طريقة كانت، فالعظام لا تعطى إلى الكلاب إلا بعد قرض ما يستطاع قرضه أولاً، ثم أخذ ما تحتويه من المخ، ثم بعد ذلك تعطى الكلاب فضلات العظام[2] .

مع أن المغول تحضروا، بحكم تقليدهم للشعوب التي كانت أكثر تحضراً منهم، واعتناقهم لأديان مختلفة باختلاف الشعب أو الشعوب التي خضعت لنفوذهم؛ إلا أن نوعية اللحوم، المكونة بصفة رئيسة من لحوم الخيل، والطريقة العامة في الطبخ، وكيفية تقطيع اللحم ثم طريقة تقسيمه ، مازالت هي طريقة الآباء والأجداد، التي كانت متبعة في الموطن الأصلي في منغوليا.

حول هذا الموضوع ، يحدثنا «ابن بطوطة» ، بعد قرن ونصف من خروج المغول من عزلتهم شرق جبال «الطاي» وشمال صحاري منغوليا ، قائلاً بأن طعامهم من لحوم الخيل والغنم حيث يقدم مسلوقاً ؛ وبعد أن ينضج يأتي «الباروجي»[3] وهو مُقَطِّعُ اللحم ، وعليه ثياب حرير ؛ وقد ربط عليه

---

(١) Rubruck, "The Journey.." P: 98.

(٢) Carpini, "History...,"PP:16-17.

(٣) صحة هذه الكلمة «باوورجي» أو «بوكاوول» . وهي كلمة مغولية – تركية ، وتعني المشرف على الطعام والشراب ؛ وقد كانت من الوظائف المهمة التي لا يوكلها «جنكيزخان» (ومن بعده خلفاؤه) إلا إلى من يثق فيه . حول هذا الموضوع أنظر المؤلف الروسي الكبير : W.W. Bartold, "Turkestan Down to the Mongol Invasion", Gibb Memorial Trust New Series, V, London, 1968 & 1977, P: 382 & Note: 4.

فوطة واقية من الحرير أيضاً ، وفي حزامه جملة سكاكين في أغمادها ، ويكون لكل أمير باروجي (باوورجي) ، فإذا قدمت المائدة قعد بين يدي أميره ، ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء ، فيُقَطِّعُ «الباروجي» اللحم قطعاً صغيرة ، ولهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطاً بالعظم ، فإنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم[1] .

(جـ) مايشربه المجتمع المغولي :

أما ما يتعلق بما يشربه الفرد في ذلك المجتمع الغريب ، في كثير من مناحي حياته ، فَيَعْتَبِرُ الانسانُ المغولي حليبَ الفرس شرابه المفضل ؛ حيث يحتل قائمة أنواع ما يشربه . فهو يشربه بكميات كبيرة جداً ؛ فهو لا يكاد يشرب غيره من السوائل إذا ما توفر هذا النوع من أنواع شرابه ، أو يمكن أن يحصل عليه بسهولة . لهذا السبب ، على ما يبدو لنا ، جعل الرجل من أهم مهامه العائلية العناية بالخيول ، وحلب أفراسها وصربها . فمعدل ما يملكه الرجل ثمان عشرة فرساً لشرابه ؛ حيث يقوم المغولي بغرس وتَدين في الأرض ، على بُعْدٍ مناسبٍ ؛ ثم يقوم بإيصالهما بحبل طويل ، حيث يربط فيه مُهر فرسه التي يرغب حلبها لكي يحصل الرجل منهم على أية كمية من حليب فرسه . وفي الصباح الباكر يأتي بتلك الفرس إلى مُهرها المربوط في ذلك الحبل ، فتأنس بالوقوف بجانبه ، فتعطي حليبها لمن يقوم بحلبها ، والذي غالباً ما يكون من الرجال . أما إذا كانت الفرس جموحاً ، ولا تسمح لأحد بحلبها ، فإنها تربط ، ويؤتى بمُهرها ، ويسمح له بالرضع منها قليلاً ، ثم يبعد عنها جانباً ، ويحتل الرجل الحالب مكان المُهر ، حتى ينتهي من حلبها . وهكذا ، تُحْلَبُ فرسٌ بعد أخرى ، حتى يتجمع لديه كمية كبيرة من الحليب .

يقوم بعد ذلك بوضعه في إناء جلدي كبير «السقاء» مخصص لهذا الغرض ثم يقوم بمخضه بواسطة عصا غليظة جداً ذات رأس كرأس الرجل ؛ وهي مصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ؛ يستمر في هذه العملية ،

---

(١) ابن بطوطة ، «رحلة ..» ص : ٣٣٠ .

حتى يستخلص منه ما تكون عليه من الزبدة ؛ ثم يشرب ذلك اللبن .

يصف لنا «ويليم الربركي» مذاق هذا النوع من اللبن ، فيقول بأنه يلذع لسان المرء أثناء الشرب ، فله طعم كطعم الخل ؛ وعندما يتوقف عن الشرب ، فإنه يترك على اللسان مذاقاً كطعم عصارة اللوز ؛ ويحدث عند شاربه نشوة روحية وعقلية عجيبتين . ثم يردف «ويليم» القول ، بأن هذا اللبن قد يُثْمِلُ الرجل الضعيف الاتزان[١] . إلا أن «ابن بطوطة» يقول لنا بأنه ذاقه ، ولكنه «.. ، لا خير فيه ..»[٢] . أما الرحالة الايطالي «ماركو بولو» فيذكر لنا بأنه جيد جداً للشراب ، حيث يعرفون جيداً كيف يصنعونه بطريقة ممتازة[٣] .

إن هذا النوع من الشراب هو الشراب للسواد الأعظم من المغول. أما شراب الخاصة منهم، وهم الرؤساء وعلية القوم، فإنه يُصْنَعُ له الـ «قرا – كُزْمُسْ Qara-Kuzmos» أي «شراب الكُزْمُسْ الأسود». حيث يجلب حليب الفرس بعد حلبه، ثم يمخض حتى يترسب في قاع إنائه كل مادة تجمعت أعلاه، ويبقى كل شيء نقي إلى أعلاه، ويصبح لونه مثل لون مصل اللبن، أو المسك الأبيض؛ فتعطى الحثالة إلى الخدم (وهي مادة بيضاء اللون وذات تأثير لارتخاء الأعصاب والخمول ثم النوم) أما السائل الصافي، فيقدم إلى الرؤساء وعلية القوم، كشرابهم المفضل. ويصفه «ويليم الربكي» بأنه شراب ممتاز، ومنشط جداً، وهو بعكس مايقدم للخدم[٤] .

تورد لنا بعض مصادر مادتنا شدة حب المجتمع المغولي لحليب الأفراس . ففي هذا الخصوص ، يورد لنا «الربركي» رواية حول الكمية الكبيرة التي كان يستهلكها واحد من أسرة «جنكيزخان» . كان ذلك

---

(١) Rubruck, "The Journey..", Ed., Dawson, PP: 98-99.

(٢) ابن بطوطة «رحلته» ص : ٣٣٥ .

(٣) Marco Polo, "The Description of the World", Vol. I, P:171 also: Spuler, "The Mongol History", P: 175.

(٤) Rubruck, "The Journey", P:99.

الأمير هو حفيد جنكيزخان «باتوبن جوجي» ؛ حيث كانت له مملكة والده التي ورثها هو الآخر عن «جنكيزخان» . وقد لعب «باتو» هذا دوراً سياسياً وعسكرياً بارزين في حياته ، فقد كان قائد جحافل المغول ، أثناء إجتياحها لغرب آسيا وشرق أوربا ، في حملتهم المشهورة ؛ كما كان هو الذي يوصل فلاناً أو علاناً إلى كرسي الامبراطور ؛ لذلك كانت تسميه مصادرنا الأوربية بـ «صانع الملوك»[1] .

يذكر سفير الملك «لويس التاسع» الفرنسي ، «ويليم الربركي» بأن «باتو» كان لديه ثلاثين رجلاً ، وهم مخصصون لتزويد سيدهم «باتو» بما يحتاجه من حليب الأفراس ؛ وكان كل رجل منهم يجلب حليب مائة فرس . وهذا يعني إنه كان يجمع حليب ثلاثة آلاف فرس ، في كل يوم ؛ وهذا بخلاف أنواع الحليب التي تؤخذ من مصادر غير هذا المورد[2] .

لعل هذا الراوية الأوربي ، الذي شاهد هذا بعينيه ، وكان ممن قابل «باتو» يعني أن هذه الكمية من الحليب هي ما يحتاجه ذلك الأمير المغولي هو وأسرته بكاملها ، وكذلك كبار رجال بلاطه ، وقادة جنده ، والقيمون على خدمة منازله ، وهم يُعَدُّون بالمئات . وذلك لمرتبة «باتو» السامقة ، بين الأمراء المغول ، حتى إنني لاأجدني مبالغاً إذا قلت بأن «باتو» كان يُعتبر أعلى مكانة من الأمبراطور «منكَو» ، الذي كان على عرش المغول ، فقد كان يخطب وده ، ويخشى بأسه أكثر من أي أمير مغولي آخر .

أما إذا لم يكن لدى المرء منهم حليب فرس ، فإنه يستعيض عنه بأنواع أخرى من الحليب ، مثل حليب الضأن والماعز ، وحليب الأبقار ، وحليب النوق[3] .

---

(١) لمعلومات في هذا الموضوع ، راجع «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ١٤٨ - ١٥٦ ، ١٦٠ - ١٦٣ . وخاصة المراجع والمصادر الواردة في حواشيه .

(٢) Rubruck, "The Journey..",P:99.

(٣) Rubruck, "The Journey..", P:99.

يصنع المغول السمن من حليب الأبقار بشكل أساسي ، بعد أن يستخلصون الزبدة ، وذلك بعد مخض الحليب بالطريقة المذكورة أعلاه ؛ ثم يأتون بالزبدة فيغلونها فتصبح بعد الغليان سمناً . ونتيجة لذلك ، وكما هو معروف ، لا يتلف السمن حيث سبق أن غُلِي على النار بطريقة جيدة ، ويحتفظون به إلى وقت الشتاء ، حيث يقل إنتاج حيواناتهم من الحليب .

كذلك فإن الأقِط يصنع أيضاً من لبن الأبقار ، وذلك بالطريقة التي نعرفها نحن هنا ؛ فيغلى اللبن حتى يخثر ، ويصبح مادة جامدة ، ويجعل في شكل أقراص صغيرة ، ثم يوضع في العراء عرضة للشمس والهواء ، حتى ينشف ، حيث يصبح جافاً ويابساً جداً ؛ ثم يخزن في أوعية خاصة به ، ويحتفظ به حتى فصل الشتاء عندما تقل ، بل وتندر ، المنتجات الحيوانية في هذا الفصل الشديد البرودة ، والقليل في مراعيه . إلا أن المغولي لا يأكل الأقط ، وإنما يتبع الطريقة الأخرى ، وهي إنهم يضعونه في إناء ، ثم يضيفون عليه ماءً حاراً ، يحركونه جيداً حتى يذوب في الماء ثم يشربونه .

أما في فصل الشتاء ، وعندما يقل إنتاج حيواناتهم من الحليب ، فإنهم يصنعون شراباً ممتازاً من حبوب الأرز ، أو الدخن أو القمح ، إذ أنه يجلب إليهم من الأقطار الزراعية المجاورة في الغرب أو الجنوب . ويصنع له شراباً من العسل ؛ لأن الانسان المغولي يبذل جميع الوسائل والمحاولات لئلا يشرب ، على الإطلاق ، الماء كما نشربه نحن ، بطريقة عادية وبدون أن يخلط عليه شيئاً آخر قبل أن يشربه[1] .

أما طريقة صنع شراب الحبوب فإنهم يقومون بغلي حبوب الدخن ، أو الأرز ، أو القمح ، في ماء (وهذا فقط عندما ينعدم وجود الحليب بأي نوع) حتى يصبح خاثراً ؛ إلا أنهم يأكلونه ، بل يشربونه ، وهو مادة سائلة ، بكميات قليلة جداً – كأساً أو كأسين – عند الصباح ، ولا يأكل شيئاً

(١) John Carpini, "Mongol History". Ed., Dawson, PP: 16-17; Rubruck, "The Journey..", PP: 95-101.

طوال النهار ؛ وفي المساء يأكلون مايحصل لهم من لحم ، بعد طهيه طهياً جيداً ، ويشربون المرق بعد ذلك .

في الأوقات التي يجتمع فيها المغول ، لمناسبة معينة ، صغيرة كانت أم كبيرة ، فإن عوامل الفرح الصاخب تكاد يطغى على اجتماعهم ذلك ؛ فيكون ما يشربون هو الشيء الوحيد الذي يكون أهم الموجودات بينهم ، وقد يكون هو العامل الأساسي والداعي إلى ذلك الاجتماع . ففي الوقت الذي يشرع فيه السيد الكبير بتناول شرابه فإن أحد الخدم يصرخ بأعلى صوته «ها» ثم يدق أصحاب الموسيقى آلاتهم ؛ ويبدأ الفرح ، والرقص والغناء . ويستمرون على ذلك زمناً ، ثم يذهب كل واحد إلى وجهته .

أما عندما يكون هناك مناسبة ، أو احتفال كبير ، فإنهم يجتمعون بأعداد كبيرة ، واجتماعهم يصبح بشكل أوسع . وهنا أيضاً ، يكون الشراب ، لا الأكل ، هو الشيء الأساسي ، أياً كان ذلك الشراب ، حليباً ، أو لبناً ، أو ماءً مخلوطاً بالأقط ، أو شربة (وهي المصنوعة من الحبوب) . وتعلو صيحاتهم ، ويصفقون ، ويرقصون على أصوات الموسيقى ؛ حيث يرقص الرجال أمام السيد ، أو رئيس القوم ، بينما يرقصن النساء أمام زوجة ذلك السيد ، أو كبير القوم ؛ وهكذا يستمر الوضع لوقت قد يطول ، وقد يقصر ؛ ثم يتوقف الموسيقيون عن العزف ، فيقف الجميع لفترة قصيرة جعلت للاستراحة والشرب .

في بعض الأوقات يحثون شخصاً ما على أن يشرب ، حتى وإن لم يكن لديه رغبة . فليس هو جيعاناً ولا عطشاً ، وإنه متعكر المزاج ، أو أن لديه مشكلة غطت سماء ليلته أو نهاره بسحابة سوداء ، جعلته يعزف عن مشاركة القوم ليلتهم أو نهارهم السعيد . وهنا يذهب بعض الصحاب ، وفي نفسية مرحة ونشوة عالية ، إليه ، ويتقدمون رويداً رويداً حتى يصلون إليه فيجرونه بشدة من كلتا أُذنيه ، فيفتح فمه ويصبح بلعومه مفتوحاً ، ثم يصفقون ويرقصون أمامه فيقف رجلان إلى جانبيه ، وثالث أمامه ومعه كأس من الشرب الذي يتناولونه في ليلتهم تلك ، أو في

نهارهم ذاك ؛ فيرقصون ، ويغنون حوله جيئةً وذهاباً ، ثلاث أو أربع مرات ، وفي كل مرة يناولونه شربته حتى تصبح قريبة من متناول يده ، فيرجع حاملها إلى الوراء ، للضحك والمزاح حتى يصبح في حالة نفسية مرحة ، وتصبح لديه الرغبة في مشاركتهم وقتهم المرح ؛ بعدها يعطونه شربته ، فيزداد رقصهم وغناؤهم وتصفيقهم ، ويعلو صراخهم الصاخب عندما يشرع ذلك الرجل في تناول شربته تلك[1] .

وعندما يرغب الرجل منهم في السفر ، فإنه لا يحمل معه زاداً ، كما نفعله نحن هنا ، أو بالأحرى كما يفعله البدوي المسافر ، ولكنه يأخذ معه قربة أو قربتين ، مملوءة من حليب الفرس ، أو غيره من أنواع الشراب ؛ وكذلك يأخذ إناءً فخارياً ليطبخ فيه لحم ما قد يصيده أثناء سفره . وعندما يقتل الرجل صيداً ، فإنه يسلخه ، ويأخذ الكرش فينظفه ، ثم يضع فيه ماءً ويطبخه على النار ، ويأكل اللحم ، ويشرب ذلك الماء . كذلك يحمل معه خيمة صغيرة من لُبُد يقيه المطر[2] .

وإذا ما كان على عجلة من أمره ، للقيام بإنجاز مهمة أو مشروع معين يتطلب السرعة ، فإن الرجل منهم يمشي أياماً كثيرة – قد تتجاوز العشرة – دون أن يأكل طعاماً ، ودون أن يشعل ناراً ؛ وذلك لئلا تتعطل مهمته وتستغرق وقتاً أطول ينقضي في طبخ الطعام . وإذا ما تعذر عليهم شرب حليب الفرس ، ونفد ما يملكه من الشراب ، فإنه يعمد إلى خيله أو دابته التي يركبها ، فيقطع بسكّينِهِ جزءً من أحد شرايين دم ذلك الحيوان ، فيمتص من الدم المتدفق ما يكفيه ، ثم يعيد ذلك الجرح بفركه ، أو سده بأي شيء ، كتراب أو ما شابه ذلك .

قد يحمل المسافر منهم دماً مجففاً إذا تعذر وجود ما يحمله معه . وعندما يشعر بالحاجة إلى الشراب (والشراب هنا يعني الطعام والشراب معاً) فإنه يأخذ شيئاً من ذلك الدم الجاف ، فيضعه في قِدر أو أي إناء به

(١-٢)نفس المصدرين المذكورين في الحاشية السابقة ، ونفس الصفحات .

ماء، فيتركه حتى يذوب ثم يشربه. كما يحمل معه بعضاً من اللبن المجفف، وهو الأقط؛ حيث يبلغ زنة مايحمله الرجل العسكري منهم، أثناء القيام بحملة عسكرية، مايقرب من خمسين كيلًا. في الصباح يصنع له فطوراً يتكون من أقط وماء ، حيث يأخذ الواحد منهم مايقارب وزنه مائتي جرام ، فيضعه في سقاء فيه ماء ، ويحركه ، أو يتركه ، حيث يتم ذوبانه أثناء السير من عملية الاهتزاز ، فيصبح كشراب العصير ، فيشربه عند الوقت الذي يحتاج فيه للشراب[1] .

٢ - اللباس في المجتمع المغولي :

(أ) لباس الرجل :

يختلف لباس المرء المغولي ، الذي عاش في منغوليا قبل وبعد ظهور المغول ، وبروزهم كقوة ذات سيادة وسلطة دوليتين ، عن لباس أخيه الذي خرج من عزلته في منغوليا إلى أقطار شرقية كانت أم غربية ؛ كما يختلف لباس الرجل الفقير عن لباس الغني ، سواء من حيث النوعية أو الكمية ؛ كما يختلف لباس الرجل عما تلبسه المرأة المتزوجة . وكذلك تختلف طريقة ارتداء ونوعية اللباس الذي يستر به جسمه ، أو الذي يقيه لفحات الحرارة الحارقة في فصول الصيف ، وشدة البرد السيبيري القارس في الفصول الشتوية .

على وجه العموم ، فإن الانسان المغولي (ونحن نعني هنا المغولي القاطن في منغوليا) يرتدي ملابس ذات طابع متجانس . فهم في مبدأ أمرهم ، وداخل مجتمعهم المغلق ، لم يكونوا يعرفون مايسمى بـ «الكاب»[2] ، ولا قلنسوة البرونس[3] ، ولا العباءة ، أو رداءً واحداً

---

(١) لمزيد من المعلومات في هذا الموضوع راجع : Marco Polo, ''Description of the World'', Vol. I, PP: 171 ff; B. Spuler, 'History of the Mongol'', PP:176-177.

(٢) هو رداء بلا كُمَّين ، يطرح على الكتفين .

(٣) هي غطاء يرتديه الفرد ، فيغطي به الرأس والعنق معاً .

يغطي معظم جسمه . إذ إنهم يعتمدون اعتماداً كلياً في لباسهم على جلود الحيوانات ، سواء من تلك التي يقيمون بتربيتها ، أو التي تقع في قائمة صيدهم. فهم يلبسون سترة، على شكل «بلوزة» قصيرة، مصنوعة من البُقْرُم أو المخمل، أو من مادة ذات تشكيلات مطرزة. وهذا النوع من اللباس يشبه العباءة إلى حد كبير، إذ إنه مفتوح من الأمام ، ولكن له فتحة أيضاً من الجهة اليسرى حتى الخصر؛ ثم يُثنى من على منطقة الصدر، فيربط من الجهة اليسرى برباط واحد، أما الجهة اليمنى فإنه يحزم بثلاثة خيوط.

ويمكن أن يرتدي الانسان المغولي (الرجال والنساء اللائي لم يتزوجن) أيضاً نوعاً آخر من اللباس شبيه بالثياب ، ولكنها مفتوحة من الخلف ، أو أن تكون على نفس النمط السابق . وهذه الملابس تكون ، كما قلنا ، مصنوعة من الفراء ، بشتى أنواعه ، حيث يجعل الجزء الشعري منه إلى الخارج ، إذ يلبسه غالباً في فصل الصيف ، عندما يكون الجو حاراً . وهذا النوع الآخير من اللباس يكون له ذيل من الخلف ، يصل في طوله إلى الركبتين .

وبشكل عام ، فإن الرجل الغني يلبس لباساً من الفراء ، في الأوقات الباردة في فصل الشتاء ، وغالباً مايكون لديه ثوبان منها ؛ فالأول يجعل جزءه الشعري إلى الداخل ، أي يكون ملاصقاً لجلده ، والثاني يجعل جزءه الشعري إلى الخارج ، لكي يقيه شدة قرص برودة الثلوج عند تساقطها ، والرياح الباردة عند هبوبها ببردها الصحراوي من الجنوب ، أو السيبيري القارس من الشمال . وعادة تكون هذه الملابس من جلود الثعالب ، أو الذئاب ، أو القرود الآسيوية (التبتية أو الصينية) ، فيلبسونها قبل خروجهم من المنازل إلى العراء . أما في داخل المنازل ، حيث الجو أقل برودة ، ويميل إلى الدفء ، فإنهم يلبسون ملابس أخف من السابقة .

يقوم الأغنياء منهم الذين يرتدون هذا النوع من اللباس، بتزيينها بخطوط

من الخيوط الحريرية الرفيعة والدافئة ذات الملمس الناعم جداً[١] .

أما ما يلبسه الفقراء في المجتمع المغولي ، فيكون من جلود الكلاب ، والماعز ، وما شابه ذلك[٢] . وتقوم هذه الطائفة من الناس بزخرفة ملابسهم بخيوط مادتها قطنية خشنة . وبشكل عام ، فإن المواد الصوفية ، بشتى مصادرها ، تكوِّن عنصراً أساسياً في اللباس المغولي ، وخاصة في الأوقات الباردة . كما يرتدون لباساً (من الجلد بدون شعره) يشبه (السراويل) ، وآخر يلبسونه في مقدمة الرجلين (على الساقين) كثير الشبه بما يلبسه رعاة البقر ، والهنود الحمر في أمريكا .

يحلق الرجل المغولي جزءً من قمة رأسه ، بشكل مربع ؛ ثم يواصل الحلاقة من الجوانب الامامية إلى أسفل ، بشكل مخطط على جانبي الرأس ، حتى يصل إلى الأصداغ . ثم يحلق أيضاً صدغيه ، ورقبته حتى أمام فجوة العنق ؛ ويحلق جبهته من الامام حتى نهاية العظمة الأمامية ، حيث يترك خصلة من شعره تتدلى إلى أسفل ، حتى حُجُب العينين . أما الشعر الذي من على جانبي الرأس ومؤخرته ، فإنه يتركه ؛ إذ يجعل منه ضفائر ، ثم يعقصها حول الرأس إلى الأذنين[٣] .

(ب) لباس المرأة المغولية المتزوجة :

تختلف ملابس المرأة ، خاصة من حيث الكيفية لا النوعية ، عن ملابس شريكها في الحياة من الجنس الثاني ؛ وكذلك عن المرأة التي لم تتزوج بعد (أي البنت) . فالمرأة المتزوجة ترتدي بلوزة طويلة ومفتوحة من الجهة الأمامية من أعلى إلى أسفل . أما من حيث النوعية والكمية فلا يوجد فرق بين ما تلبسه المرأة وبين ما يلبسه الرجل .

ولعل الفارق المميز بين الرجل والمرأة المتزوجة هو ما تلبسه الأخيرة على رأسها . وهذا الغطاء ، الذي تلبسه على رأسها يبلغ طوله ذراعاً ،

(١-٢) Rubruck, "The Journey..", P: 101.

(٣) Rubruck, "The Journey..",PP:101-102.

ويكون مصنوعاً من اللحاء ، أو من أغصان الأشجار الرفيعة جداً ، أو من أية مادة شعرية يعثرون عليها . وصنع هذا الغطاء بشكل ملفوف ، ويزداد في مساحة محيطه من أسفل إلى أعلى ، وينتهي في القمة بشكل مدور ؛ وتبلغ مساحته من أعلى شبرين . ثم يوضع في نهايته عمودٌ أو قضيبٌ طويلٌ ورفيع ، قد يكون هذا العمود مصنوعاً من الذهب ، أو الفضة ، وغالباً ما يكون من الخشب ؛ ثم تُزَيَّنُ قمةُ ذلك القضيب بريش الطاووس ، وجوانبه بريش ذيل البط الخفيف ، أو بأحجار كريمة . ثم يُثَبَّتُ غطاء رأس المرأة هذا في غطاء آخر تحته ، يصل حتى الكتفين ، وذلك بحياكته بخيط رفيع أو سير جلدي .

تقوم المرأة بعد ذلك بتغطية لباس رأسها الكبير هذا بأكمله إما ببقرم ، وإما بمخمل ، أو براداء من الحرير ، أو غير ذلك ، بعدها يمكن لها أن تحضر عند الرجال ؛ إذ لا يمكنها أن تخرج أمام الرجال دون أن تكون مرتدية هذا الغطاء ، والذي يميزها عن غيرها من النساء الأخريات غير المتزوجات . إذ أنه من الصعوبة أن يميز بين الرجال والنساء غير المتزوجات ، وذلك لتشابه نوعية وطريقة اللباس الذي يرتديه كل واحد منهم . وهناك فارق طفيف جداً وهو أن المرأة تلبس بلوزة أطول قليلاً من تلك التي يرتديها الرجل .

أما النساء الثريات ، وذوات اليسار ، فإنهن يرتدين غطاء الرأس ذلك محلى بأنواع كثيرة من الزركشة ؛ ثم يُثَبتن ذلك القضيب بإحكام إلى أسفل بقلنسوة ذات فتحة إلى أعلى مخصصة لهذا الغرض ؛ ثم بعد ذلك ، تعقد خصلات شعرها من الخلف إلى المنطقة العلوية من الرأس ، وأخيراً تقوم بربط غطاء رأسها هذا بإحكام بحزام من تحت الذقن .

يصف لنا «ويليم الربركي» شكل النساء ، اللواتي يرتدين هذا النوع من الغطاء على رؤوسهن ، قائلًا بأنهن عندما يمتطين صهوات جيادهن يظهرون ، لمن يراهن من على مسافة بعيدة ، وكأنهن كتيبة عسكرية ،

يرتدي كل فرد من أعضائها خوذة، ويحمل رمحاً؛ لأن ما يلبسنه على رؤوسهن يبدو وكأنه خوذ، وتظهر تلك القضبان على ذُراها وكأنها رماح[١] .

(جـ) لباس الفتاة المغولية :

أما لباس المرأة التي لم تتزوج بعد ، فإنه لا يكاد يوجد فارق كبير بين ما ترتديه الفتاة منهم وبين ما يلبسه الرجل ، إلا أن شعرها أكثر طولاً من شعر الرجل . وفي اليوم الذي يلي زواجها تقوم بحلق شعرها من وسط رأسها إلى المقدمة . ثم تضع عليه غطاء رأس المرأة ، السابق ذكره ، لتصبح متميزة في مظهرها عن الرجل ، واللائي لم يتزوجن من بنات جنسها بعد ؛ ثم لتستطيع أن تظهر أمام الرجل كغيرها ، من النساء المتزوجات ، وبهذا تكون المرأة قد انضمت إلى النساء المتزوجات[٢] .

تميل المرأة المغولية إلى السِّمَنِ منها إلى تناسق القوام . وذلك بسبب كثرة ما تأكله من المواد الدهنية ، على مايبدو لنا . ويعتبرون المرأة جميلة كلما قلت فطاسة أنفها، وصغر حجمه . يقول الرحالة الأوربي «وليم الربركي» بأن النساء يشوهن أنفسهن عندما يصبغن وجوههن بأصباغ تجعل النظر إليهن مؤذياً للعين . ويبدو أن ذلك المنظر المُقذي في عين «وليم» لا يبدو كما يقول عنه هذا الرحالة لدى الرجل المغولي، فقد يكون ذلك جزءً من تجملها، والحفاظ على بشرة وجهها. كما يذكر «وليم» بأن المرأة المغولية لا تلد لها مولوداً وهي مضطجعة على الفراش[٣] .

أما أحذية المغول ، فيقومون بصنعها حسب الطريقة المتبعة لدى غيرهم من الأمم من الجلود ؛ حيث يجففون إهاب الثيران ، أو الخيول ، فيصنعون منها أحذية جميلة ، كما وصفها «وليم الربركي»[٤] .

---

(١) Rubruck, "The Journey..", P: 120.

(٢) نفس المصدر السابق ص.ص : ١٠١ – ١٠٢ والحاشية رقم ٣ ص : ١٠١ ؛ أنظر كذلك : Carpini, "The Mongol History..", PP:6-8.

(٣) المصدر السابق ، ص : ١٠٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص : ٩٧ .

لا يغسل الفرد المغولي ملابسه ، كما أنه لا يسمح لأحد بغسلها ، وخاصة عندما يكون الوقت ممطراً ، أو أن الجو ذو عواصف رعدية . وإن أراد غسلها فيكون ذلك في حالات نادرة جداً ، عندما يكون الجو صحواً . وهنا يذكر الجويني بأنه من عادة المغول وقوانينهم بألا يغسل أحدهم ثيابه في جدول ماء جارٍ ، وألا يجلس في الماء في النهار وألا يأخذ ماءً في إناء من الذهب أو من الفضة ؛ وإن غسل ثيابه ، فعليه ألا يعلق ثيابه في الهواء الطلق لتجف . فإنهم يعتقدون بأن أي عمل من هذا النوع يزيد البرق والرعد ؛ فقد يزيد من هطول المطر ، وخاصة في بداية فصل الربيع حتى نهاية فصل الصيف[1] .

ويقول «ويليم الربركي» بأن المغول يعتقدون بأن عملاً مثل هذا يُغضب الرب ؛ فمتى وضعوا ثيابهم في العراء لتجف بعد الغسل ، فإن السماء ترعد ، ومن فعل عملاً من هذا النوع فإنه يقع عرضة للضرب ، ويجردونه من ملابسه ؛ وذلك لأنهم يخشون الرعد ويهابونه بشكل غير عادي . فعندما تبدأ السماء ترعد فإنهم يخرجون كل أجنبي (غريب) من منازلهم . بعد ذلك يلف كل فرد منهم جسمه في لُبُدٍ أسود فيختبئون في طياته حتى ينتهي الرعد[2] .

يردف الجويني ، حول هذا الموضوع ، القول بأن السماء عندما تبدأ تقصف بالرعد ، فإنهم : «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ...» وان لمع البرق بشدة حيث : «... يكاد البرق يخطف أبصارهم ...»[3] . وفي كل سنة غالباً ما يحدث أن يُصْعَقَ أحدُهم بصاعقة رعدية ، فإذا ما وقع على شخص ما من بينهم بلاء من هذا النوع فإن أفراد مجتمعه يقومون بعمل سيء معه ، وهو أن يطردوا أسرته وكل من يلوذ به وجميع أفراد عشيرته خارجاً عن بقية أعضاء القبائل الآخرى ،

---

(١) الجويني ، «جهانكشاي»، جـ١/ص: ١٢٥ ، الترجمة الانجليزية، جـ١/٢٠٤ – ٢٠٥ .

(٢) Rubruck, "The Journey..", P: 103.

(٣) قرآن كريم ، سورة البقرة (٢) ؛ آيات : ١٨ – ١٩ .

فيصبحون منبوذين ، ويعيشون حياة البعير الأجرب لمدة ثلاث سنوات . وطول هذه المدة ، لا يسمح لأحد منهم أن يدخل مخيم أو مساكن الملك ، أو الأمراء الآخرين . كما يحدث الشيء عينه عندما تقتل الصاعقة شيئاً من أي قطيع من قطعان حيواناتهم ، فإن أصحاب ذلك الحيوان ، أو الحيوانات المصعوقة يمرون بنفس التجربة لمن مات لهم إنسان بصاعقة ، حيث يُطْرَدُون من مجتمعهم لعدة أشهر . وإذا ما حصل شيء من هذه الأحداث فإنهم لا يأكلون طعاماً طوال الأيام الباقية من ذلك الشهر ، وفي نهاية ذلك الشهر يقومون بعمل احتفال بمناسبة انتهاء الشهر المشؤوم[1] .

(د) لباس المرأة المغولية المسلمة :

بعد أن خرج المغول من عزلتهم فيما وراء جبال الطاي غرباً ، وجبال خنكَاي شرقاً ، وبرزوا كقوة دولية سيطرت على مساحات شاسعة من أعمالهم في ذلك الوقت ، نجد أن لباسهم قد تغير بشكل جذري ، وتطور من حيث النوعية والكمية ، ومن حيث الشكل العام . فقد كان إنفتاحهم على عالم وقتهم المتحضر ، ثم ما جنوه من ثراء - كأصحاب الغلبة في تلك المجتمعات - نجد أن المرأة المغولية أصبحت بديعة اللباس ، غاية في التزين والعناية الفائقة بمظهرها ؛ فأخذت ترفل في لباس من الحرير الخالص ، يغطيها من رأسها إلى أخمص قدميها ؛ لا ! بل وله أذيال يرفعها من الأرض عدد من جواريها اللائي يمشين من ورائها لهذا الغرض .

ينطبق هذا ، بشكل أوسع على النساء المغوليات اللواتي خرجن من منغوليا إلى الأراضي الصينية ، أو غرباً إلى إيران وأقاليم القبتشاق والتركستان وما وراء النهر . وحول المرأة المغولية في الأراضي ، التي أصبحت جزءً من إمبراطورية المغول ، في إقليم القبتشاق ، وهي أراضي «مملكة القبيلة الذهبية» ، يحدثنا الرحالة المسلم شمس الدين ابن بطوطة عن

---

(١) الجويني ، «جهانكشاي» جـ١/ص : ١٦٢ ، الترجمة الانجليزية ، جـ١/٢٠٥ وهي بعنوان "History of the World Conqueror", translated by: Prof., J. A Boyle.

نساء ثلاث طبقات في المجتمع المغولي الجديد تتميز كل واحدة من هاتيك الطبقات عن الأخرى .

(أ) أولى تلك الطبقات هي **نساء الخان المغولي الحاكم** ، في ذلك الاقليم الواسع الأرجاء ؛ حيث يقول ابن بطوطة بأن كل ملكة (وهي الخاتون) تركب في عربة (وهذه العربة بمثابة بيت لها أو واحد من بيوتها العديدة) فتجلس وعن يمينها إمرأة من القواعد تسمى «أُلُون خاتون» أي وزيرة الملكة ؛ وعن شمالها امرأة أخرى تسمى «كُجُك خاتون» أي حاجبة الملكة ؛ وبين يديها ست من الجواري الصغار ، يقال لهن البنات ، وهن فائقات الحسن والجمال ، ومتناهيات الكمال في الزينة ، ومن ورائها اثنتان منهن تستند إليهما .

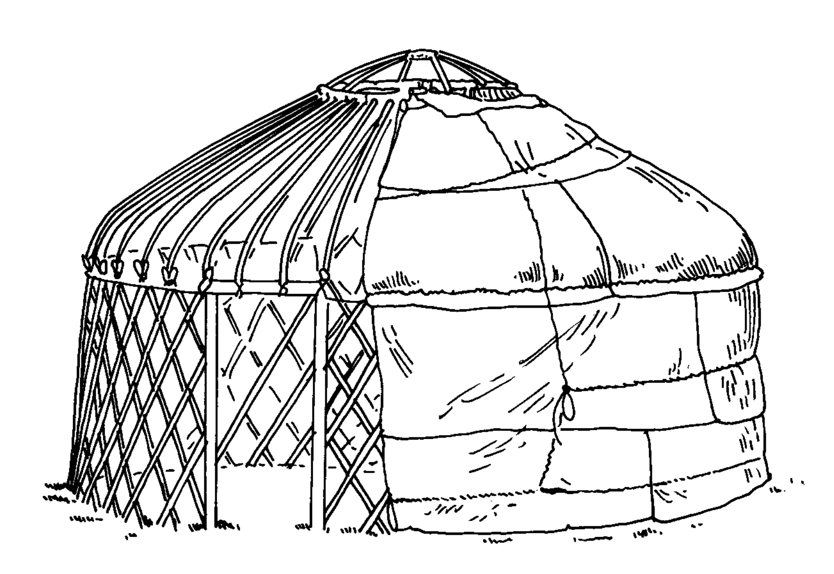
أما لباسها ، فيصفه «ابن بطوطة» قائلاً بأن ثيابها مصنوعة من الحرير المرصع بالجوهر ، كذلك لباس الوزيرة والحاجبة مصنوع أيضاً من الحرير المطرز بالذهب . أما اللباس الذي تضعه هذه المرأة على رأسها ، والذي سبق ذكره ، فيصفه «ابن بطوطة» قائلاً بأن «الخاتون» تلبس على رأسها «البغطاق» وهو كثير الشبه بتاج صغير ، يناسب رأس المرأة وحجمها ، وقد زين من قمته بريش الطواويس الزاهي الألوان . أما الحاجبة والوزيرة فعلى رأس كل واحدة منهن مقنعة مزركشة الحواشي بالذهب والجوهر . أما البنات فعلى رأس كل واحدة منهن قبعة مستطيلة ومخروطية الشكل - بشكل الأقروف - وفي أعلاه دائرة ذهبية مرصعة بالجواهر ، وريش الطواويس من فوقها ، حيث تزيد من تزيينها .

(ب) **أما نساء الطبقة الثانية** ، في مجتمع المغول الجديد ، فهن **نساء الأمراء** . ونساء هذه الطبقة هُن أيضاً على جانب كبير من الأهمية ، وعلو المكانة . فقد كانت الواحدة منهن تخرج من بيتها لتزور صديقة لها ، أو لقضاء بعض شؤونها ، أو للتنزه ، أو تنزل من

عربتها ، بعد رحلة ، قد تطول أو تقصر ، حسب مسافة الطريق ، وهي كلها مجللة بالملف الأزرق الطيب ، وبين يديها أربع جوارٍ ، فاتنات الحسن ، بديعات الجمال ، رائعات اللباس ؛ وعندما تسير إلى زوجها فإنها تذهب ومعها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ؛ وقد يكون معها منهن نحو ثلاثين جارية من جواريها يرفعن أذيال ثيابها من خلفها ، لئلا تتعرض للمس تراب الأرض ، أو لشيء من وساختها ، حيث يتم رفع أذيال هاتيك الملابس من عرىً ملحقة بتلك الأذيال مخصصة لهذا الغرض ؛ وفي هذه الحالة تمشي المرأة المغولية تلك وهي متبخترة ، وفي جلال عظيم ، يزداد أو يقل حسب مكانتها ومكانة زوجها .

(جـ) أما نساء **الطبقة الثالثة ، فهن نساء التجار والباعة ، وأصحاب الأسواق** . وقد شاهدهن «ابن بطوطة» ، كما شاهد غيرهن . وهنا يحدثنا هذا الرحالة ، قائلاً بأن المرأة ، من نساء هذه الطبقة تكون في عربة من عرباتها الخاصة ، والخيلِ تجرها ؛ وبين يديها ثلاث أو أربع من الجواري قد جُعِلْنَ خصيصاً لرفع أذيال ثيابها وقت نزولها أو تجولها ، وفي حلها وترحالها . وقد جلست وعلى رأسها «البغطاق» وقد رصع بالجوهر الثمين ، حيث قد زين أعلاه بريش الطواويس ، ذي الألوان البديعة ، فتزداد تلك المرأة جمالاً ورواقاً[1] .

(١) ابن بطوطة «رحلته» ، ٣٢٩ – ٣٣٤ . راجع كذلك : Marco Polo, "Description of the World" Vol. I, 171; also B.Spuler, "History of the Mongol", P: 175.



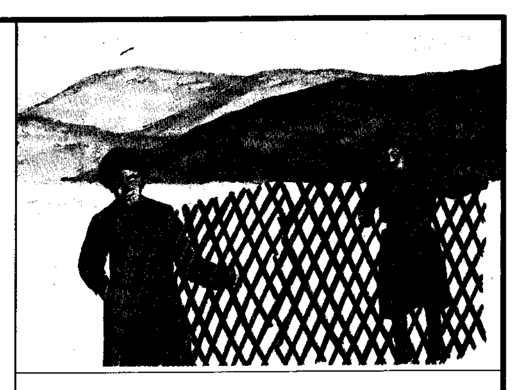
« كيف يرى المنزل المغولي من الخارج »

٣ - المسكن في المجتمع المغولي :

(أ) الشكل الخارجي للمنزل المغولي :

كان المجتمع المغولي ، ومازال معظم سكان منغوليا في الوقت الحاضر ، مجتمعاً بدوياً ؛ حيث يعتمد على رعي وتربية حيواناته . فهو مجتمع رعوي بشكل عام ، يعيش حياة التنقل والترحال . لذلك ، فإن الرجل المغولي أوجد لنفسه مسكناً مناسباً لتلك الحياة غير المستوطنة لبقعة بعينها ، أو مكان مخصوص يقضي فيه حياته مستقراً ؛ كما يفعل الرجل الذي ربط نفسه بمكان معين من الأرض لحرثها وزرعها ، وخصوصاً ما استنبته منها . لذلك ، فإن الانسان في مجتمع المغول ، إذا ما حل فصل الربيع ، شرع يعد العدة للتحرك تدريجياً إلى ناحية المناطق الشمالية من البلاد ؛ وذلك هرباً من فصل الصيف ، الذي تكون فيه درجة الحرارة شديدة الارتفاع جداً ، ولا يكاد يطيق تحملها . لذلك فإنه يتحرك بمنازله ، أو بمنزله ، حسب حالته الاجتماعية ، ومواشيه التي تقل أو تكثر ، حسب ظروفه التي تحكم سرعته أثناء رحلته الاصطيافية - إن حق لنا أن نسميها بهذه التسمية - وتتدرج درجة حرارة الجو في الانخفاض ، حتى تصل قافلته إلى أقصى ما تستطيعه شمالاً ، سعياً وراء اعتدال الجو ؛ وثَمَّ يجد العشب والكلأ المناسبين ، ثم وفرة المياه ، حيث الأنهار ، والجداول ، والبحيرات ، وفوق ذلك كله اعتدال الجو له ولمواشيه . أما إذا جاء وقت بدأ فيه الجو يميل إلى البرودة ، منذراً بقرب وصول الشتاء ، وبالذات في أواخر فصل الخريف ، فإن المغولي يبدأ رحلة العودة ، حيث يعود أدراجه متجهاً ناحية الجنوب ؛ ليقي نفسه وماشيته برد سيبيريا الشتوي القارس ؛ وهكذا دواليك على هذه الوتيرة من الحياة التنقلية والمترحلة بين الشمال والجنوب .

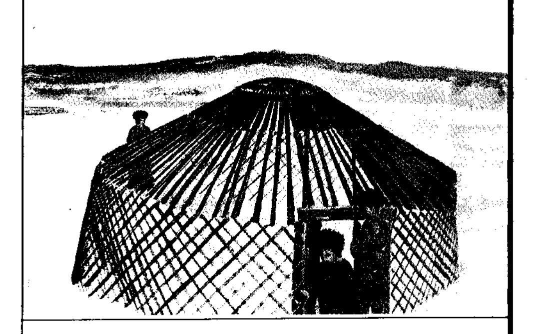
وعلى العموم ، فإن المغولي - وحيثما ذهب - ولأي غرض كان تنقله ذاك أو رحلته تلك ، وحتى إن كان ذلك السفر لغرض الحرب ، فإنه يصطحب معه منزله محمولاً جاهزاً ، أينما ذهب وحيثما سار .



رسمة توضيحية تبين المراحل التي يمر بها بناء المنزل المغولي



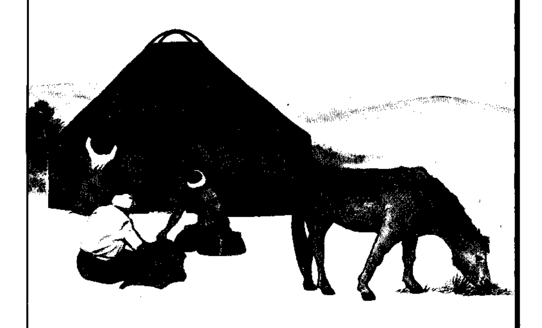
رسمة توضيحية تبين المراحل التي يمر بها بناء المنزل المغولي



رسمة توضيحية تبين المراحل التي يمر بها بناء المنزل المغولي



رسمة توضيحية تبين المراحل التي يمر بها بناء المنزل المغولي



رسمة توضيحية تبين المراحل التي يمر بها بناء المنزل المغولي



رسمة توضح حياً سكنياً من أحياء المغول المسلمين في اقليم القفجاق



صورة تخيلية للأمير « يسوكاى بهادر » في طريقه ليخطب إحدى فتيات قبيلة زوجته، لتصبح زوجة ابنه « تيموجين » / جنكيز خان فيما بعد، الذي يسير خلفه، وهما راكبان جواديهما



صورة تخيلية توضح طريقة من طرق المغول الكثيرة للحصول على زوجة، فهذا خاطب يتقدم إلى ولي أمر الفتاة يطلب يدها، ويقدم المهر عيناً، جياد، أو أبقار، أو غير ذلك



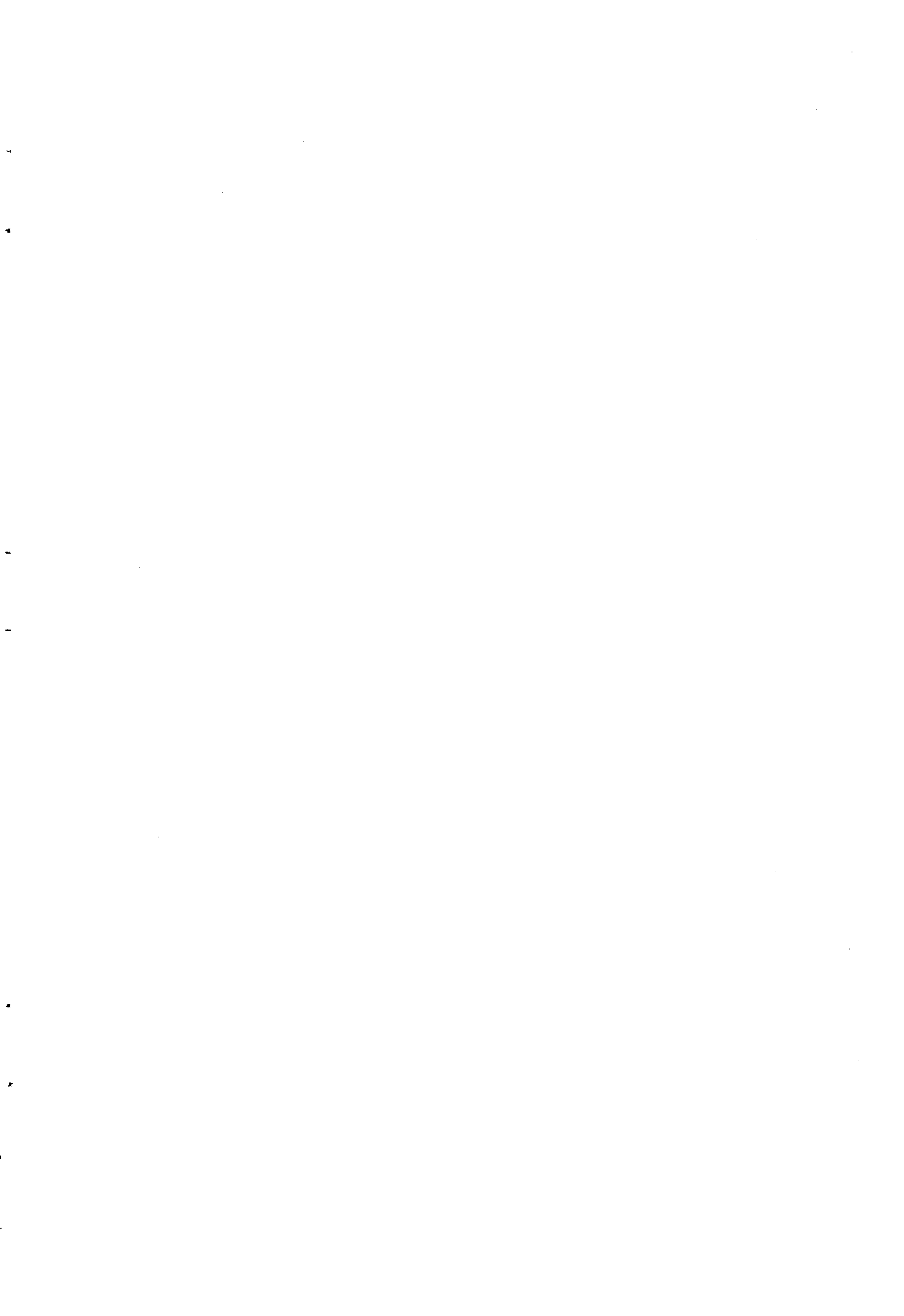
رسمة تخيلية لعادة مغولية، حيث ينطلق العريس خلف عروسته، ليسبقها لتكون بعد ذلك زوجة له



رسمة تخيلية ذهنية توضح طريقة أخرى من طرق المغول للحصول على زوجة المستقبل . فهذا «يسوكاي بهادر» ينادي أخويه مستنجداً بهما لكي يخطفون «هوئيلون» من عريسها الذي كان يسير بها في طريقه إلى مضارب خيام قومه المركيتيين



رسمة تخيلية تمثل اختطاف «هوئيلون» من عريسها، لتصبح زوجة لـ «يسوكاي» وأماً لجنكيز خان فيما بعد



فالرجل المغولي (أو بالأحرى المرأة المغولية أو هما معاً) يصنع منزله بصفة أساسية من أغصان الشجر ، ويستخدم الأعواد الخفيفة ، ذات الاستقامة ، كمادة أولية في عمل منزله . فيقوم بتصفيفها ، وحزمها بشكل مرصوص بعضها بجانب بعض ؛ وفي حالة غاية في الإحكام المترابط والقوة . فيحيكها بصورة تجعل رؤوس الأعواد مجتمعة في وسط سقف المنزل بشكل مخروطي ، حيث تنتهي عند أعلاها بكوة ؛ هكذا ، حتى تنتهي عملية بناء المنزل ؛ وتكون القاعدة ، التي يقوم المسكن عليها ، دائرة من العصى (أو الخشب) الغلاظ ، حيث أن تلك الأعواد تحبك حبكاً جيداً ، ثم تربط في تلك العصي بقوة وإحكام . ومن خلال تلك الفتحة أو الكوة العلوية في سقف المنزل ، التي هي مجمع رؤوس الأعواد ، يدخل الضوء إلى داخل المنزل ليضيئه لساكنيه . وكذلك فإن تلك الكوة تخدم غرضاً آخر ، وهو أن دخان نيرانهم الكثيف ينفذ من خلالها ، حيث توقد في وسط أرضية المنزل ؛ والذي يزيد من شدة كثافة دخان مواقدهم هو أن القوم يستخدمون روث الحيوانات بشكل أساسي في مادة وقود تلك النيران .

إن هذا المنزل ، أو البيت ، شبيه لما رآه وسكنه ابن بطوطة ، أثناء رحلته في بلاد القبيلة الذهبية في إقليم القبتشاق ؛ بل إنه يكاد ينطبق على النموذج العام لمسكن الانسان المغولي ، حيث يقول هذا الرحالة المغربي بأنه أعطي بيت يسمى عندهم (يعني عند مغول القبيلة الذهبية) «الخرقة»[1] . وهو عصي من الخشب تجمع رؤوسها فتصبح شبه القبة ، وتجعل عليها اللبود ، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح ، ويسد متى احتيج إلى سده ، ومنها ينفذ دخان موقدهم[2] .

---

(١) هذه الكلمة في الحقيقة هي «الخركاه» كلمة فارسية تعني الكوخ ، أو الخيمة ، وقد تعني السرادق .

(٢) ابن بطوطة ، «رحلة ابن بطوطة» ، ص : ٣٠٠ .

بعد ذلك ، وكما سبق وذكر هذا ابن بطوطة ، يقوم المرء المغولي بعمل غطاء خارجي لبيته ، يصنعه من اللبود الابيض . ومع هذا ، فهو في أغلب الأحيان يجعل فوق غطاء منزله من الخارج غطاءً خارجياً آخر ، أي إنه يجعل فوق غطاء بيته المصنوع غالباً من اللبود ، غطاءً ثانياً . وهذا الغطاء الآخر يستخدم فيه مادة الكلس ، أو الصلصال الأبيض . في عمل ذلك الغطاء الخارجي . بعد ذلك يقوم بذر مسحوق أبيض ، وغالباً ما يكون مسحوق العظام ، ليجعل منزله أكثر تلألؤً وأشد بياضاً . وفي بعض الآحايين يجعل المغولي لون منزله من الخارج أسود .

أما المنطقة العلوية ، التي تحيط بالفتحة ، أو الكوة ، وهي مصدر النور والهواء ومنفذ الدخان ، فإنهم يزينونها بتشكيلات من الألوان المختلفة ، حيث تجعل منظرها جميلاً . ثم يزين مدخل داره ، والمصنوع ، كما قلنا ، من اللبود ، برسوم وأشكال متعددة الألوان ، تنعكس فيها البيئة المغولية . وغالباً ما تكون تلك الرسومات على شكل طيورٍ أو حيوانات ، بشتى أنواعها ، أو أشجار ، وخاصة من النباتات المتسلقة ، أو مياه ، كالأنهار ، والبحيرات .

قد يقيم المغولي منزله ذاك على الأرض ، وهذه حالة قليلة ؛ وغالباً ما يكون هذا النوع من المنازل صغيرة الحجم لكي يسهل عليه رفعه ليوضع على عربة مخصصة ، لنقله أثناء السفر أو التنقل والترحال . ولكنه في الغالب يقيمه فوق عربة مخصصة . وعندما يرغب في السفر أو الارتحال ، من مكانه ذاك ، يأتي ببعض حيواناته ، أمام ذلك المنزل ، ثم يربط مقدمة المنزل (أو العربة المنزلية) إن صح لنا القول بهذا ، في رقاب أو ظهور تلك الدواب ، وتقوم بجرها وهي مقامة على وضعها . لذلك فهم لا يعانون من بناء منازلهم عندما يحطون رحالهم . وقد يقوم بإنزال بيته هذا من على العربة ، فيجعله على الأرض ، وخاصة تلك المنازل التي روعي فيها صغر الحجم عند إشادتها ، حيث يستطيع ذلك ، وبشكل سهل ، لأنه خفيف الحمل ، وصغير الحجم . وفي هذه الحالة تساعده زوجته ، أو زوجاته

(اللاتي يقمن هن بهذه العملية في أغلب الحالات) إذ أن هذا النوع من العمل هو من إختصاص النساء عندهم. أما إذا كان المنزل كبير الحجم، ويراد وضعه على الأرض، وهذا بطبيعة الحال عندما يكون وقت الاقامة لمدة أطول، فإنه يتساعد على إنزاله مجموعة من الناس، يختلفون في العدد باختلاف حجم البيت وكبره.

يختلف حجم منزل، أو منازل، الرجل المغولي باختلاف مكانته في مجتمعه وبين قومه من ناحية؛ ثم مدى ما يتمتع به من ثروة وجاه من ناحية ثانية. كما يختلف العدد الذي يملكه من هذه المنازل باختلاف العدد الذي يملكه تحت يده من الزوجات، والاتباع والخدم والحشم. فبعضهم لايملك إلا منزلاً واحداً فقط، صغير الحجم مُقاماً على عربة صغيرة أيضاً؛ وقد يمتلك المرء منهم أعداداً كبيرة من المنازل، قد يصل إلى أكثر من مائتي بيت، حسب مكانته وثروته، كما قلنا آنفا، إذ أن لكل زوجة من زوجاته بيتاً أو أكثر، كما أن لكل جارية، أو خادم تحت خدمته بيتاً أو بيوتاً. وفي الحقيقة فإنه قد يصل عدد البيوت التي تملكها إحدى زوجات الرئيس، أو الخان المغولي إلى أكثر من أربعمائة بيت.

وحول هذا الموضوع يحدثنا الرحالة المسلم «ابن بطوطة» أن «الخاتون» (وهو يعني هنا الملكة زوجة الخان المغولي محمد أزبيك)[1] يمشي وراء عربتها مائة عربة، في كل عربة الثلاث أو الأربع من الجواري الكبار والصغار؛ وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر وتحمل خزائن الخاتون، وثيابها، وأثاثها، وطعامها؛ ومع كل عربة غلام موكل بها، وهو متزوج بإحدى الجواري، إذ لا يقبل من لم يكن متزوجاً أن يخدم في العربات المنزلية تلك[2].

---

(١) هو أحد الخانات المغول الذين حكموا مملكة المغول المعروفة في التاريخ بـ «القبيلة الذهبية» حكم من سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م إلى سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م. وهم كما نعرف إعتنقوا الاسلام وحكموا وساروا بمنهجه في شتى مناحي حياتهم.

(٢) ابن بطوطة «رحلته»، ٣٣٤. أنظر كذلك: Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, P:8; Rubruck, ''The Journey..'', 93-5.

أما «ويليم الربركي» فقد سبق رحّالتنا المسلم «ابن بطوطة» بما يقارب مائة سنة ، فعدد لنا منازل المغول ؛ إذ يذكر بأن الأمير «باتو» كان يملك ستاً وعشرين زوجة ، وأن لكل زوجة منهن منزلاً كبير الحجم خاصاً بها ، ولا يدخل ضمن ذلك العدد الكبير من البيوتات الصغيرة الحجم ، التي توضع إلى الخلف من كل منزل كبير[١] . أما من حيث جمال هاتيك المنازل المغولية فيذكر بأنها غاية في الجمال ؛ ولعله كان يقصد بذلك النوع الجميل منها تلك التي يمتلكها الأمير «باتو» . ثم يقول بأن المرأة تقوم ببناء بيت خاص بها على عربة . يصف لنا الرحالة الأوربي «ويليم الربركي» ذلك المنزل بأنه غاية في الإحكام ، وذو عمل متقن ، وأنه في منتهى الجمال ؛ بحيث من الصعب عليه أن يقوم بعمل رسم أو وصف كامل لجمال ذلك المنزل ، الذي تصنعه المرأة المغولية لنفسها ، كما أنه يتمنى أنه كان رساماً ، ليرسم لنا شكله الرائع ، ومنظره البديع[٢] .

أما حجم المنزل المغولي ، فكما قلنا ، يتراوح مابين الصغير ، والمتوسط ، والكبير . فالصغير منها يقام على عربة صغيرة يجرها حيوان واحد وهذا الحيوان قد يكون حصاناً ، أو ثوراً ، أو جملاً . أما الكبير منها فقد يبلغ عرضه ، من جانب إلى الآخر ، مايقارب تسعة أمتار (أي ثلاثين قدماً تقريباً) . وقد قام السفير القس «ويليم» بقياس المسافة التي تفصل بين عجلتي العربة ، من جانب إلى الجانب الآخر ، فوجد أنها حوالي ستة أمتار (أي عشرين قدماً) ؛ لذلك فالمنزل المقام على عربة من هذا النوع ، يبرز عن عجلة العربة مسافة أكثر من متر ونصف المتر (خمسة أقدام) من على كل جانب من جوانب العربة[٣] .

---

(١) Rubruck, ''The Journey..'', 95.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة ، وكذلك الصفحة السابقة لها .

(٣) نفس المصدر السابق ، والصفحة ، أنظر كذلك : Marco Polo, ''Description of the World'', Vol. I., PP: 168-9; B. Spuler, ''History of the Mongol'', P:172.

فإذا ما أراد المرء منهم الرحيل من مكان إقامته إلى مكان آخر ، وأراد أن يستخدمه لهذا الغرض، حيث تقوم الحيوانات بجر هذه المنازل، الصغير منها والكبير على حد سواء؛ ويختلف عدد هذه الحيوانات المستعملة لجر هذا النوع أو ذاك من المنازل، باختلاف حجمه. فالمنزل الكبير- مثلاً- قد يُسْتَخْدَمُ لجره اثنان وعشرون ثوراً؛ بحيث يوضع أحد عشر ثوراً، جنباً إلى جنب، في صف عبر حجم عرض العربة، بينما توضع الاحد عشر ثوراً الأخرى أمام الأولى. فتجر المنزل بحبال مثبتة بإحكام في سارية كبيرة، توضع في مقدمة العربة؛ وهذه السارية كبيرة جداً، في حجم سارية السفينة. يقف السائق في باب المنزل يدير عملية السير أثناء هاتيك الرحلة، دون عناء يُذكر[١] .

عندما يحط المغولي رحاله ، فإنه يقيم منازله متجهة على الدوام إلى ناحية الجنوب ، ثم تقوم الزوجة الكبرى (أي الزوجة الأولى) بإقامة منزلها في أقصى الجهة الغربية من المخيم ؛ ثم يلي منزلها منزل الزوجة التي تحتل المرتبة الثانية ، ثم التي تليها ، ثم التي تليها ؛ وهكذا ، واحدة تلو الأخرى – حسب درجتها – حتى الزوجة الأخيرة التي يكون منزلها في آخر المخيم من جهته الشرقية . ويفصل كل بيت عن البيت الآخر مسافة رمية الحصاة . كما يذكر لنا ذلك «ويليم الربركي» ، في رحلته المشهورة تلك ، ويجعل بيت سيد المخيم إلى الناحية الشمالية من منازله ؛ كما تجعل بيوت النساء إلى الناحية الشرقية ، أي إلى اليسار من رجالهم عندما يجلس أحدهم في داره ، وهو متجه إلى الجنوب ؛ وتقام منازل الرجال في ذلك المخيم إلى الجهة الغربية ، أي إلى اليمين من منزل الرئيس . بناءً على ذلك ، فإن منازل الرجل المغولي ، وخاصة الأمراء وعلية القوم ومشايخ العشائر ، تبدو وكأنها مدينة ، ولكنها قليلة السكان من الرجال[٢] .

---

(١) Rubruck, ''The Journey..'', 94.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة . وقد أُطلق كلمة «أوردا Orda» على ذلك المخيم المغولي . وهذه الكلمة «أوردو Ordo» كلمة تركية مغولية ، تطلق على مناطق نفوذ هذا الرجل ، أو ذلك الأمير ، أو أراضي ومساكن العشيرة المغوليين .

هناك نوع آخر من بيوت العربات ذات الحجم الصغير ، حيث يقوم بجر هذا النوع حيوان واحد فقط ، جواد أو جمل ، أو غيرهما ؛ ولكن غالباً مايكون جملاً ، وهذا النوع من العربات المنزلية مخصص لنقل الفراش ، واللباس ، وما غَلا ثمنه ، من أنواع الزينة ، من ذهب وفضة ، وغير ذلك . ويوضع هذا النوع من حاجيات المغول في صناديق يصنعونها أيضاً من فروع وأغصان الأشجار ، ذات الاستقامة خصيصاً لهذا الغرض . ثم يصنعون لكل صندوق غطاءً أو سقفاً مدوراً ، من نفس تلك الأعواد ، والعصي الصغيرة ، ثم يجعلون لها باباً صغيراً في نهايته من الأمام ؛ وبعد ذلك يغطونه بلبد أسود اللون ، ومبلول إما في حليب الغنم ، أو بالودك (وهو الدهن الذائب من شحم الحيوانات ــ أو الحميس) وذلك لتحمي محتويات ذلك الصندوق من أن يصلها المطر ، أو أن تبتل بالماء ، عند عبور نهر أثناء السفر أو التنقل والترحال .

يقوم المغول بتلوين هذه الصناديق برسوم وصور ذات ألوان زاهية ، وأشكال مختلفة . ويجعلون هذه الصناديق في تلك العربات المنزلية حيث يقومون بربطها بإحكام ، وتمثل تلك العربات حرزاً مكيناً لها ؛ فلا تنزل عند حط الرحال ، وإنما تظل داخل العربة ، وتؤخذ الأشياء أو الحاجيات من داخل تلك الصناديق ، وتعاد على حالها السابق ، كما كانت عليه ، بكل سهولة ويسر ، وذلك من خلال أبوابها الموجودة في الأمام[1] .

تصنع هذه العربات بشكل عال بخلاف بقية العربات ، وذلك لتناسب ربطها في ظهور الجمال التي تقوم بجرها ، ثم لئلا يصلها الماء عندما يعبر المغول نهراً ما ، أثناء الترحال ، من مكان إلى آخر[2] .

في الحقيقة ، فإن المغولي لا يعتبر رجلاً مسافراً عندما ينتقل من مكان إلى آخر ، فهو مسافر ، وهو في نفس الوقت مقيم ؛ لأنه يسكن داخل منزله الذي تحمله العربات أو تجره الدواب (خيول ، أو أبقار ، أو جمال)؛

---

(١) Rubruck,"The Journey..", P: 94.

(٢) Ibid, P: 95.

فهو «... ، يتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب ، وهو في حال سيره ؛ والتي تحمل الأثقال والأزواد وخزائن الأطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت ...»[١] .

إذا كان المغول في حالة السفر ، فإنهم في أغلب الأحيان يسيرون في شكل مجموعات ، شبيهة بالقوافل الإسلامية في درب الحجاز ، يرحلون وقت صلاة الفجر ، وينزلون في وقت الضحى ، ويرحلون بعد الظهر ، وينزلون في وقت العشي ؛ وإذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر من على العربات ، وسرحوها للرعي ليلاً ونهاراً[٢] .

عندما يحط المغول الرحالة فإنهم يضعون واجهات منازلهم بالشكل الذي أوضحناه سابقاً ، حيث يقومون بترتيب تلك العربات المنزلية ، والمخصصة لحمل الصناديق الخاصة بأشيائهم الثمينة ، صفين من المنازل ، والعربات الأخرى ، وتبدو وكأنها بين حائطين[٣] . وكلما كثر عدد زوجات الرجل المغولي ، وزاد ثراؤه كلما ازدادت منازله من هذا النوع أو ذاك . لذلك فإنه يبدو مخيم رجل موسر وكأنه مدينة كبيرة ، واسعة الارجاء . كما أن تلك المخيمات غالباً ما تكون كثيرة النساء والاتباع ، وقليلة الرجال جداً[٤] .

بعد مضي أكثر من مائة سنة من رحلتي «جون البلانو الكربيني ووليم الربركي» يصف لنا الرحالة المسلم «ابن بطوطة» المنزل المغولي الذي يقام للسكنى في إقليم «الدولة الذهبية المغولية» ذلك الوصف الذي لا يكاد يختلف عن ذلك المنزل ، الذي كان يسكنه المغول ، في موطنهم الأصلي ، في منغوليا ، منذ مئات السنين . ويبنى البيت على شكل قبة من قضبان

---

(١) أنظر ، ابن بطوطة ، «رحلة ابن بطوطة» ، ص : ٣٢٤ ؛ أنظر أيضا الصفحات : ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٢) نفس الحواشي الثلاث السابقة ؛ ونفس الصفحات .

(٣) Rubruck, "The Journey..", 94.

(٤) Ibid, P: 95.

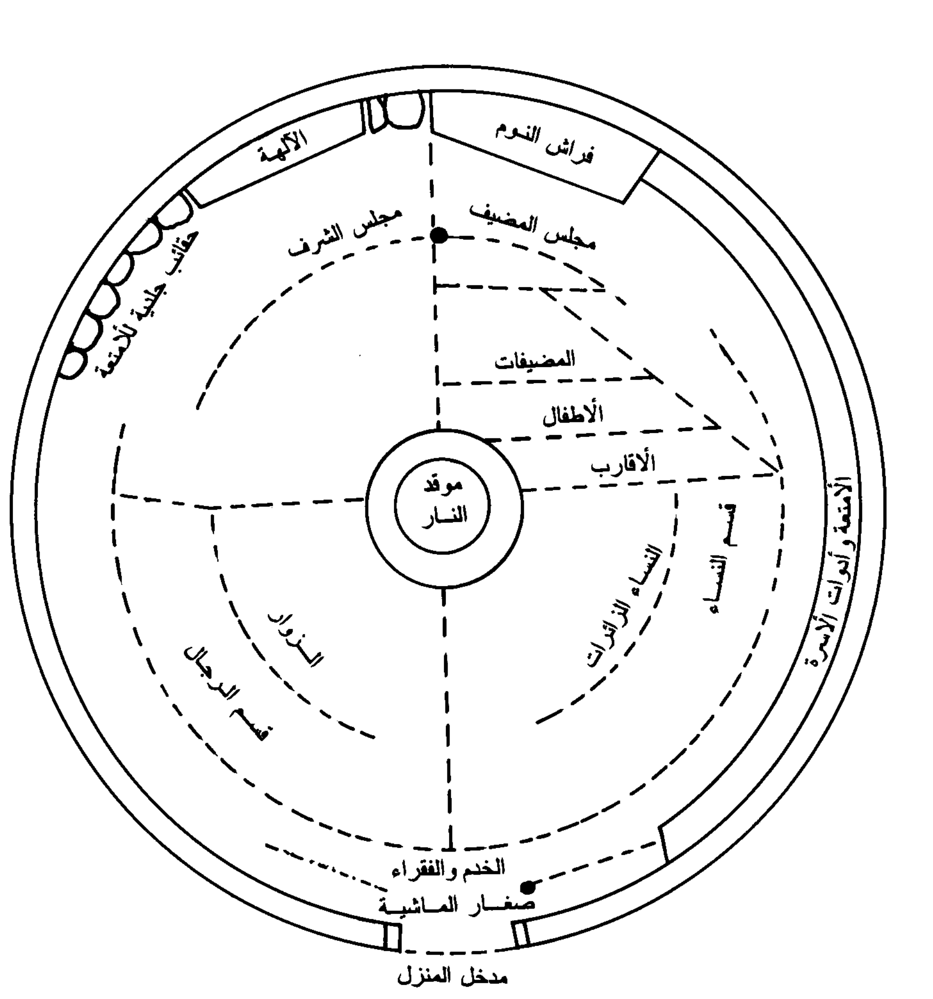
خشب مربوط بعضها إلى بعض ، بسيور من الجلد الرقيق؛ ثم يجعل على عربة خاصة لحمله في الحل والترحال ؛ حيث إنها خفيفة الحمل . ثم تكسى من الخارج باللبود أو الملف ، وهو من الجوخ ، ويكون فيها طاقات مشبكة ، أي شبابيك عليها ستار مخلخل ، بحيث يستطيع من يجلس في داخل هاتيك المنازل من رؤية الناس في الخارج ، في حين لايستطيع أحد أن يرى من في داخل تلك المنازل . وهي تنقل على عربات ، ذات عجلات ، بحيث يكون لكل عربة منها أربع بكرات كبار . ومن هذه العربات مايجره جوادان ، أو فرسان ؛ ومنها مايجر بأكثر من ذلك . كما تجرها أيضاً البقر والجمال ، حسب حال العربة الواحدة ، من حيث حجمها ، ومن حيث ثقلها أو خفتها . أما السائق فإنه يركب في مقدمة العربة ، على سرج معد ومريح ؛ وفي يده سوط يحثها به للمشي قدماً ، وعود كبير يوجهها به إذا ماعاجت عن القصد ، أو انحرفت عن الوجهة التي يريدها .

وقد شاهد «ابن بطوطة» قافلة مغولية من هذا النوع ، تنتقل من مكان إلى آخر ، فيصفها لنا قائلاً : «وأقبلت المحلة»[1] ، ويسمونها الارد[2] ، بضم الهمزة ، فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها ؛ المساجد والأسواق ، ودخان المطبخ صاعداً في الهواء ، وهم يطبخون في رحيلهم ، والعربات تجرها الخيل بهم ، فإذا بلغوا المنزل نزّلوا البيوت عن

---

(١) يعني قافلة الركب عندما يرتحل القوم بمنازلهم ويحلون في مكان جديد .

(٢) مر معنا سابقاً كلمة «أوردو» وليس «أرد» كما ذكرها ابن بطوطة . وهي كلمة تركية مغولية ، تعني المخيم وساكنيه ، أو موطن قوم ينزلون في مكان معين . وعادة تطلق على كل مخيم مغولي تحت رئاسة إحدى زوجات أمير ما . وقد عمم معناها هنا ، فشملت كل الركب وما حمل . كان «بركة خان» (٦٥٥ - ٦٦٥هـ/١٢٥٧ - ١٢٦٦ م) أول مغولي أسلم ، وقد نشر مغول «إقليم القبجاق» الاسلام ، وأضحى سكان هذا الأقليم مسلمين . وقد زار ابن بطوطة ذلك القطر المسلم أيام السلطان محمد أوز بك التاسع .



تقسيمات منزل الفرد المغولي من الداخل

العربات ، وجعلوها على الأرض ، وهي خفيفة المحمل ، وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت[1] .

(ب) **الشكل الداخلي للمنزل المغولي :**

للبيت المغوي صفة معينة ، وترتيباً خاصاً يظهر به من الداخل ؛ لذلك فإن ترتيب أي منزل ينطبق بحذافيره على المنازل المغولية الأخرى في شتى أنحاء أقاليم منغوليا ؛ سواء أكان ذلك قبل خروج المغول من عزلتهم التي كانوا يعيشونها ، أو فيما بعد ذلك . فلو دخل المرء بيتاً واحداً ثم ذهب إلى بقية المنازل الأخرى لوجد نفس النظام ، وعين الترتيب ، كلها على وتيرة واحدة ، وشكل موحد ؛ حيث يقوم المرء المغولي بتقسيم منزله من الداخل إلى أقسام معينة كل قسم منه مخصص لأداء غرض معين من الأهداف الاجتماعية هناك ، فنجده خصص لكل قسم من أسرته ، أو ضيوفه ، أو خدمه ، أو أطفاله ، أو حاجياته ، أو أمتعته ، أو حيواناته ، مكاناً معيناً في داخل ذلك المنزل ، فلو تصورنا المنزل على شكل خيمة كبيرة مدورة الشكل ، حيث هو الطابع العام للمنازل المغولية ، يفتح بابها إلى الجنوب ، إذ قد تكون هذه الظاهرة الاجتماعية من أهم مميزات منازل المجتمع عندهم ، وجعلنا أرضها من الداخل أربعة أقسام ، وذلك بوضع خط من منتصف مدخل الباب ، وحتى نهاية الخيمة ، ثم قسمناه بخط آخر من المركز واتجهنا بالخط يميناً ويساراً حتى نهاية المساحة الأرضية ، التي تحتل الخيمة أرضها ، لسهل علينا معرفة نظام منزله من الداخل . فلنبدأ من مدخل الباب ، ونتجه يميناً ثم ندور في داخله دورة كاملة حتى نخرج من الجهة اليسرى للباب .

عندما يدخل المرء من الباب ، فإنه أول ما يجد على يمينه وعلى يساره مكاناً وقد خص للحيوانات الصغيرة ، كالأغنام ، والماعز ، .. الخ . يليها

---

(١) أنظر رحلة ابن بطوطة ، ص : ٣٣٠ – ٣٣١ .

مباشرة مكان جعل مجلساً للخدم والفقراء ، توضع الأواني والأمتعة المنزلية إلى الجهة اليمنى مجاورة لحافة المنزل ، ثم يجلس أمامها النساء من أهل البيت ، يقابله من اليسار في الناحية الثانية مكان خصص لجلوس الرجال ، وهو يقع في الجهة الثانية المعاكسة . أما النساء الزائرات فقد جعل لهن مكان أمام النساء الجالسات إلى اليمين ، حيث يقابله من الجهة الثانية من البيت ، أي إلى اليسار ، مكان خصص مجلساً للرجال . أي إنهم يجلسون أمام الرجال من أهل البيت ، كنوع من إكرام الضيف ، أو الزائر ، وذلك بإجلاس الزائرين ، رجالاً كانوا أم نساءً ، في مقدمة صفوف الجالسين من أهل البيت . أما موقد النار ، فإنه يحتل المركز الوسطي من البيت المغولي . ثم يلي المساحة المخصصة لموقد النار ووقودها ، مكان جُعل لجلوس الأقارب ؛ ثم بعده مكان الأطفال ، ثم مكان جلوس المضيفة (أي صاحبة المنزل) ؛ ثم يليه مكان المضيف (أي صاحب البيت) . يقابل هذين المكانين المخصص لرب البيت وسيدته ، في الجهة المقابلة ، مكان مخصص لضيف الشرف من الزائرين لهذه الأسرة ، حيث يقع هذا المكان إلى اليمين من مجلس صاحب الدار ، عند جلوسه وهو متجه إلى ناحية الجنوب ؛ إذ أنه يجلس على هذه الهيئة على الدوام . أما المكان المخصص للمخدع (أي فراش النوم) فهو في آخر أرضية المنزل . ثم إلى الخلف ، من المكان الذي جعل لضيوف الشرف ، توضع الحقائب ، والأمتعة الجلدية ، والمواد الغذائية ؛ وإلى الخلف منها تعلق تماثيل الآلهة[1] .

يعلق المغولي صورة مجسدة تتدلى من أعلى المكان الذي يجلس فيه صاحب الدار ، ويسمى هذا التمثال «أخو صاحب المنزل» ؛ كما يعلق فوق المكان الذي تجلس فيه صاحبة المنزل تمثالٌ آخر على نفس النمط ، ويسمى

(١) Rubruck, "The Journey..", P: 95.

«أخو صاحبة المنزل» . ويعلق في الوسط بين هذين التمثالين ، وإلى الأعلى منهما ، تمثال آخر أقل سماكة وحجماً من التمثالين الآخرين . ويعتبر المغول الوثنيون أن هذا التمثال الصغير هو الحارس لجميع البيت ومحتوياته[1] .

على العموم ، فإنه يمكن أن نعتبر النصف الأيسر من البيت (أي عندما يكون الاتجاه إلى ناحية الجنوب) مكاناً مخصصاً لجلوس النساء ، سواءً أكُن من نساء ومحارم صاحب الدار ، أو من النساء الزائرات ؛ في حين نجد أن النصف الأيمن ، من ذلك المنزل قد جعل مكاناً خاصاً للرجال ، سواء من أهل الدار ، أم من الرجال الزائرين . إن سيدة البيت ، في المجتمع المغولي ، يكون لديها مسند ، أو مخدة ، مصنوعة من جلد الماعز ، ومحشوة من الداخل ، إما بالقش الناعم ، وإما بصوف الأغنام أو بشعر الماعز الناعمين ، حيث تجعله في مكان مرتفع قليلاً وعليه تمثال صغير متجهاً ناحية النساء[2] .

يوضع عند المدخل إلى قسم النساء تمثال ومعه مجسدة لضرع بقرة ، وهذا التمثال خاص بالنساء اللواتي يقمن بحلب وصرب الأبقار ، لأن هذه المهمة تعتبر من وظائف النساء . كما يوضع عند المدخل إلى قسم الرجال تمثال آخر ، ومعه تمثال لضرع فرس ؛ وهذا التمثال مخصص للرجال الذين يقومون بحلب وصرب الأفراس ، حيث أن هذه العملية غالباً ما يقوم بها الرجال[3] .

عندما يجتمع المغول على شراب ، فإنهم ينثرون النضحات الأولى من شرابهم لتلك التماثيل ، فيبدأون أولاً بالنضح على ذلك التمثال المتدلي من على رأس سيد الدار ، على اعتبار أنه كبير التماثيل ، لوضعه متدلياً فوق مجلس رب المنزل ، ثم التماثيل الأخرى بالدور ، وعلى التوالي واحداً بعد واحد ، حسب مكانة هذا التمثال ووضعه بين التماثيل المغولية الأخرى .

---

(١) Ibid. P: 95.

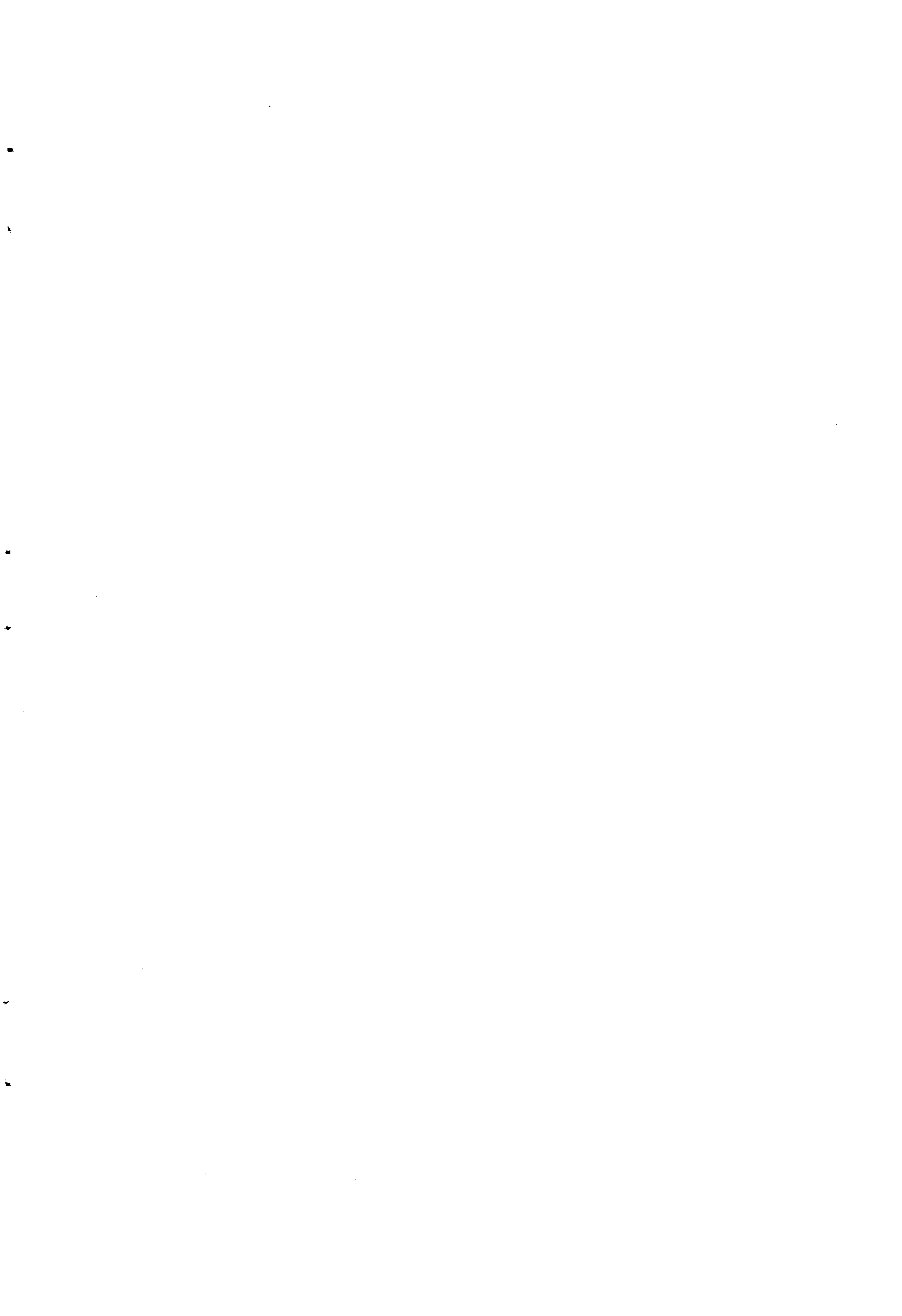
(٢) Ibid. P: 95-6.

(٣) Ibid. P: 95-6.

بعد هذا يخرج الخادم إلى خارج المنزل يحمل كأساً وبه شراب ، فينضح بشيء منه ثلاث مرات إلى ناحية الجنوب ، مع ثني ركبته في كل مرة عندما ينضح ؛ ويعتبر ذلك النضح بالشراب إلى جهة الجنوب تشريفاً للنار . ثم يكرر الخادم نفس الحركة تلك باتجاه الشرق ، تشريفاً للهواء ؛ ثم إلى الغرب ، تشريفاً للماء ؛ ثم إلى الشمال تشريفاً للموتى . ثم بعد الانتهاء من هذا النوع من الطقوس يعتبرون أن الآلهة قد أخذت نصيبها من ذلك الشراب ، وقد شرفوا الهواء والماء واسلافهم من الموتى ؛ وهنا يشرعون في احتساء ذلك الشراب[1] .

---

(١) Ibid. P: 95-6.



الفصـــل الثالـث

مجتمع المغول القبلي وحياتهم الاجتماعية

١ - مجتمع المغـول القبلي

٢ - أخـلاق المغـول وطباعهم

٣ - الحياة الأسريـة في المجتمع المغولي .

(أ) الزواج في المجتمع المغولي وطرقـه .

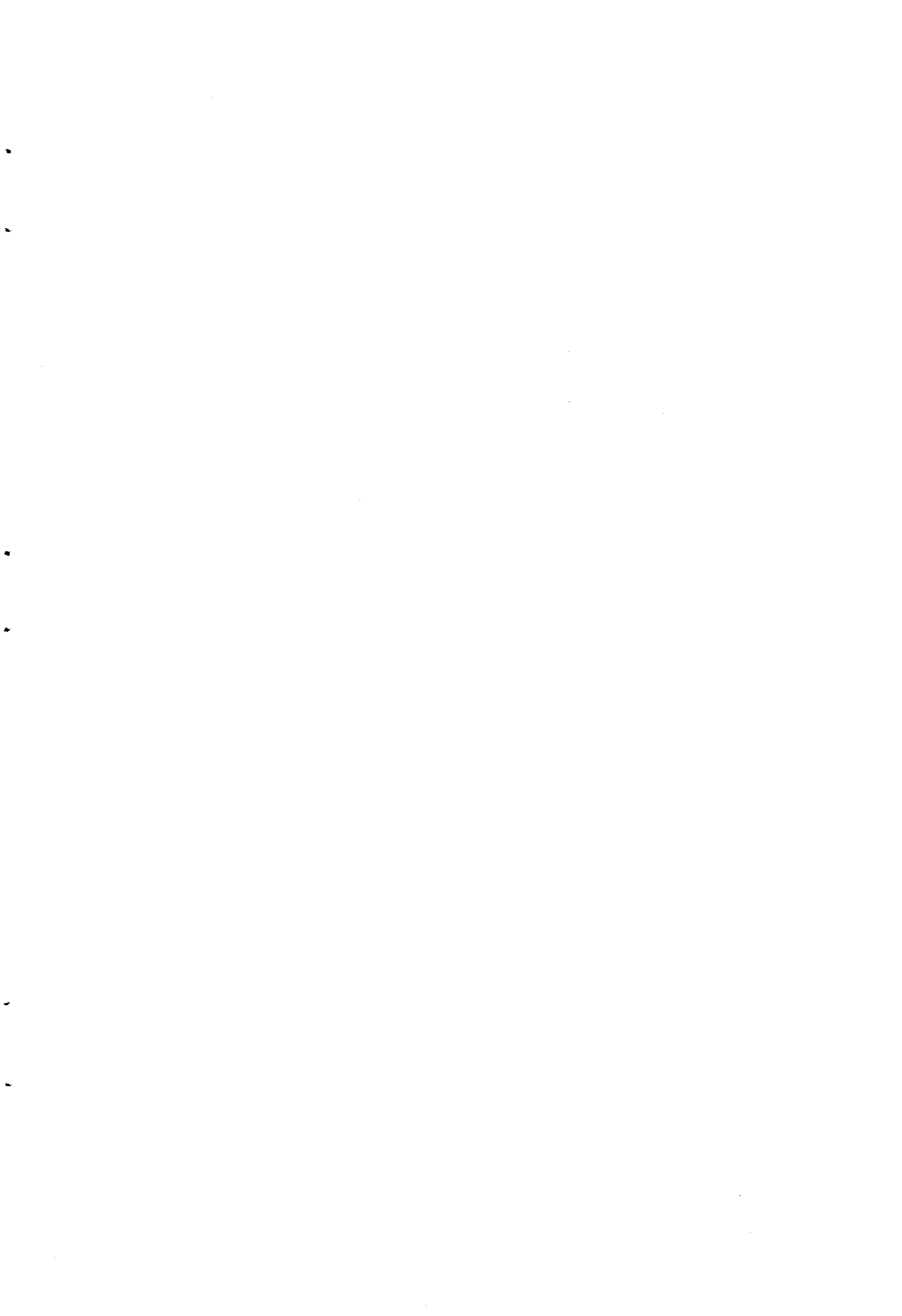
(ب) الزواج من زوجـات الآباء المتوفين .

(جـ) تعدد الزوجـات .

(د) الـزواج بين الأطفـال المتوفين .

٤ - حرفـة الرجل في المجتمع المغولي .

٥ - المـرأة ومكانتها في المجتمع المغولي .



١ - مجتمع المغـــول القبلـي :

بما أن المغول يعيشون حياة غير مستقرة ، عيشة التنقل والترحال ، فقد ترتب على هاتيك العينة من الحياة البدوية ، أن يكون لها تأثير مباشر في البنية الاجتماعية لهم . لذلك يرتكز البناء الاجتماعي المغولي على ناحية واحدة ، هي النظام القبلي ؛ حيث يتكون من جماعات متناثرة هنا وهناك ، في شتى أنحاء الأراضي المغولية ، مشكلة بذلك بما نعرف في مجتمعنا هنا بـ : «قبائل» . وتختلف تلك القبائل المغولية ، كل واحدة عن الأخرى ، من حيث الحجم ، وعدد فخوذها وبطونها ، وعدد أفراد القبيلة فيها ؛ فقد تكون القبيلة كبيرة جداً ، وهي بذلك تُكَون مجتمعاً هو أقرب إلى الدولة منه إلى القبيلة في ذلك الوقت ، كما سيرد معنا ذكر لبعض نماذج هذه القبائل الكبيرة . وقد تكون القبيلة صغيرة جداً ، ولا يتعدى أفرادها - في مجتمعهم - العشرة ، تعيش في أرض معينة بعيداً عن القبائل الأخرى . وفي الحقيقة ، فقد يكون هناك مجتمع قائم بذاته ، لا يتعدى أفراده الأسرة الواحدة ، والمكون من الرجل والمرأة ، وأولادهما ، وأتباعهما - إن كان لهما أتباع ؛ فهو مجتمع يعيش منفرداً ، في الحل والترحال ، بمعزل عن بقية المجتمعات القبلية الأخرى .

تعتبر قبيلة النيمان ، أو مملكتا النيمان - الشرقية والغربية ، من أكبر المجتمعات القبلية في منغوليا . وكانت مجموعة قبائل هذه المملكة المختلفة تعيش في المنطقة الواقعة بين المناطق العلوية لنهري «قرا - ارتش» و «أورخان» ، أي في أقصى الجهة الغربية من منغوليا ، إلى الشمال من سلسلة مرتفعات جبال الطاي العالية[1] .

---

(١) لمعلومات إضافية عن هذه القبيلة ، أنظر ما قلناه في هذا الصدد في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٧١ - ٧٥ ، ثم ما ورد في هاتيك الصفحات من مصادر ومراجع تتعلق بتاريخ النيمانيين ، كما وقد سبقت الاشارة إليهم فيما مضى عند كلامنا عن حدود الأراضي المغولية .

قد يلي مملكة النيمان ، إن لم تكن مثلها في المكانة ، مجموعة قبائل مغولية أخرى عرفت في التاريخ المغولي بـ «الكرايت» . كانت هذه القبائل تعيش إلى النواحي الشرقية من أراضي النيمان ، أي في المنطقة الواقعة إلى الجنوب من نهري «أورخان» و «سِلِنْكَا» . وقد تكلمنا عن هذه القبيلة في مجموعها في بحث لنا سابق ، فرأينا إنه لا داعي لتكرار ذلك هنا[1] .

يقع إلى الشمال الشرقي من أراضي قبائل الكرايت مساكن ومراعي ومنتجعات قبائل المركيت . وتقع مواطن هذه القبيلة شمال منطقة التقاء مياه نهري «أورخان» و «سِلِنْكَا» أي المناطق السفلية لنهر «سِلِنْكَا» المذكور ، وإلى الجنوب من بحيرة «بِيكال»[2] .

كانت مجموعة قبائل «أويرات» تعيش في الأدغال والغابات الكثيفة الواقعة إلى الشمال من موطن قبائل المركيت ، وإلى الغرب والشمال الغربي من «بحيرة بيكال» . وتتصف هذه القبائل إنها كانت قبائل بدائية جداً ، كانت ما تزال تعيش على حياة الصيادين داخل غابات منطقة «بيكال» الروسية في الوقت الحاضر[3] .

أما (الموطن الأصلي للمغول) ، وهو الذي حدد في المنطقة الواقعة إلى الشرق من بحيرة بيكال وقبائل «المركيت» ، والتي تقع بين نهري «أونون» و «كِرُولِن» فتحتلها قبائل المغول الأصلية . وقد عدد لنا رشيد الدين بطون هذه القبائل وفخوذها ، فبلغت أكثر من خمسة عشر بطناً ، وثمانية عشر فخذاً ؛ وقد اشتهرت قبيلة «قيات» والتي تنحدر أصلاً من

---

(١) المرجع السابق ص.ص : ٥٩ – ٦٨ ، ثم ما ورد في حواشي تلك الصفحات من مصادر ومراجع تطرقت لهذه القبيلة .

(٢) حول هذه القبيلة ، أنظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ ١/ص.ص : ٧١ – ٧٤ .

(٣) أنظر المصدر السابق ، ص.ص : ٧٦ – ٧٧ .

قبيلة «بُرْجكِين» حيث تنتمي إليها أسرة جنكيزخان ، والتي كانت تحت رئاسة كبير هذه الأسرة مسألة مشيخة القبائل المغولية ؛ تتسع هذه المشيخة حتى تشمل في بعض الأحيان جميع قبائل المغول وتنكمش حتى تنعدم ، حسب قوة وضعف كبير قبيلة «قيات» من أسرة جنكيزخان[1] .

أما ما يتعلق بالمناطق الشرقية من الأراضي المغولية فتكاد تكون قبائل التتر هي القوة الوحيدة المسيطرة عليها ، وهي المناطق الواقعة إلى الجنوب والشرق من نهر «كرولن» . وقد صنف الصينيون ، في تاريخهم ، قبائل التتر هذه إلى أشكال ثلاثة . الصنف الأول سموهم «بالتتر البيض» ؛ وقد كان يعيش أفراد هذا الصنف إلى الجنوب الشرقي من منغوليا ، والمحاذية أراضيهم لتخوم الحدود الشمالية . أما الصنف الثاني ، فهم «التتر السود» ؛ ويعيش أفراد هذه الطائفة إلى الشمال من الأولى . والصنف الثالث والأخير هم «التتر المتوحشون» أو ساكنو الغابات ؛ وهم الذين يعيشون في الغابات والأدغال ، حيث يختلفون عن بقية قومهم ، إذ أنهم يحترفون مهنة الصيد ، مثلها في هذا الشأن مثل القبائل البدائية في شمال البلاد ، وهي ما عرف بـ «الاويرات» . لذلك ، فإن الذي يظهر لنا أن هذا التقسيم الصيني للقبائل الشمالية ، التي تقطن بجوارهم ، تقسيم له منظار حضاري معين . فالتتر البيض ، وهم الذين يسكنون الأراضي المغولية المجاورة للصينيين ، كانوا يُعْتَبَرُون أكثر القبائل التترية تحضراً ،

---

(١) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ ١/ ص.ص : ٢٧ - ٢٨ ، ثم الفصل الأول من الباب الثاني من المجلد الأول ، ص.ص : ١٦٥ - ٦١٣ حيث فصل لنا هذا المؤرخ العظيم تاريخ أسرة جنكيزخان ، وحكمها للقبائل المغولية ، ومدى قوة وضعف هذا الحاكم ، حتى إنتهى الأمر بتفرق القبائل المغولية ، فنبذت الانصياع لأفراد هذا البيت ، مباشرة بعد وفاة يَسُوكَاي والد جنكيزخان ، فأعادها الآخير ، وكون إمبراطورية المغول العملاقة . فأضحت ، كما ذكرنا ذلك أعلاه ، أكبر دولة عرفها تاريخ البشرية ، كُونت في أقصر مدة ، كما سبقت الاشارة إلى ذلك .

لمعرفتهم بمواطن الحضارة المجاورة لهم في الصين ، وتأثرهم بها في حياتهم الاجتماعية ؛ لذلك كان أباطرة الصين يعتمدون على هذه الفئة من المغول ، في إيجاد تحالف معهم ضد قبيلة أو أخرى ، تروم انتهاك حرمة أراضي الصين ، بأي نوع من الأذى . فكان ينظر إليهم على أنهم كلاب حماية . لذلك ، فقد لعب أولئك التتر دوراً بارزاً في خدمة أسيادهم الصينيين ، ضد بني قومهم من بقية الأقوام التترية الأخرى . وإن كان هناك وجه للمقارنة بينهم وبين غيرهم من أمم الأراضي الأخرى ، في هذا السبيل ، فإن الدور الذي كان يلعبه التتر البيض ، خدمة للصينيين ، يكاد يكون نفس الدور الذي لعبته مايسمى «بدولة المناذرة» خدمة لأكاسرة فارس ، وعين الجهد الذي بذلته ما نسميهم أيضاً بـ «ملوك الغساسنة» ، خدمة لقياصرة الروم والبيزنطيين ، قبل البعثة النبوية الشريفة ، ضد قومهم من العرب . أما التتر السود فهم أولئك الأقوام غير المتحضرين ، وإن كانوا في مرحلة بين مرحلتين ، التحضر والبدائية ، التي صنف عليهم ساكنو الغابات والأدغال ، من القبائل البدائية[1] .

٢ - أخلاق المغول وطباعهم :

رغم وجود الكثير من الطباع والأخلاق المشتركة ، لجميع أفراد المجتمعات البشرية ، وفي كل فئاته المختلفة على وجه البسيطة ، إلا أن هناك حقيقة لا مراء فيها ولا جدال ، هي أن أي مجتمع من مجتمعات الدنيا ، وفي أية بقعة من بقاع أرضها المعمورة ، يكاد ينفرد إلى حد كبير عن غيره من بقية الشعوب بأخلاق ، وطباع تميزه ، وتجعله فئة معينة ، قائمة بذاتها ومدعاة لفخرها وعزها . ذكر لنا ابن العبري ، مثلاً ، عن العرب

---

(١) لمعلومات ضافية ووفيرة عن «التتر» ، أنظر : رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ ١/ص.ص : ٥٧ - ٧١ . فقد تكلم عن أقسامهم ، وتشعب قبائلهم ؛ كما فصل في الحروب الطاحنة التي كانت قد جرت فيما بينهم من ناحية وبينهم وبين المغول من الناحية الثانية .

ما نصه ، حول صفات وعلوم تميزوا بها عن غيرهم من مجتمعات الدنيا ، قائلاً : «فأما علم العرب الذي كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم ، وأحكام لغتهم ، ونظم الأشعار وتأليف الخطب . وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات النجوم ومغاربها ، وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة أسباب المعيشة»[1] . وقد نسي ، أو تناسى ، ابن العبري ، مسألة النجدة ، والحمية ، وإغاثة الملهوف ، والكرم .. الخ من طباع هذا الانسان ، وهذه مميزات قد تكون فريدة في مجتمعات الدنيا .

بناءً على ذلك نجد أن الانسان المغولي له أيضاً صفاته الخاصة ، وأخلاقه التي يكاد يتميز بها عن غيره من أفراد المجتمعات البشرية ، وطباعه المختلفة — مثله في ذلك مثل أي إنسان آخر ، بعضها حسنة محببة ، وبعضها سيئة ؛ أو إنها تظهر لنا بغيضة ، على النقيض مما يراها المغولي . إذ قد يراها المرء المغولي على أنها من الصفات الحسنة ، بينما نجدها نحن ، من منظارنا ، تبدو كريهة ، ومدعاة للازدراء والاشمئزاز والتقزز

إنني ، في هذا الموضوع ، كما هو حالي في ما سبق من مواضيع ، أدون معلوماتي عن المغول معتمداً بشكل أساسي على الله أولاً ، ثم على ما كتبه أفراد ظهر لي على أنهم ثقات ، شاهدوا المغول ؛ وعاشوا بين ظهرانيهم ، بل وعاشروهم فترة من الزمن ، كانت كافية لمعرفة كل شيء ، تقريباً ، عن أولئك القوم ، ومجتمعهم في الزمن الغابر ، والذين مايزالون على طبيعتهم ، إلى حد كبير ، حتى وقتنا الحاضر . حيث إن الشيء الذي كان يجري في مجتمعهم ، خلال القرن السابع الهجري/١٣ للميلاد ، أو قبله ، يكاد يكون هو عينه ، يتكرر في هذا العصر الذي نعيش فيه أحداثاً

---

(١) ابن العبري ، كَريكَوري أبو الفرج الملطي ، «تاريخ مختصر الدول» تحقيق صاليحاني ، بيروت ، ١٩٥٨ م ص : ٩٤ .

وصلت القمر ، والكواكب والنجوم السيارة الآخرى . أما إذا كان هناك تغيير ، على أي حال ، إما إلى الأسوأ أو إلى الأحسن ، فهو ، حسب معلوماتي التي إستطعت تجميعها مما قرأت مما كتبه عنهم محدثون ، هو تغيير طفيف جداً ، وربما أنه مقتصر على مجتمع المدنية الحديثة الوجود ، وعلى نطاق ضيق جداً .

مر معنا ذكر العديد من الشخصيات التي عاشت مع المغول ، وكتبت عنهم ، ونقلنا عنهم ، لعل أهمهم «جون الكربيني ، ووليم الربركي ، والأخ بندكت البولندي ، وماركو بولو الايطالي ، والجويني ورشيد الدين وابن بطوطة» . فقد دون لنا هؤلاء الرحالة ، والمؤرخون ما شاهدوه بأعينهم ، أثناء إقامتهم معهم ، وتعاملهم مع أولئك القوم من طبائع الانسان المغولي ، وما لمسوه من صفاته ، وأخلاقه . وحول هذا الموضوع يذكر لنا «جون الكربيني» بأنه من العادات والطباع الطيبة لدى المغول الطاعة المطلقة للرئيس ؛ وأن تلك الطاعة التي يتمتع بها ذلك الرئيس لا يحظى بها أي رجل في العالم ، أياً كان مذهبه ، أو دينه ، علمانياً كان أم من المنقطعين للعبادة[1] .

تنطبق هذه الصفات ، التي يتمتع بها الرجل في طاعته لسيده ، على الفترة التي أعقبت تغير الأحداث السياسية ، والاجتماعية في منغوليا ، وذلك عندما ظهر «جنكيزخان» متربعاً على عرش زعامتها ، بعد أن وحد جميع القبائل المغولية تحت زعامته الفردية المطلقة وزعامة أبنائه من بعده . هذه الحقبة من الزمن هي التي قام خلالها «جون ، والبندكت البولندي ، ووليم الربركي ، وماركوبولو» ، برحلاتهم المشهورة إلى منغوليا وإلى الأراضي التي خضعت تحت نفوذ سادتها من أسرة جنكيزخان، وهناك شاهدوا بأمهات أعينهم، واطلعوا على ما كان يجري

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol..'',P: 14.

من معاملات أولئك الناس فيما بينهم ، من ناحية ، وبينهم وبين غيرهم من ناحية أخرى . وما رآه «جون» ورفاقه لا يكاد يختلف كثيراً عن الفترة السابقة لفترة جنكيزخان أو الفترات التي تلت .

من الصفات الأخرى التي نقرأها عنهم ، بأنهم قوم لا يتجادلون ، قولا أو فعلاً ، فيما بينهم ، إلا في حالات نادرة جداً . كما أن الاقتتال ، والتشاجر ، أو جرح أحدهم ، أو قتله ، كل هذه الأعمال تكاد تكون معدومة فيما بينهم . بعد أن وحدهم جنكيزخان كأمة واحدة ، وتحكم أمماً وشعوباً متباينة الأصول والحضارات . فالفرد المغولي يحسب ألف حساب وحساب لزميله المغولي ، من حيث التقدير والاحترام ، وقيمة الانسان المغولي عندهم[1] . وهذه القيمة الكبيرة المحسوبة للفرد المغولي لا ينظرون بها إلى غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى ؛ إذ أن قتل الفرد أو الألف من غير المغول لا تساوي شيئاً عندهم ؛ كما إنه لم يكن يوجد مكان بينهم للص ، أو سارق . ونتيجة لذلك ، فإنهم كانوا يتركون منازلهم ، وعرباتهم ، التي يكون بداخلها ما يملكونه من أشيائهم الثمينة ، دونما حام ، أو حارس يقوم على حفظها وصيانتها أو حمايتها من سارق أو لص ؛ كما أن أشياءهم الثمينة لم يكن يقفل عليها بأقفال من أي نوع كان .

أما إذا فقدت شاة ، أو عنز ، أو أي حيوان لأي شخص كان ، فإنه يتحتم على الشخص الذي يجدها إما أن يتركها ، حيث كانت ، ويخبر أهلها عن مكانها ، أو أن يأخذها إلى مكان يمكن لصاحبها أن يجدها ، بحيث يتم له العثور عليها دون صعوبة[2] .

كل فرد منهم يُكِنُ تقديراً ، وإحتراماً للفرد الآخر ، ويبادله علاقات

---

(١) ولقد انتهج صهاينة مايسمى بدولة إسرائيل في أرضنا المسلمة ، عين السياسة المغولية هذه في تعاملهم مع العرب ؛ وليس ما نشاهده اليوم من الغارات الجوية والبرية والبحرية على مسلمينا إلا تطبيقاً عملياً للسياسة التي كان يتبعها المغول مع غيرهم من الأمم .

(٢) Carpini, ''History of the Mongol..'',P: 14.

ودٍ وصداقة ؛ فهم يتقاسمون الطعام فيما بينهم ، ويدعو بعضهم بعضاً ، وبكل رحابة صدر ، على ذلك الطعام ، حتى وإن كان قليلاً ، وزهيداً . وإذا ما دُعي شخص إلى طعام ، حتى إن لم يكن له معرفة بأصحاب ذلك الطعام ، فإنه يتحتم عليه - حسب العرف والتقليد الاجتماعيين في داخل المجتمع المغولي - أن يلبي الدعوة ، ولا يجوز له رفض الدعوة . كما أن أصحاب الطعام إذا مر بهم أي شخص ولم يدعوه للمشاركة معهم في طعامهم ذاك ، فإن عادات المغول وتقاليدهم قد جعلت له الحق أن يذهب إليهم ويجلس معهم على مائدة الطعام ، ويأكل ما يشاء ، دون أن يستأذنهم ، ولا يجوز لهم محاولة منعه من الجلوس معهم والمشاركة لهم في طعامهم . والسبب في هذا ، أن ذلك يعتبر منقصة ، وعاراً حين يمنعون الغير من مشاركتهم الطعام ؛ كما إنها قلة أدب ، ومعرة على المرء أن يرفض الدعوة لمشاركة الداعي إلى الطعام ، أو فيما يأكله[1] .

يتميز الانسان المغولي بميزات يكاد ينفرد بها عن غيره ، وهي شدة الصبر وطول الأناة ؛ فهو شديد الصبر ، قوي التحمل والمكابدة ؛ ومع ذلك فإنه لا يرى عليه أي أثر مما يعانيه أو يكابده . وإذا ما تعذر عليه الحصول على طعام ، فيستطيع أن يظل يوماً أو يومين دون أن يأكل ، ومع ذلك فهو لا يُرىٰ عليه أثر الجوع ، أو نفاد الصبر ؛ بل نجده يغني ، ويمرح ، وكأنه ممتلىء البطن ، شَبَعَاً ورِيَّاً . كما أن في استطاعة المرء منهم مداومة ركوب الخيل لفترة طويلة لعدة أيام وليالٍ ، فنجده ينام ويستيقظ وهو على صهوة جواده . وله صبر يذهل في تحمل شدة البرد القارس ، والحرارة الشديدة اللافحة[2] . ثم يردف «جون» القول محدثاً عنهم حيث يذكر أن الشعور بالحسد أو الغيظ تجاه أخيه المغولي لا مكان لهما

---

(١) Ibid, P: 14.

(٢) Carpini, "History of the Mongol..", PP: 14-15.

في قلوبهم ، ويكاد يكون معدوماً ؛ كما أن حياة الترف والاسراف والبذخ والسعي وراء الحياة المترفة لا وجود ولا مكان لها في مجتمعهم[1] .

أما ما يتعلق بشعورهم ، تجاه هذه الناحية ، في نظرتهم إلى غيرهم من الأمم الأخرى ، فإننا نجدهم على النقيض من ذلك العمل ، فهم يحتقرون غيرهم من الشعوب والمجتمعات الانسانية الأخرى ؛ فهم يظهرون اعتزازاً بالنفس ، ويعتقدون بأنهم صفوة مختارة من بين بقية المجتمعات الأخرى[2] . ومازالت هذه النظرة ، وذاك الشعور - في الفرد المغولي - تعيش معه حتى وقتنا الحاضر ؛ حيث يظهرون اعتزازاً بالنفس ، واعتداداً بالماضي المجيد ، ويتعنتون ، ويتكبرون ، وينظرون إلى غيرهم من الشعوب الأخرى باحتقار وازدراء ، حتى وإن كانوا أهل حضارة ورقي وعلم ، أو كان المرء ملكاً أو من محتدٍ كريم . وفي حقيقة الأمر ، فإنهم لا يعتبرون غيرهم من الناس ، ولا يحسبون لهم أي حساب ، ولا إلى مستوى بهائمهم . ولعل أبرز ما تتجلى فيه هذه الصفة المقيتة ما كان يظهره خاناتهم المغول من تصرفات رعناء ، في معاملاتهم للزائر من أمم وشعوب أخرى ، ملكاً كان أم سلطاناً . فلا يستقبلونه بما يليق بمكانته ، ولا يظهرون أي إحترام لذلك الضيف أو الزائر . لقد كانت هذه النظرة التي يحملها الخانات المغول تجاه غيرهم من الحكام أو الملوك من غيرهم من الأمم الاخرى . وقد سبق لنا أن ناقشنا هذه المسألة بشكل أكثر تفصيلاً ، في بحث آخر لنا منشور[3] .

لعل ما أورده لنا الرحالة في هذا الشأن هو أنه قد فاتت عليه حقيقة جوهرية هنا - على ما يظهر لنا - وهي أن الخان المغولي كان يعتبر ذلك الانسان الزائر ، من غير المغول ، ملكاً أم سلطاناً أو رجلاً عادياً ، لم يأت

(١-٢) Ibid, P: 15.

(٣) أنظر كتابنا «أوضاع الدول الاسلامية في المشرق الاسلامي» بيروت ١٤٠١هـ ص.ص : ٢٦٨ - ٢٧١ .

إلى منغوليا ، ومقابلة الخان إلا كواحد من رعايا أو أتباع الخان المغولي في عاصمة بلاده «قرا - قروم» فيعتبره الخان جاء صاغراً ليدفع له الأموال ، وما غَلا ثمنه (والتي كانت تحمل إلى خاناتهم كهدايا يأتي بها الزائرون إلى منغوليا) كجزء من الواجب المفروض الذي تُحتمه التبعية للمغول ، وذلك لكي يَسْلَمَ هو بنفسه ، وتنجو أرضه من الأذى ، والدمار ، ويَأمَنُ هو وشعبه من أن يأتي عليهم المغول ، فينشرون بينهم الدمار الذي إشتهر به المغول ، خاصة في عنفوان قوتهم أيام جنكيزخان ، وخلال الفترة التي تلت وفاته مباشرة . كما أن هناك ناحية ثانية ، وهي أن المغولي كان يعتقد ، أعتقاداً راسخاً ، بأن الله لم يخلق العالم إلا من أجله ؛ لذلك ، فإنه يتحتم على بقية الأمم والشعوب الأخرى السمع والطاعة ، فلم تخلق (في نظره) إلا لتقوم على خدمته ، وتنفيذ أوامره ، وما يراه الخان والقادة المغول . فقد كان هذا الشعور هو الاعتقاد السائد لدى المغول في هذه الفترة بالذات ، والتي تكلم لنا «جون» عنها .

لذلك ، نجد أن الرجل المغولي كان سريع الغضب في تعامله مع غيره من الشعوب والمجتمعات الاخرى . فهو يثور ويغضب لأتفه الأسباب ؛ كما إنه لا يجدها نقيصة في خلقه في قوله الكذب ، في تعامله مع غير المغولي . فنجد أن لسانه يكون في البداية حلو الكلام ، عذب المنطق ؛ إلا أنه في النهاية يلسع كما تَلسَعُ العقرب ، فلا تجد لصدق القول عنده مكاناً . فهم أصحاب المكر ، والغش ، والخداع ؛ وفوق هذا خبث المعاملة وفساد النية وسوء السريرة . لذلك فإنه متى استطاع الفرد منهم ، أن يستحوذ على ما عند الغير لأقدم على ذلك بشتى الحيل والخدع ، والغش ما إستطاع إليه سبيلاً[1] .

المغول أناس قذرون ، قذرون في الطريقة التي يأكلون ويشربون بها ،

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

وفي ملبسهم ، وفي مسكنهم (وهذا ما ناقشناه في مقال سابق ، عند كلامنا عن هذه المواضيع) . كذلك ، فإن المغول قذرون في معاملاتهم لغيرهم من الأمم ؛ فهم يغلفون مخططاتهم الشريرة والشيطانية ، ضد غيرهم ، بطرق غاية في التنظيم ، لدرجة يصبح معها من المتعذر على غيرهم أن يكونوا في وضع يمكنهم من أخذ الاحتياطات المناسبة في محاولة لافساد ما عقد المغول العزم على تنفيذه ضد غيرهم .

إنهم قوم في منتهى الجشع والطمع ؛ فهم شديدو الالحاح في طلباتهم ، وفي طريقة اغتصاب وابتزاز مالدى الغير ؛ في الوقت الذي يكون المرء منهم شديد التمسك والتشبث بما يملك . وهم قوم بخلاء لدرجة التطرف ، حتى إن المرء منهم يبخل على غير المغولي بشربة ماء قد يكون فيها إنقاذ حياة ذلك الانسان[1] .

لعل هذه الصفات التي تتقزز منها النفس الأبيه ، وتبدو عندنا من السمات البغيضة ، قد تكون مما يتباهى به المرء في ذلك المجتمع ، وخاصة نظرتهم إلى مالدى الغير (وأعني بالغير ، غيرهم من أفراد المجتمعات من خارج مجتمعهم المغولي) على إعتبار أن ذلك الشيء عند غيرهم هو من حقهم . فمن واجبهم بذل كل وسيلة ، والتحايل ، بشتى سبل المكر والغش والخداع ، والكذب حتى يحصلوا على ذلك الشيء ؛ بل ويعتبر في نظرهم ، استعادة حق لهم كان لدى الغير . وهذه عندهم تعتبر من الأمور التي يتفاخرون بها فيما بينهم ، وإنها من الأعمال التي تشير إلى المرء منهم على أنه ماهر ، وحاذق ، وذو دهاء وتبصر في معالجة الأمور ، حتى يستعيد ذلك الشيء من غير أمم المغول . ففي نظرهم أن المغول خلقوا لزعامة العالم وحكمه ، وأن العالم خلق ليسمع ويطيع ، هذه نظرتهم ؛ وربما أنها غابت على صاحبنا الأوربي «جون» .

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol..'', P: 16.

٣ - الحياة الأسرية في المجتمع المغولي :

ركزنا حديثنا ، فيما مضى ، على الحياة الأسرية داخل المجتمع المغولي بصورة أساسية على ماكان يحدث في داخل المجتمع الذي ينحدر منه جنكيزخان ؛ وذلك لأن ماكان يطبق في هذا المجتمع أصبح شائعاً ، أو هو عينه ؛ ويطبق تقريباً في كافة المجتمعات القبلية الأخرى ، في الأراضي المغولية الشاسعة الأرجاء . وقد كان القانون ، والنظام ، والكيفية التي تسير بها حياة فئة معينة منهم ، صورة طبق الأصل لكافة القبائل المغولية الأخرى في مختلف بطونها وفخوذها . لذلك نجد أنه بعد أن جاء جنكيزخان على مسرح أحداث التاريخ الوطني المغولي ، ووحد قبائل المغول وشعوبه ، تحت رئاسته الفردية ، وزعامة قبيلته في مجموعها ، أصبح نظامها هو الشائع في الحياة الاجتماعية والأسرية هناك . لذا فسوف نتناول ، في هذا الجزء من دراستنا هذه ، مسألة الزواج ، وطرقه ، كأول لبنة من لبنات البناء الاجتماعي ، لأنه مجتمع من مجتمعات الدنيا .

(أ) الزواج في المجتمع المغولي وطرقه :

إن المجتمع المغولي لا يختلف عن غيره من بقية المجتمعات البشرية ، في نواته الصغيرة التي يبدأ تكوينه منها ، أي من الرجل والمرأة ؛ وبطبيعة الحال هذه النواة تبدأ بالزواج بين هذين المخلوقين ، اللذان جعلهما الله أكرم مخلوقين على وجه الأرض ؛ ومصداق ذلك قوله تعالى : «لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم»[١] .

يعتبر ابن الأثير ، حسب معلوماتنا ، أول مؤرخ من المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن المغول ، وتطرق إلى هذا الموضوع ، والكيفية التي يتم بها عند هذا النوع من البشر . وفيما يتعلق بهذه الناحية ، يقول هذا المصنف عن الزواج في داخل المجتمع المغولي : «... ، ولا يعرفون

---

(١) سورة التين ٩٥ ـ آية ٤ .

(يعني المغول) نكاحاً بل المرأة يأتيها غير واحد من الرجال ، فإذا جاء الولد لا يعرف آباه ..»[1] .

ومع ذلك ، فلو رجعنا إلى المراجع الأولى للتاريخ المغولي لوجدنا أن ما كتب في هذا الشأن يختلف تماماً عما أورده مؤرخنا ، ابن الأثير ، ولوجدنا أن المعلومات التي أوردها أبن الأثير عن المغول في هذا الشأن لم تكن دقيقة ، ولا يمكن أخذها دون تمحيص ، لأنه – يرحمه الله – وكما نعرف كان يدون معلوماته عنهم ممن سمع ، وليس عمن شاهدهم بعينيه[2] .

فالمغول ، مثلهم في هذه الظاهرة الاجتماعية مثل غيرهم من الشعوب والأمم ، يتقدم المرء منهم إلى شخص آخر ، يخطب له أو لابنه أو لأخيه ، فيطلب منه ابنته أو أخته ، أو أية قريبة كانت ، مادام هو ولي أمرها . وفي مقابل ذلك ، نجد أن الرجل الخاطب لابد أن يقدم صداقاً ، ليتم به الزواج من المخطوبة . ولعل أكبر دليل نورده هنا حادثة خطوبة «تيموجين» وهو الذي عرف في التاريخ بـ «جنكيزخان» على إحدى الفتيات المغوليات .

يحدثنا صاحب كتاب «يوان تشئوبي ـ شيه» أي التاريخ ، أو تاريخ المغول السري ، وهو كاتب مغولي معاصر مجهول ، بأنه عندما بلغ «تيموجين» سن الثامنة ، إصطحبه والده «يَسُوَكَاي» في سفرة له خصصت للبحث عن زوجة المستقبل لابنه . ومن الأشياء المتعارف عليها غالباً عند المغول أن الرجل منهم لا يخطب أية ابنه له أو لابنه من قريباته ، بل لا يحبذ الزواجِ من ابنة أي فرد من نفس فخذ القبيلة التي ينتمي هو إليها . إذ إنه غالباً ما يبحث الآباء عن زوجات لأبنائهم من بنات القبيلة

---

(١) ابن الأثير ، عزالدين أبو الحسن علي ، «الكامل في التاريخ» : جـ٩/ص : ٣٦٠ .

(٢) أنظر ماقلناه في هذا الخصوص في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٢٨ – ٢٩ .

التي كان قد تزوج منها نفس الأب ، أي من قبيلة أم الولد . فهذا «يَسُوْكَاي بهادر» يذهب بإبنه إلى قبيلة «الخونوئوت»[1] ، وهي القبيلة التي ترجع إليها أم جنكيزخان «هوئلون»[2] . ولكنه في أثناء الطريق ، إلى وجهته ، تقابل مع رجل يدعى «دِي - ستشن» من قبيلة «أُنكُجُرَات»[3] . وبعد أن سأله عن وجهته ، والغرض من سفره ، ورأى «تيموجين» الصغير ، ادعى الرجل بأنه رأى رؤيا في المنام الليلة الماضية أن عقاباً هبط على إحدى يديه ، وهو يحمل الشمس والقمر بين مخلبيه ، فأخبر «يَسُوْكَاي» أن رؤية الشمس والقمر ليست مسألة عادية ، بل إن ذلك هو بشير خير[4] . وادعى الرجل أن مجيء «يَسُوْكَاي» ومعه أبنه هو إجابة لحلمه ذاك . فإستدعى الأب وابنه ليصحباه إلى بيته علَّ إبنته الصغيرة «بُرْتِهْ» (حيث كانت تلك الصبية تبلغ من العمر حوالي التاسعة أو العاشرة وقيل إن عمرها كان إحدى عشرة سنة) تحوز على رضى الأب وهوىٰ الابن .

قَبِلَ «يَسُوْكَاي» الفكرة ، وذهب مع ضيفه . وبعد أن رأى «بُرْته» أُعجب بها الأب والابن معاً ، لما كانت عليه من جمال ؛ فقبل «يَسُوْكَاي» أن تكون زوجة لابنه ، وخطبها لها ، بشكل رسمي . وهنا قدم إلى أبي «بُرْتِه» واحداً من خيوله التي كان يركبها في أثناء سفرته تلك ، هدية ،

---

(١) حسب ماورد في تاريخ المغول السري ، الترجمة الانجليزية ، ص : ٢٢٤ . وقد وردت في كتاب «جامع التواريخ» لرشيد الدين ، جـ١/ص : ٢٣٣ «أو لقونوت» .

(٢) «هوآلون أوجين» في «تاريخ سري مغولان» (وهي الترجمة الفارسية التي قامت بها الدكتورة شيريني بياني ، عن ترجمة فرنسية لنفس الكتاب (بل بليوت) طهران ، ١٣٥٠هـ.ش ، ص : ١٤ .

(٣) حسب الترجمة الانجليزية «لتاريخ المغول السري» ، ص : ٢٢٤ ، أما رشيد الدين (جامع التواريخ) جـ١/ص : ٢٣٣ ، فيسمى الرجل «دي نويان» والقبيلة «قنقرات» .

(٤) سيرد معنا فيما بعد ، في قسم الديانة والمعبودات لدى المغول ، أن الشمس والقمر من الأشياء التي يقدسها ويعبدها المغول .

وهي تمثل جزءً من الصداق ، الذي سوف يدفعه ثمناً للعروس[1] .

يحدثنا الراهب «ويليم الربركي» حول هذا الموضوع أيضاً (وهو كما نعرف رجل معاصر ، وعاش مع المغول عدة أشهر ، وكتب لنا ما شاهده هناك من عادات وتقاليد القوم) فيقول بأنه يجب أن نعرف بأنه لا يوجد هناك رجل لديه زوجة ، ما لم يشترها ؛ وهذا يعني أن أولياء أمور البنات يحتفظون ببناتهم حتى سن متأخرة ، إلى أن يبيعونهن (على حد تعبير مبعوث الملك الفرنسي لويس التاسع)[2] .

لعل ذلك السفير الأوربي يقصد هنا أن الآباء يقبضون صداقاً لقاء تزويج بناتهم ، فيتصرفون فيه كيف شاءوا ، فيعتبره «القس ويليم» وهو محق - في إعتقادي - بيعاً ، كما تباع السوائم ، والحاجيات ، والسلع ، ليقبض الأب الثمن ، ليفعل به ما يشاء أو ينفقه كيفما أراد .

ويذكر لنا أيضاً الرحالة الأوربي «ماركوبولو» بأن الزوج يعطي مهراً لمخطوبته؛ ولكنه لا يعطيه إلى والدها، بل يقدمه إلى أم البنت؛ فلا يتم له الزواج ما لم يقدم مهراً لقاء زواجه من أية ابنة يرغبها، لتكون زوجة المستقبل[3] .

كما أن هناك رواية أخرى ، فيما يتعلق بمسألة المهور ، يوردها لنا «فينسنت البيوفيس» ؛ فيقول بأن «التتري» وهو هنا يعني المغول على وجه العموم ، لا يقدم للمرأة صداقها حتى تحمل له ابناً ؛ كما أن المرأة لا تتسلم صداقها من والدها أو من أمها حتى يصبح لديها طفل . كما أن المغول لا يعتبر المرأة زوجة حتى تحمل ، أو تلد له طفلاً . وإذا ثبت انها عاقر ، فإنه قد يتركها[4] .

---

(١) «تاريخ المغول السري» ، الترجمة الانجليزية ، ص.ص : ٢٢٤ - ٢٢٥ ؛ قارن ذلك بما ورد في الترجمة الفارسية ، ص.ص : ١٨ - ١٩ .

(٢) Rubruck, "The Journey..", P: 104.

(٣) Polo., "Description of the World", Vol. I, 170; B. Spuler "History of the Mongols", P: 174.

(٤) W.W.Rockhill, "The Journey of Rubruck", P:55 Preface,& P:77,also Note:3.

عندما يتفق الطرفان، ولي أمر الابن، أو الخاطب، مع ولي أمر الفتاة المخطوبة، فإنه غالباً ما يظل الصهر الجديد في بيت أهل خطيبته لفترة معينة، في أغلب الأحيان تكون سنة؛ لأن هذا التقليد يبدو لنا بأنه كان أمراً شائعاً بين الأمم التركية في مجموعها. فهذا الجويني يحدثنا أن من العادة عند الاتراك أن يظل العريس مع عروسته في بيت أهلها سنة كاملة، تعبيراً عن الاحترام والتقدير له[١]. كما يحدثنا صاحب «تاريخ المغول السري» أنه بعد أن إتفق «يَسُوُكَاي بهادر» مع «دِي ستشن» على زواج «تيموجين» من «بُرْتِه» : ترك «يَسُكَاي بهادر» ولده ليمكث لدى صهره حتى تنقضي فترة الخطوبة، وذلك نزولًا عند رغبة أبي البنت. يقول على لسان أبي «بُرْتِه»: «...، سوف أعطي إبنك (أي ابن يَسُوكَاي- وهو تيموجين» هذه البنت يعني «بُرْتِه» وتستطيع أن تتركه هنا يعيش معي، ليصبح صهري»[٢]. وبعد أن تتم فترة الخطوبة يتبعها حفلة الزفاف.

أما ما يتعلق بحفلات الزفاف ، فإن أبا البنت هو الذي يقوم بترتيب حفلة العرس ؛ حيث يعمل وليمة يحضرها أقرباء الطرفين ؛ بعد ذلك نجد أن من عادتهم ، في ليلة الزفاف ، أن تهرب العروسة من عريسها ، فتلتجيء إلى أحد أقربائها ؛ وبعد أن يعرف الأب أن إبنته قد هربت ، يقف على ملأ من الجميع ، فيقول : «الآن إبنتي هي ملكك ؛ خذها من أي مكان تجدها» . بعدها يذهب العريس ومعه أصدقاؤه للبحث عنها هنا وهناك (حتى يتم العثور عليها ؛ ثم يأخذها ، حتى وإن تطلب ذلك منه استخدام القوة معها ، وعليه أن يحضر بها إلى بيته ، وإن كان ذلك باستعمال العنف[٣] .

---

(١) الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/١٢٤ ؛ الترجمة الانجليزية ، جـ٢/١٩٤ .

(٢) Unknown, "The Secret History of the Mongol,", 225.

(٣) Rubruck, "The Journey..", P: 104.



رسمة لرجل مغولي مسلم من إقليم القفجاق خارجاً للصيد ببازه



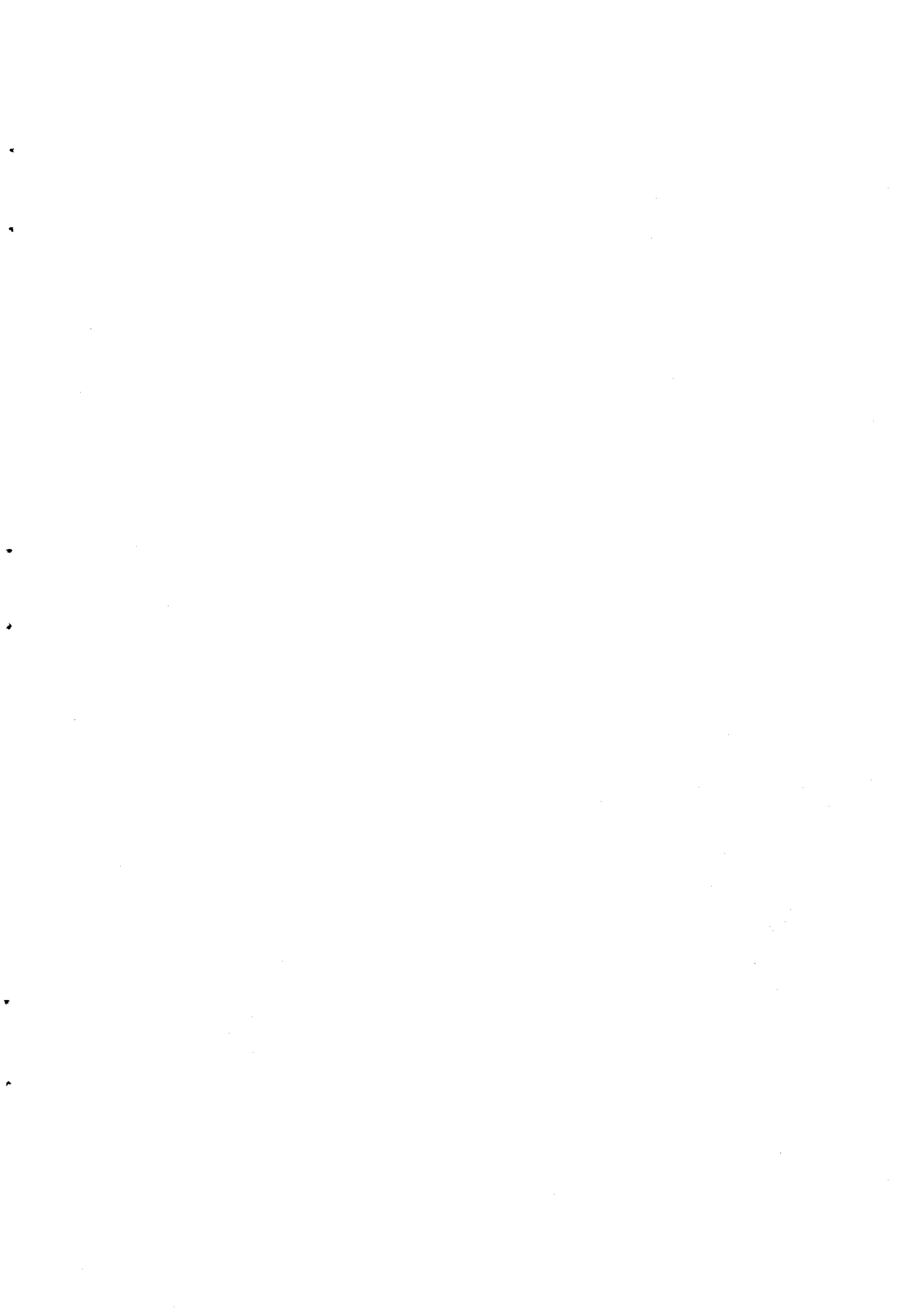
رسمة لرجل مغولي صياد يتأهب لإطلاق سهمه على صيدة تطير في الجو



رسمة لرجل مغولي يحلب فرساً مروضة، فحلب الأفراس من حرفة الرجل التي يعتز بها



رسمة لرجل مغولي من إقليم القفجاق يعالج كمية من حليب الأفراس، حيث يمخضه بعصاة غليظـة، لاستخراج الزبد





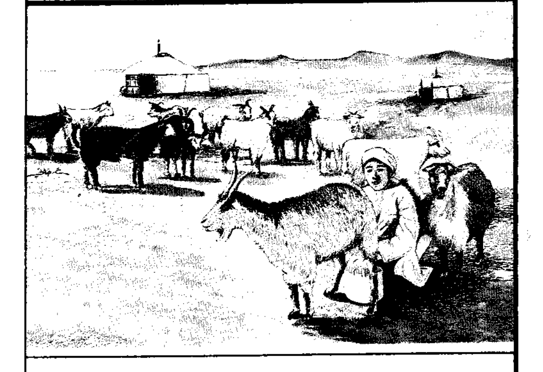
رسمة لرجل مغولي صياد يسدد سهمه المميت على صيد قد اختبأ تحت صخرة



رسمة لفتاة مغولية مسلمة من إقليم القفجاق، وهي تمتطي صهوة جوادها كفارسة مغوارة



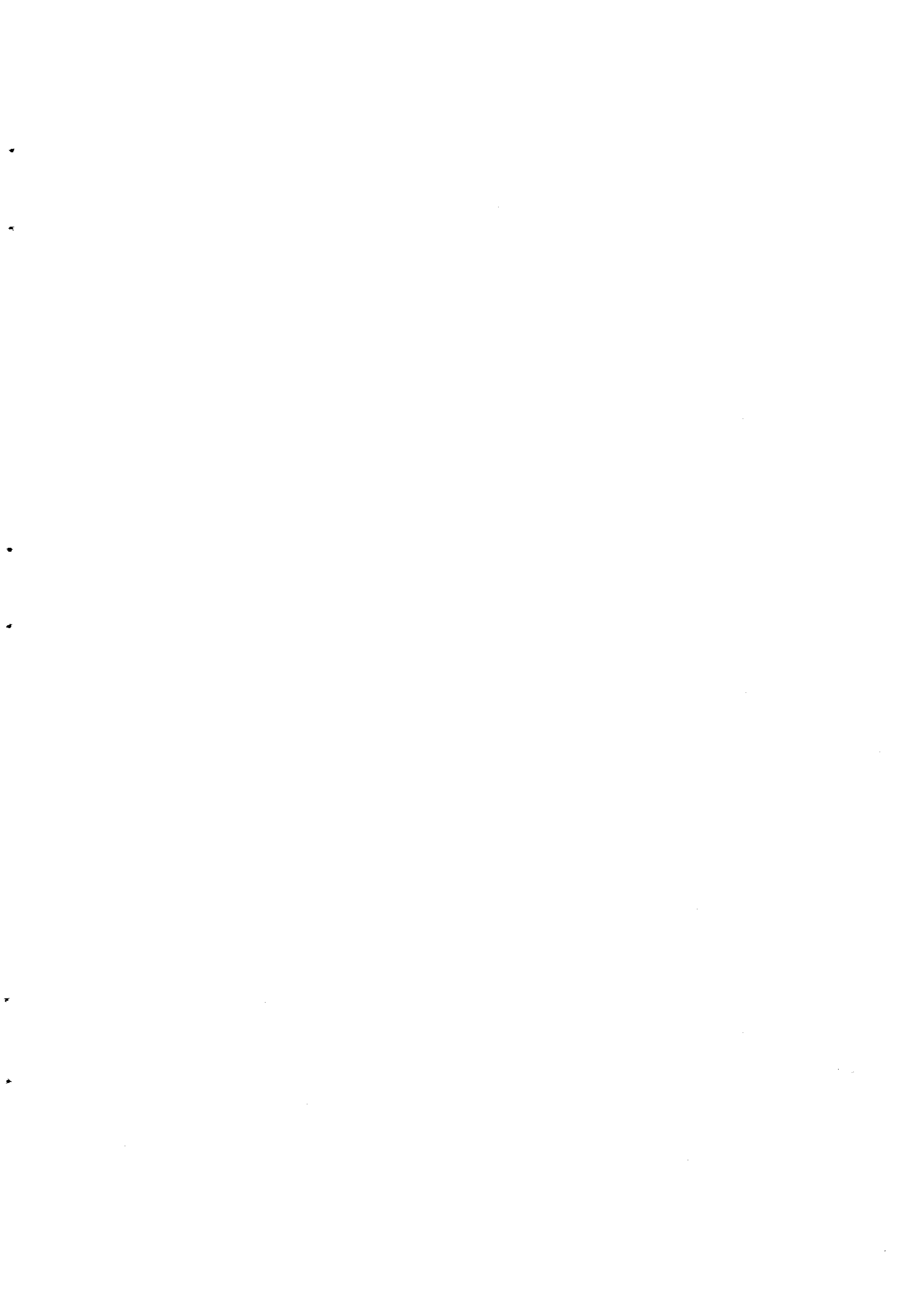
رسمة لسيد مغولي يحلب فرساً جموحاً، لاتجود بدرها للحالب، إلا بالقوة، وقد ربطت على أوتاد أربعة ليتمكن الحالب من الحصول على شيء من حليبها



رسمة لامرأة مغولية تقوم بحلب الماعز، كعمل واحد من عشرات المهام التي تقوم بها المرأة هناك



رسمة لامرأتين مغوليتين مسلمتين من إقليم القفجاق، في طريقهما لشراء حاجيات لأسرتيهما، لما للمرأة من مهارة وحذق في البيع والشراء، ورعاية شئون الأسرة

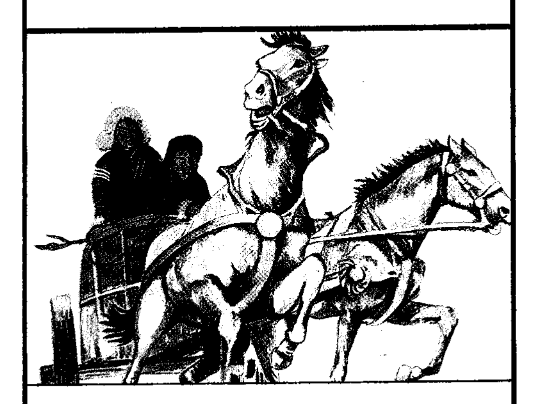




رسمة لنساء مغوليات مسلمات من إقليم القفجاق منهمكات في أداء بعض الواجبات اليومية وقد ظهرن هنا يقمن بتحميل العربات ببعض الأغراض والحاجيات



امرأتان مغوليتان أثناء وضع الأثقال على الجمال، استعداداً للسفر



المرأة المغولية بارعة في قيادة العربات وتسيير دفة القافلة

أورد لنا «روكهل» نقلاً عن «كلارك – Clark» أن من عادة قبائل القلمقي (وهي إحدى القبائل الآسيوية) أن تمتطي الفتاة جواداً لها ، فينطلق بها بأقصى سرعته ، ثم ينطلق الخاطب ، راكباً جواده وراءها ، فإن سبقها تصبح زوجة له[1] .

بالاضافة إلى طريقة الحصول على زوجة المستقبل عن طريق خطبتها من أهلها ، كتلك التي شرحناها أعلاه ، فإن هناك طريقة أخرى غيرها . هذه الطريقة هي خطف النساء ، وخاصة النساء اللاواتي لم يكن لهن أطفال ، أو كُن متزوجات حديثاً . فهذه العادة منتشرة في الأوساط الاجتماعية المغولية ، على الأقل حتى قبيل ظهور جنكيزخان على مسرح أحداث منغوليا ، كرجلها الأول . إذ أنه ما إن يشعر الرجل أن بإستطاعته إختطاف إمرأة رجل ما حتى يقدم على ذلك دون تردد ، أو وجل ؛ حيث لم يكن هناك عقاب إجتماعي في حق الخاطف ؛ وغالباً ما تجري هذه العادة في الفترة التي تلي الزواج مباشرة . فإن نجح في عمله ذلك أخذ المرأة المختطفة معه إلى بيته ؛ وفي هذه الحالة تصبح زوجة له ، وربما تكون أماً لأبناء يصبح لهم ذِكرٌ عظيم في التاريخ ، كما سنذكر بعد قليل .

لعل قصة «يَسُوْكَاي بهادر» والد جنكيزخان ، ومسألة إختطاف «هوئلون» ، التي أصبحت أماً لذلك الخان العظيم الذي بنى أكبر إمبراطورية عرفتها البشرية في أقصر مدة ، خير مثل نسوقه هنا . وحول هذه المسألة يحدثنا صاحب «تاريخ المغول السري» أنه في ذات يوم كان «يَسُوْكَاي بهادر» وحده في رحلة صيد بصقوره على ضفاف «نهر أونون» . وهناك شاهد رجلاً من قبيلة المركيت[2] ، ومعه عروسته[3] ، التي تزوجها ، وبنى بها حديثاً ، وقد كان عائداً بها في طريقه إلى بيته ،

---

(١) Ibid, Rockhills Edition, P: 78, Note: 2.

(٢) اسم الرجل المركيتي «يك – تِشِلِدُو» .

(٣) هي «هوئلون» من قبيلة «الخونوت» أو «أولقونوت» كما فيالترجمة الفارسية ، ص ١٤ .

كما رأى بأنها كانت على جانب كبير من الجمال؛ فرغب أن تكون زوجة له، ومع ذلك وجد بأنه لم يكن في مقدرته القيام بإختطافها بنفسه، بعد أن يتغلب على زوجها المركيتي. لذلك عاد «يَسُوْكَاي» مسرعاً إلى منزله، وإستنجد بأخوين له[١]، ليعيناه على تنفيذ هذا العمل. وهنا هَبَّا لمساعدة أخيهما على ذلك الرجل المركيتي، الذي حين رآهم أوجس في نفسه خيفة، وتوقع الشر منهم، فخاف على نفسه أن يُقْتَل وعلى عروسته أن يختطفوها منه. فلما شاهدت عروسته حالته، وما كان عليه من الخوف رثت لوضعه، وهنا خلعت قميصها وأعطته لعريسها للذكرى، ونصحته بأن يهرب لينجو بجلده، ويتركها؛ فإن وجدها فيما بعد فستكون زوجته، وإن لم يتم ذلك الأمر فليتزوج بإمرأة أخرى، وليدعها بإسمها «هوئلون».

أصبح «يَسُوْكَاي» وأخواه على مقربة من المركيتي وزوجته، وهنا إمتطى الرجل صهوة جواده، والهب جلده بالسوط ليسرع به، لئلا يتمكنوا من اللحاق به، فيقتلوه. وعلى الرغم من إنهم فعلاً حاولوا ذلك للقبض عليه وقتله، إلا إنه إستطاع أن ينجو منهم، ويهرب إلى قومه.

عاد «يَسُوْكَاي» ومعه أخواه، إلى حيث كانت عربة «هوئلون» التي كانت هي بداخلها ترتعد خوفاً، فأصطحبوها إلى المكان الذي يسكنه «يَسُوْكَاي» وقبيلته؛ وأصبحت زوجة له. وقد أنجبت له أربعة أولاد، (هم: تيموجين– وقد عرف فيما بعد بـ «جنكيزخان» و «خَسَر»، أو «قسار» و «ختشيئون» و «تيموج»، وأبنة واحدة تدعى «تيمولون»[٢].

لم ينس رجال «المركيت» مسألة إختطاف «هوئلون». لذلك نجد رجالهم، بعد أن أعلموا بأن «تيموجين بن يَسُوْكَاي» قد تزوج الفتاة التي كان قد خطبها له والده قبيل وفاته، وإنها قد أصبحت تعيش معه،

---

(١) هما «يكون» (وهو الأكبر) و «داريتاي» وهو الأصغر من الأول.

(٢) "The Secret History of The Mongol", 222-3, also الترجمة الفارسية «تاريخ سري مغولان»، ٢٠٣ – ٢٠٩. حيث يذكر بأن «هوئلون» لم تلد إلا أبناء، وهم الأربعة «تيموجين» و «جوجي قسار» و «قاجيون» و «تموكه أو تمكين» ولم يكن لها بنت.

يقومون بالهجوم عليه، وهو آمن في مضارب خيامه، ثم يختطفون عروسته «بُرْتِه». ومن ثم تصبح زوجة لأحد رجالهم، «تشيلدو» وهو أخ أصغر للمصارع «تِشِلِكَر»، والذي كان في الأصل خطيب «هوئلون» أم جنكيزخان. وقد قالوا، وهم يسيرون بـ «بُرْتِه» إلى مساكنهم، لقد أخذنا بثأرنا من «يَسُوْكَاي»، عندما إختطف «هوئلون» زوجة «تشيلدو»[1] .

هناك روايات تذكر بأن عادة إختطاف المخطوبات ، ليكن زوجات لرجال آخرين قاموا بإختطافهن ، ماتزال سارية المفعول في إقليم التركستان ، الذي أصبح في الوقت الحاضر تحت حكم جمهورية الصين الشيوعية . وتبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحاً بين قبائل «الكزك»[2] .

أما الطريقة الثالثة ، للحصول على زوجة ، فهي منتشرة بين قبائل أواسط قارة آسيا عامة ، وقبائل «الاويغوريين» خاصة ؛ وهذه العادة تنطبق على هذه النوعية من القبائل المسالمة ، التي لا تحبذ العنف . وملخص هذه العادة ، هو أن يأتي الرجل الخاطب ، ومعه مايملكه من المواشي ، والخيول ، إلى مضارب خيام الذين يريد أن يتزوج من إحدى بنات رجالهم . ثم يختار البنت التي تستطيع أن تمتطي صهوة الجواد ، وتظل متمكنة منه رغم محاولات الخاطب أن يلقي بها جوادها على الأرض . بعدها يتقدم الرجل بصفة رسمية إلى أهل البنت ويخطبها فتكون زوجة له .

بالاضافة إلى ذلك ، فهناك عادة أخرى متبعة ، ليحصل الرجل على شريكة حياته ، أكثر سلمياً من سابقتها . وتتلخص هذه العادة ، أن الرجل يذهب إلى أسرة الفتاة ، التي يرغب الزواج منها ، فيتفق معهم على الزواج من إبنتهم تلك . وفي مقابل ذلك يقوم هو بالعمل لدى هذه الأسرة ، فيخدمهم لمدة معينة ، غالباً ما تكون ثلاث سنوات . وبعد

---

(١) "The Secret History of the Mongol", 236-41. كذلك كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٦١ – ٦٢ .

(٢) Rubruck, "The Journey" Rockhills Edition, 78-9.

إنقضاء الأجل المقرر ، تقدم الأسرة جزءً من ممتلكاتها إلى البنت التي أُختيرت أن تكون زوجة لذلك الرجل الخاطب ؛ ثم يرحل عنهم بزوجته إلى مضارب خيامه ، على نغم الموسيقى ، وضرب الطبول ، والرقص والزغاريد . إن هذه الطريقة هي نفس الطريقة التي تمت بين شُعيب وموسى (عليهما السلام) ، حيث إستأجر شُعيبُ نبيَ الله موسى ثمان أو عشر سنوات ، وذلك لقاء تزويجه إحدى ابنتيه ، وهذا ما ورد نصه في القرآن الكريم[1] .

أما إذا مات الرجل فإن المرأة لا تتزوج بعده، على إعتبار إنها ستكون زوجته في الحياة الثانية، وإنها، إن هي تزوجت زوجاً ثانياً، ستترك كل من يتزوج بها بعد وفاته ووفاتها هي، وتذهب إلى زوجها الأول؛ فيعتقدون بأنها تقوم بخدمته، وتكون زوجة له، كما كانت في حياته الدنيوية[2] .

(ب) الزواج من زوجات الآباء المتوفين :

هناك عادة متبعة لدى المجتمع المغولي ، وهي زواج الأبناء من زوجات الآباء المتوفين ، حيث يحدثنا في هذا الموضوع «جون البلانو الكربيني» ، كنوع آخر من الأنواع التي يحصل بها الرجل على زوجة ، أو زوجات في

---

(١) قال تعالى : ﴿قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ، قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على مانقول وكيل . فلما قضى موسى الأجل ... الآية﴾ سورة القصص - ٢٨ ، الآية ٢٧ - ٢٩ . وقد قضى موسى ، عليه السلام ، المدة كاملة وهي عشر سنوات ، كما ذكر ذلك محمد ، سيد البشر ، ﷺ ، عندما سئل أي الأجلين قضى قال : «أكملهما وأفضلهما» أنظر : قطب ، سيد ، «في ظلال القرآن» دار الشروق ، جـ٥/٢٦٨٩ ؛ «النبوة والأنبياء» محمد علي الصابوني ، ١٣٩٠هـ ، ص : ١٧٥ .

(٢) لمعلومات أكثر تفصيلاً عن هذه العادات والتقاليد المتبعة في مجتمع المغول ، وقبائل وسط آسيا أنظر : Rubruck, "The Journey.." Rockhill's Edition, 78-9, & Note: 2; Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, 170: also, B. Spuler, History of the Mongol", 174.

آن واحد ؛ فيقدم الرجل على التزوج من زوجات والده ، بل ومن ذوات الأرحام ، ماعدا أمه وأخته من الأبوين وبناته[1] . أما مسألة زواج الأبن من نساء والده ، فهي نوع من الإرث ، إن صح لنا هذا التعبير . وهناك أسباب أخرى وإعتقادات لدى المغول تُوجِبُ وهذا النوع من الزواج ، وخاصة فيما يتعلق بإعتقادات المغول في الحياة الثانية ، إذ أن الرجل عندما يتوفى ، ويترك وراءه زوجات له ، فإنه لا يتقدم أي رجل ليخطبهن ، والسبب – كما قلنا ، هو الاعتقاد الشائع لدى المجتمع المغولي أن الزوجات يرجعن إلى أزواجهن السابقين بعد الوفاة ، ويتركن الرجال الذين تزوجوا بهن بعدهم . لذلك يتزوج الأبن من زوجات والده ، لأنه لا يشعر بالحيف ، أو بأنه قد أُهين ، أو أن هناك ضرر سيحصل له بعد وفاته ، عندما تعود زوجة والده إليه بعد وفاتها ، إن كان قد تزوج بها أو بِهن من بعده ، ويبدو لنا أن هذا النوع من العمل يعتبر وفاءً يقوم به الأبناء تجاه نساء آبائهم ، كنوع من الحفاظ على محارمهم .

لذلك ، فإنه كما يبدو لنا بأن الغرض الأساسي ديني ، أو إجتماعي ديني في آن واحد بالدرجة الأولى ؛ إضافة إلى أنه غرض إقتصادي بالنسبة للمرأة والرجل من ناحية ثانية . فالمرأة تنتقل بما تملكه إلى أبن زوجها ، كما إنه كان لابد من حام وراع يقوم على رعاية شؤونها ؛ ويسد الفراغ الذي تركته وفاة زوجها الأول . فكان أولى الناس (من وجهة نظرهم على ما يظهر لنا) بأن يقوم بهذا العمل هو أبن زوجها المتوفى . وبالاضافة إلى ذلك ، فإن المرأة الأيم كانت تعتبر وجودها كزوجة مع أبن زوجها ، هو غرض وقتي فقط يزول بوفاتها ، إذ أن بقاءها زوجة لأبن زوجها الحقيقي محدد بفترة قصيرة هي من وقت وفاة زوجها الأول والحقيقي وزواجها بأبنه ، وحتى وفاتها هي . فكانت المرأة تعتقد بأنها لن تكون زوجة في

---

(١) هذا يعني أن الرجل يمكنه ، على مايبدو لنا ـ وحسب ما يظهر من هذه الرواية ، أن يتزوج من إخواته اللاتي لسن من أمه ، بل من أم ثانية ، هي تحت أبيه .

الحياة الثانية إلا لزوجها الأول ، وإنها ستذهب إليه ، وتقوم على خدمته كما كانت تفعل أثناء حياتها الدنيوية .

(جـ) تعدد الزوجات :

يقوم المجتمع المغولي على مبدأ تعدد الزوجات ، بل وبأعداد كبيرة جداً ، حتى إن المرء لا يكاد يصدق ما يقرأ فيما كُتِبَ في هذا الشأن . فيحدثنا الرحالة الأوربي «جون» حول مايمكن للرجل المغولي أن يمتلك من النساء ، فيقول بأن الواحد منهم يستطيع أن يمتلك أي عدد من النساء ، طالما بإستطاعته أن يعولهن فقد يكون في حوزة الفرد الواحد منهم مائة ، وآخر خمسون ، وثالث عشر نساء ، وغيرهم أكثر أو أقل[1] .

رغم تعدد زوجات الرجل منهم بهذه الكثرة ، فإن هناك حقيقة واحدة ، وهي أنه مهما إمتلك الرجل المغولي من النساء ، فإن المرتبة الأولى ، والمكانة المرموقة ، تبقى على الدوام للزوجة الأولى ؛ كما أن أبناءها هم الأبناء الذين يعتبرون أصحاب الكلمة الأولى والصدارة في المجتمع المغولي من بين أبناء بقية الزوجات ، وهم أصحاب الأولوية في التملك ، ووراثة الوالد . ثم يلي الزوجة الأولى وأبناءها الزوجة الثانية وأبناؤها ، فالثالثة وأبناؤها ، هكذا . فإذا ماتوفي الرجل فإن المرأة الكبرى تحتل مكانة زوجها ، حيث تتولى رعاية شؤون الأسرة ، أو العشيرة (إن كان زوجها كبير قومه) ، أو حتى إدارة شؤون الامبراطورية ، في كافة مرافقها ، وخاصة ما يتعلق بالنواحي العسكرية ، إلى حين يُبَتُّ في أمر تنصيب خانٍ جديد على العرش ، أو حتى يكبر الأبناء ، في حالة وفاة كبير أسرة أو شيخ عشيرة ؛ ويصبحون في مركز قوي . فتؤول الأمور إلى كبيرهم أحياناً ، ولو أن تقاليد وعادات المغول تقضي بأن يتولى الأمر

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol'' Ed., Dawson, P: 7 also Marco Polo, ''Description of the World'', Vol. I, 170; B. Spuler, ''History of the Mongol'', 174.

بعد الأب المتوفى الأبن الأصغر من أبناء الزوجة الكبرى . أما الأمر على مستوى الامبراطورية ، فقد تتولى الزوجة الأولى وهي الكبرى ، مكان زوجها حتى يبت في مسألة تنصيب إمبراطور جديد ، أو خان ، مكان الرجل المتوفى ، في إجتماع عام وهو مايسمى عندهم «قوريلتاي» لكبار أمراء الأسرة الحاكمة وكبار رجال القوم ، من القادة العسكريين ، على وجه الخصوص . بعدها ينصب الأبن المناسب في منصب أبيه . لذلك ، فإن تاريخ المغول مليء بهذا النوع من الوصاية ، التي يقمن بها النساء اللائي يتوفى أزواجهن هنا ، فقد رأيت من الأنسب أن أورد هنا مثالاً ، وهو «قصة زوجة يَسُوْكَاي بعد وفاته» . فقد تولت «هوئلون» إدارة شؤون أسرتها وعشيرتها بعد وفاة زوجها «يَسُوْكَاي» ولولا التنافس القبلي لظلت رئيسة قومها حتى يكبر إبنها «تيموجين» جنكيزخان . ثم بعد أن توفي «الخان المغولي أكتاي» نجد أن زوجته الكبرى «تُرَاكِينَا خاتون» تتولى أمر إدارة شؤون الامبراطورية المغولية لفترة تقرب من ست سنوات ، حتى إجتمع كبار الأسرة والقادة وإنتخبوا «كويوك» خاناً جديداً . كذلك نجد أن الأمور تصبح في يدي زوجة الأخير «أوغول – غايميش» بصفتها كانت هي الزوجة الكبرى للخان المتوفى . وقد ظلت أمور الدولة تحت إدارة هذه الملكة لمدة ثلاث سنوات ونصف ، حتى إجتمع كبار الأسرة والقادة ، وتم تنصيب «منكَوقاآن» الخان الجديد خلفاً للمتوفى . كذلك نجد أن إمبراطورية جنكيزخان ، التي بناها لنفسه ، تقسم بصفة أساسية بين أبناء زوجته الأولى «بُرْتِه» وهم : «جوتشي» و «تشغتاى» و «تولي» . فيعطي كل واحد من هؤلاء جزء من الممتلكات الواسعة التي خلفها والدهم ، بينما لم يرد أن بقية أبناء «جنكيزخان» من الزوجات الأخريات كانوا قد حصلوا على شيء من ذلك رغم كثرتهم . وإن حصل أحدهم على شيء فقد يكون شيئاً

بسيطاً جداً لا يذكر ، رغم ضخامة التركة[1] .

أما علاقة الرجل بزوجاته ، فهي علاقة ممتازة ، يسودها التعاون والتكاتف الأسَري ؛ ويقضي الرجل مع كل زوجة من زوجاته يوماً كاملاً ، يأكل ويشرب ، وينام . إلا أنه مع ذلك ، كان يقضي وقتاً أطول مع زوجته الأولى ، أكثر مما يقضيه مع إحدى زوجاته الأخريات . إذا كان هناك إجتماع عائلي ، أو تجمع بين أفراد الأسرة المغولية ، لأية مناسبة ، حتى لو كان لمجرد الاجتماع ذاته ، وغالباً ما يكون للشراب ، فإنه يتم في منزل الزوجة التي يكون عندها في ذلك اليوم . فيجتمع النساء الأخريات مع زوجهن في منزل تلك الزوجة ؛ وتجلس صاحبة المنزل إلى جانب زوجها ، ثم الأخريات ، حسب درجاتهن . ويذكر «جون الكربيني» بأنه على الرغم من كثرة الزوجات ، فإنهن لا يتشاجرن قط ؛ وإن حصل هذا فلا يقع إلا في حالات شاذة ، ونادرة جداً[2] .

(د) الزواج بين الأطفال المتوفين :

هناك نوع آخر من الزواج ، يعتقد المغول بوجوده ؛ وهو الزواج بين الأطفال الذين يتوفون قبل زواجهم . وحول هذا الموضوع يحدثنا «ماركو بولو» قائلاً بأن الإعتقاد السائد ، بين أفراد المجتمع المغولي ، أنه

---

(١) لمعلومات إضافية عن أمثلة من هذا النوع راجع كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ١٥٧ – ١٦٠ . ثم ما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر ومراجع في هذا الخصوص . ولعل أهمها : «جامع التواريخ» للعلامة رشيد الدين ، جـ١/٥٥٦ وبعدها ؛ «جهانكشاي» لعطاء ملك الجويني ، جـ١/١١٧ ، ١٩٥ – ٢٠١ وترجمته الانجليزية ، جـ١/٢٦٢ ، ٢١٩ – ٢٤٢ ؛ ثم بناكتي ، فخر الدين أبو سليمان ، في مصنفه «تاريخ بناكتي» ، تحقيق جعفر شعّار ، طهران ، ١٣٤٨هـ .ش ، ص : ٣٩٣ راجع كذلك : Rubruck, "The Journey" Ed., Dawson, P: 203.

(٢) Carpini, "History of the Mongol," Ed. Dawson, PP: 17-18; Marco Polo, "Description of the World", Vol. I, 170; B. Spuler, "History of the Mongol", 74.

يتم زواج بين الأطفال (بنين وبنات) الذين يموتون قبل أن يتزوجون ؛ وهنا يقوم الرجل ، الذي يكون قد توفي له ولد قبل أن يتزوج ويكون قد بلغ سن الزواج لو كان حياً ، بالبحث عن رجل آخر يكون هو أيضاً قد ماتت له أبنة قبل أن تتزوج ، ويكون سنها مقارباً لسن الولد . ويتفق الرجلان فيما بينهما على الخطوبة ، والمهر ووقت الزواج ، بحيث يراعون السن المناسب لزواج الطفلين ، لو كانا على قيد الحياة . بعدها تسرع الأسرتان في تهيئة مراسم الزواج ؛ فيعقدون القران بين الولد والبنت غيابياً ، ويعملون بذلك وثيقة مكتوبة تتعلق بالصداق ، والزواج بينهما[1] . ثم يحرقون تلك الوثيقة بالنار ، وهم يقولون - أثناء تصاعد دخانها من أثر إحتراقها - بأن ذلك الدخان ذاهب إلى العريسين في العالم الآخر ، وهناك يتم إعلان الخطوبة بينهما ؛ وبعد ذلك يصبح الولد والبنت زوجاً وزوجة في عالمهم الثاني .

بعد الانتهاء من تلك الترتيبات، يقوم الأهل بعمل وليمة عرس كبيرة؛ فينثرون شيئاً من ذلك الطعام هنا وهناك، ويقولون بأنه الحصة المخصصة لإطعام ذلك العريس وتلك العروسة. ثم يصنعون لهما تمثالين، فيضعون تمثال الولد أمام أقرانه من الشباب، وتمثال البنت أمام قريناتها الفتيات، حيث قد إجتمعوا لحضور الوليمة المخصصة لمناسبة عُرسهما. ثم يوضع التمثالان في عربة مزينة بأقصى ما يستطاع، ويدورون بتلك العربة، التي تجرها الخيول، في الحي، في احتفال بهيج، وسرور عظيم. ثم بعد ذلك يحرقون التمثالين، وهم يدعون ويضرعون في الدعاء إلى الآلهة، بأن تجعل أمر ذلك الزواج مسألة معروفة على ملأ في العالم الآخر، وأن يجعلوه زواجاً سعيداً[2] .

---

(١) يبدو أن مسألة كتابة وثيقة بهذا الخصوص مسألة حديثة ، بعد أن غزا المغول أمماً متعلمة ، وعرفوا عنهم القراءة والكتابة ، وخاصة من «الاويغوريين» لأن المغول لم يكونوا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة حتى إنفتحوا على العالم .

(٢) Marco Polo, ''Description of the World'', Vol.I PP:175-6; B. Spuler, ''History of the Mongol'', P:178.

بالاضافة إلى ذلك ، فإنهم يصبغون بطاقة فيها رسمة لصورة رجال في هيئة خدم وعبيد ؛ وكذلك رسوم لخيول ، وأفراس ، وحيوانات أخرى ؛ وكذلك ملابس من شتى الأنواع ؛ وأنواعاً أخرى من الأثاث المختلفة والأمتعة الأخرى ، والوسائل التي ينتفع بها في الحياة الدنيا ، كل هذه الأشياء – والتي تمثل صداق الزواج – يحرقونها ، ويقولون بأن تلك الأشياء يحتاجها العروسان في حياتهما الآخرة[1] .

بعد ذلك نجد أن أفراد العائلتين ، آباء وأمهات ، إخوان وأخوات ، يصبحون أقرباء؛ ويحافظون على تلك العلاقة والقرابة الأسرية طوال حياة أفراد العائلتين ، كما لو كان ذلك الزواج قد تم في حياتيهما ، وأُحتُفِلَ به حقيقة قبل موت الإبن والبنت[2] .

٤ – حرفة الرجل في المجتمع المغولي :

إن كلام «جون الكربيني» عن الرجل المغولي ، ليس صدقاً كله ، من أن الرجل هناك لا يعمل شيئاً على الاطلاق ؛ ولو أن العمل الذي يقوم به الرجل لا يقاس بما تقوم به المرأة في خدمة أسرتها ومجتمعها . فالرجل يبدو أنه خصص لنفسه أعمالاً معينة يقوم بها عندما يترك نساءه ينجزن بقية الأعمال . فهو قد حصر نفسه في مهنتين رئيستين ، ولو أنه يقوم بأعمال جانبية إلى جانب تينك المهنتين . وهاتان الحرفتان هما الصيد والحرب ؛ فهو يصنع الأقواس ، ويعمل السهام ؛ كما يصنع الركاب ، واللجام ، والسرج ، وأدوات الحرب ، كالسيف والحربة وغيرهما مما يتعلق بهذه المهمة . ومع ذلك ، فإنه يتوفر لدى الرجل وقت كبير وكافٍ ، فوق ما يقضيه في إنجاز تلك الأعمال . لذلك نجد الرجل يشارك المرأة في إقامة وبناء المنازل (الخيام) على العربات الخاصة بها ؛ كما يقوم أيضاً برعي الجياد والأفراس . ونظراً لحب الفرد المغولي وتعلقه بهذا النوع من الحيوان ،

---

(١) Ibid. The same Works and Pages.

(٢) Ibid. The same works and Pages.

فإنه – على مايدو لنا – قد خص نفسه بالقيام برعايتها ، والعناية بها ، بل وجعل من مهامه الرئيسة ، في هذا الميدان ، حلب وصرب الأفراس، وأيضاً يصنع سقاء حليبها ويمخض لبنها وما يستخرج منه .

كما يشارك الرجل – في أحيان كثيرة – المرأة في تحميل الجمال عند شد الرحال ، ثم تنزيل الأثقال عندما يحط رحاله في المكان الذي ارتضته الأسرة لأقامتها . بالاضافة إلى ذلك نجد إنه يشارك في رعي الأغنام ، والماعز ، ثم حلبها وصربها ؛ فلا فرق بين الرجل والمرأة في أداء هذا النوع من العمل .

مع ذلك ، فإن الرجل لا يستغرق – كما قلنا – وقتاً طويلاً في إنجاز هذه الأعمال المختلفة ؛ إذ أنها في حد ذاتها أعمال وقتية ، أي مرتبطة بوقت معين لتنفيذها . لذلك ، نجد أن الصيد يكاد يحتل معظم وقت الرجل في حياته اليومية . إذ يقوم الرجل المغولي بتقلد قوسه ، ثم يحمل كنانة سهامه ، ويسرح صبيحة يومه ينشد حظه من الصيد .

تتمتع الأراضي المغولية بأنواع شتى من الطيور ، وبوفرة في حيواناتها البرية ، التي تمد الانسان بمعظم قوت يومه ؛ وقد شرحنا ذلك بنوع من الايضاح في مكانه الخاص ، عن الكلام عن الحياة الحيوانية في منغوليا[1] .

ومن المعروف جيداً أن الانسان المغولي ، رجلاً كان أم إمرأة ، لا يفوقه أي إنسان في العالم – على ما أظن – في حُسن إستخدام القوس ، والرمي به ، فيصيب هدفه بدقة متناهية تدعو إلى الذهول . وقد يكون المرء منهم راكباً جواده ، ثم ينطلق به وراء الصيد ، فيطلق سهمه من قوسه ، وجواده ينطلق بأقصى سرعته ، فيصيب هدفه بكل دقة ، وفي عين المكان الذي أراده ذلك الصياد ؛ وفي القليل النادر ما يخطيء الهدف . كما أن الرجل منهم يستطيع أن يصيب هدفه ، وهو ينظر إلى الخلف ، راكباً على جواده وهو يسرع به إلى الأمام .

---

(١) سبق لنا ذلك في كلامنا عن أنواع الطيور في منغوليا .

قد يظن القاريء الكريم أن ذلك من قبيل المبالغة، ولكنها حقيقة أثبتها من شاهدهم بأم عينيه، كالرحالة الأوربيين، والمؤرخين المسلمين ، الذين خدموا في سلك إدارة الامبراطورية المغولية. كيف لا ! والرجل منهم يبدأ في تعلم ركوب الخيل، والتمرس على حسن إستخدام القوس منذ الصغر. فيحدثنا من شاهدهم «جون البلانو الكربيني» بأن المغول الكبار والصغار، يمارسون الرماية وركوب الخيل منذ الصغر؛ حيث يبدأون في تعليم الأطفال على هذين النوعين من أنواع الفروسية ، منذ سن الثانية ، أو الثالثة . فيعلمونهم ركوب الخيل والتعود على الركض به في هذه السن المبكرة من عمره؛ كما يصنع الرجل المغولي لابنه قوساً مناسباً لسن ذلك الطفل؛ يبدأ في تعليمه الرماية به، وكيفية إستخدام سلاحه، ثم كيف يدافع به عن نفسه .

لهذا ، فلا غرابة ، إذاً ، أن نجد المغولي ، صغيراً كان أم كبيراً ، رجلاً كان أم إمرأة ، من طينة ممتازة من حيث الرشاقة والقوة ، وسرعة الحركة ، والجسارة ، والجرأة[1] .

مع ذلك ، فإنه يظهر لنا أن الطفل المغولي لا يستطيع أن يجلب الصيد على مستوى كفاية الأسرة قبل سن الثامنة ، أو التاسعة ، وأحياناً الحادية عشرة من عمره . وذلك مايمكن أن نستنتجه مما رواه لنا في هذا الشأن رشيد الدين ، في كتابه «جامع التواريخ» ؛ حيث يذكر أن حفيدين من أحفاد جنكيزخان جاءا لمقابلة جدهما ، أثناء عودته من حملته العسكرية الغربية ضد الأقطار الأسلامية ، والتي استغرقت قرابة خمس سنوات (٦١٦هـ/١٢١٩م - ٦٢١هـ/١٢٢٤م) ، وهـذان الحفيـدان هما «قبلاي» و «هولاكو» إبنا تولي بن جنكيزخان ؛ وكان الأول يبلغ من العمر الحادية عشرة ، والثاني التاسعة من العمر[2]. وفي مكان ما على

(١) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson P: 18.

(٢) من المعروف أن جنكيزخان قام بحملته العسكرية في التاريخ ، ضد الشرق من العالم الاسلامي ، وقد سبق لنا الكلام عن هذا الموضوع في بحث سابق لنا ، بنوع من التفصيل ، أنظر : «سقوط الدولة العباسية» ، ١٠٩ - ١٣٨ ، ثم «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي» ، ٢١٦ - ٣٠٤ .

حدود الأراضي النيمانية ، أي بين مقاطعتي «سينكيانك» و «كازخستان» الحاليتين[1] . وهناك جرت أول عملية صيد على مستوى الرجال ، لكل من هذين الأميرين الصغيرين . وقد استطاع «هولاكو» وهو ابن التاسعة أن يصيد غزالاً ؛ بينما كان صيد «قبلاي» وهو ابن الحادية عشرة ، أرنباً[2] .

هناك طقوس معينة تجرى إقامتها في المجتمع المغولي ، كغيره من المجتمعات الاخرى ، وهذه الطقوس تجرى كمناسبة تقام لكل صياد مباشرة بعد قتله أول صيد يجلبه . وغالباً ماتكون هذه المناسبة مصحوبة باحتفال ، قد يكبر وقد يصغر ، حسب مكانة الصياد الصغير الاجتماعية ، والتي يستمدها من مكانة أبيه وأسرته ؛ وهذا الاحتفال يستمر لعدة أيام ، وهم في أكل وشراب ؛ ومرح وفرح . وفي أثناء ذلك تجرى تلك الطقوس للصياد الصغير ، إذ يقوم بإدارتها أو الإشراف على تنفيذها أكبر ، بل أمهر ، رجل صياد في القوم ؛ وذلك اعتقاداً منهم بأن الصياد الصغير ستكون له نفس المهارات والخبرات التي يتمتع بها ذلك الصياد الكبير الماهر .

في هذه المناسبة يذكر التقرير أن جنكيزخان نفسه هو الذي أشرف على إجراء تلك الطقوس لحفيديه الصبيين ، «قبلاي» و «هولاكو» . من هذه الطقوس ماترويه مصادر مادتنا ، حيث تذكر بأنه عندما يشرع

---

(١) حدد الموقع الأستاذ الدكتور ج .أ . بويل ، في مقالته « طقوس الصيد في أوراسيا» فلكلور ٨٠ ، لندن ، ١٩٦٩ م ، ص : ١٢ ، بأنه كان بالقرب من مدينة «إيميل» الواقعة في المقاطعة المعروفة في الوقت الحاضر بـ «تشوكوتشك Chuguchak» . J. A. Boyle, ''A Eurasian Hunting Ritual'', Folklore 80, London 1962, PP: 12-16.

(٢) رشيد الدين ، جامع التواريخ ، جـ١/ص.ص : ٣٨٢ – ٣٨٣ ؛ أنظر أيضاً ماقاله الأستاذ الدكتور ج .أ . بويل ، في مقالته في الحاشية السابقة ، حيث نقل عن الترجمة والطبعة الروسيتين لكتاب رشيد الدين المذكور ، والتي قام بها «سمير نوفا» طبعة ، موسكو ولننغراد ، ١٩٥٢ م ، ص.ص : ٢٢٩ – ٢٣٠ .

الطفل ، في أية مرحلة من مراحل عمره - غالباً مايكون بعد سن الثامنة - في أول عملية صيد له ، فإنه يؤتى بصيده ، ويقوم ذلك الصياد ، الذي تجرى تحت رئاسته طقوس ذلك الاحتفال بهذه المناسبة ، فيغمس الأصبع الأكبر (الابهام) للصياد الجديد في دم صيدته ، ثم يدهنه من الدسم الذائب من شحمها . وبعد هذه اللحظة يصبح ذلك الصبي بصفة رسمية كواحد من الرجال الصيادين[1] . .

بالاضافة إلى الصيد بواسطة القوس والسهم ، فإن المغولي كان وما يزال يستخدم الصقور في حرفته هذه ؛ فهو يربي أنواعاً من الصقور ، منها «الباز» و «السُّنْقُور أو السُّنقُر» و «الباز الجوال» ، وبأعداد كبيرة جداً . فيخرج الرجل منهم للصيد ، وهو يحمل صقره على يده اليمنى ؛ فيربط سيراً من الجلد الرقيق ، الناعم الملمس ، حول عنق الصقر ، فيتدلى إلى تحت ومن وسط مقدمة الصدر ، بحيث يستطيع الرجل أن يجذب بيده اليسرى صقره ، ورأسه وصدره معاً ، إلى أسفل حتى لا يُلْحِقُ الأذى به ، عندما يطلقه خلف فريسته ، أو أن تعوق الريح عملية طيرانه . يصف «ماركو بولو» لنا بأن الرجل المغولي يمتلك أفضل وأحسن أنواع صقور الصيد في العالم[2] .

كما يوجد لدى المغول طريقة أُخرى للصيد ، يحصل بها الرجل على غالبية قوت يومه ، وهي الجري خلف الصيد . ومن أنواع الحيوانات التي تقع تحت قائمة مايصيده المغولي، بهذه الطريقة، الفئران بأنواعها المتعددة ، والموجودة بكثرة هناك . فيأكلون منها ما كان ذيله قصيراً ؛ أما ذوات الذيل الطويل فيقدمونها غذاءً لصقورهم . كما أن القرموط يقع أيضاً تحت مايصيده المغولي بالمطاردة ، أو اصطيادها في جحورها؛ حيث

---

(١) أنظر الحاشية قبل السابقة ، نفس الصفحات .

(٢) M. Polo, ''Description of the World'', Vol. I, 169; B. Spuler, ''History of the Mongol'' P: 173.

يصيدونها بأعداد كبيرة جداً، خاصة في فصل الشتاء، عندما تتجمع بكثرة، فيصيد الرجل العشرين، والثلاثين في آن واحد ومن مجمع واحد لها.

مما يصيده المغولي كذلك ، الأرانب ، وحُمُرَ الوحش ، والغزلان ، إما بواسطة السهام والقوس ، وإما بالجري خلفها ، راكباً على صهوة جواده ، وبذلك يرهق طريدته فتتعب حتى تقع على الأرض ، فيقبض عليها . كما أن الكلاب تلعب دوراً مهماً في حرفة الصيد لدى المغول[1] .

يمارس المغول نوعاً آخر من الصيد الجماعي ، حيث يقوم جماعة ، تقل وتكثر حسب نوع وكمية الصيد المراد قتله . وغالباً مايخصص هذا النوع من الصيد لاصطياد الحيوانات الوحشية الكاسرة ، كالأسود والنمور ،والفهود ، وغيرها . وفي هذا الصيد يقوم الجمع ، وغالباً مايكون أفراده سرية أو مجموعة سرايا لجيش مغولي ، فيعملون حلقة كبيرة تحيط بالمنطقة التي يعتقد بأن حيوان أو أكثر متواجد فيها ، ثم يقومون بتضييق تلك الحلقة حتى يحصروا الحيوان في داخل حلقتهم ، فيقومون بإصطياده ؛ وإن أرادوا – وهذا هو الغالب – إطلاق سراحه فعلوا ، ليعاودوا الكرة مرة أو مرات ، لغرض التمرين العسكري . وقد كان هذا النوع من الصيد ، فيما بعد ، من أنواع الرياضة المحببة لدى الخانات المغول ؛ وذلك للحفاظ على اللياقة الدائمة لدى الجنود ، وإعتبارها نوعاً من التمرن والممارسة العسكريتين ، والتي تستمر أياماً أو أسابيع ، بل وقد تظل لشهور .

حول هذا النوع من الصيد ، يذكر الجويني أن الخانات المغول يبذلون عناية كبيرة للصيد من هذا النوع ، ومطاردة الحيوانات المتوحشة ؛ حيث لايمارس المغول هذا النوع من الصيد ، للصيد في حد ذاته ، بل يقومون به لأنه العمل الصحيح الذي يبقي الرجال عامة والعسكريين منهم

---

(١) M. Polo, "Description of the World", Vol. I, 169; B. Spuler, "History of the Mongols", 173.

خاصة ، في مركز راقٍ من حيث التأهيل والتأهب ، والاستعداد لقتال الخصوم . لذلك ، فإن تدريب الرجل على مطاردة صيدة له ، واقتناصه لطريدته ، تعلمه كيف يقاتل خصومه ، بكل حنكة ودراية ، فيطارد أعداءه ، ويطوح بهم ، كما يطارد ويوقع بوحش يريد اقتناصه[1] .

لذلك ، فإنه لا تكاد تخلو أية حملة عسكرية مغولية ، شرقية كانت أم غربية ، إلا ويجعل من مهامها الأولى القيام بهذا النوع من التمرين العسكري ، والتدريب الميداني الصحيح . فقد قام بها «هولاكو» ، وهو في طريقه إلى أراضي المسلمين في الشرق ، خلال حملته المشهورة (التي أسقط فيها «الدولة العباسية» من جملة ما أسقط ، كالأسماعيليين في إيران ، وبني أيوب في الشام) وذلك في عام ٦٥٢هـ/١٢٥٤ م ، في إقليم بدخشان ، في أراضي أفغانستان الحالية . وقد حافظ المغول على هذه الرياضة العسكرية والتدريب الميداني لجندهم ، حتى نهاية دولهم المختلفة شرقاً أو غرباً . فقد كانت الرحلات للصيد ، وهي رياضة عسكرية للجند ، من أبرز نشاطات الخانات المغول في شبه قارة «الهند والسند» ، وعلى رأسهم أباطرتهم الأقوياء ، من سلطانهم «بابر» إلى «عالم كير»[2] .

٥ – المرأة ومكانتها في المجتمع المغولي :

تعتبر المرأة المغولية صاحبة مكانة عالية في المجتمع الذي تعيش فيه ، ذات أهمية خاصة . حيث إن أهمية المرأة تأتي من طبيعة العمل الذي ، بل

---

(١) الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/ص.ص : ١٩ – ٢٢ ، الترجمة الانجليزية جـ١/ص.ص : ٢٧ – ٣٠ . أنظر أيضاً Rubruck, "The Journey..", 100.

(٢) لمعلومات ضافية في هذا الموضوع أنظر : البدعوني ، عبدالقادر ، في كتابه «منتخب التواريخ» الترجمة الانجليزية ، جـ٢/ص.ص : ٨٤ وبعدها ؛ ثم : أبو الفضل ، العلامة ، في كتابه الموسوعي «طبقات أكبر» الترجمة الانجليزية ، وخاصة خلال سنوات حكم الأمبراطور أكبر .

الأعمال التي تقوم بها ، سواء كان ذلك على مستوى بيتها وأسرتها الصغيرة ، أم كان ذلك على مستوى العشيرة ، أو على مستوى القبيلة ، أو الدولة ، وفي كافة مرافقها . فالمرأة المغولية تعتبر هي العضو الأكثر فاعلية ، وإنتاجاً من الرجل ؛ ويبدو عملها أكثر وضوحاً بالنسبة للأسرة ، على الأقل .

تذكر الروايات التي بين أيدينا الأعمال الكثيرة التي تقوم بها المرأة ، وهي أعمال تعتبر من صميم تخصصها ، حسب النظام الاجتماعي ، وقاعدته التي بني عليها ، وكأن المرأة خلقت لتقوم بتلك الأعمال ؛ إذ إنها تعتبرها ، بالدرجة الأولى ، من صلب شؤونها . فهي التي تقوم بتحميل حاجيات وممتلكات وأمتعة الأسرة على العربات ، وترتيبها بعناية داخل العربة المشرعة ؛ ثم تقوم بقيادة الخيول أو الحيوانات التي تجر تلك العربات ، عند الانتقال من مكان إلى آخر . ثم تقوم بإصلاح أية عربة قد تنكسر ، أو تخرب ، أثناء طريق السفر أو غيره ؛ وهي التي تقوم بتحميل الجمال ، وتنزيل أحمالها في نهاية الرحلة . ثم هي المسؤولة عن تنزيل تلك الأمتعة ، عندما تحط الأسرة رحالها في مكان ترتضيه لإقامتها الجديدة .

في أثناء التنقل والترحال ، فإن المرأة المغولية لها قدرة هائلة على أن تدير عشرين أو ثلاثين عربة ، قد يساعدها في ذلك استواء سطح الأرض . فتقوم المرأة بربط جميع العربات ، الواحدة في العربة التي تسير أمامها ، واحدة تلو الأخرى . ثم تجلس هي في العربة الأمامية ، والحيوانات التي تقوم بجر تلك العربة ، والتي غالباً ماتكون إما الثيران أو الجمال ، أو النوعين معاً ، تتبعها على التوالي . وعندما تصل القافلة إلى منطقة وعرة ، فإن المرأة تقوم بحلها ، وفصل العربات بعضها عن البعض الآخر ، لكي يتم اجتياز تلك المنطقة الوعرة على انفراد ، حيث تؤخذ وتقاد كل عربة بمفردها ، حتى تجتاز القافلة جميعها ذلك المكان العسير العبور . أما سرعة سير تلك العربات فإنها بطيئة جداً ، إذ إنها مقيدة بسرعة سير نوع الماشية،

من الأغنام والأبقار، التي تمتلكها الأسرة أو القبيلة؛ إضافة إلى ذلك فإن المرأة المغولية تقوم أيضاً بحلب وصرب الأبقار، وما يتعلق بإنتاج هذا النوع من الحيوان؛ وهي التي تقوم بدباغة الجلود[1]، ثم خياطتها بأوتار جلدية، أو من السيور الجلدية الرفيعة، والتي تصنع بطريقة معينة مخصصة لهذا الغرض - أي الغرض التي تقوم به الخيوط - والمرأة نفسها هي التي تقوم بعمل تلك الخيوط من الجلد المدبوغ؛ فتجعله في شكل خيوط رفيعة، ثم تقوم ببرمها، حتى تصبح خيوطاً غليظة، وعلى طول وسماكة مقبولتين للخياطة.

كما أن من الأعمال التي تقوم بها المرأة المغولية ، هي صنع وخصف الأحذية ؛ وخياطة الجوارب ، والثياب ، والطماق[2] وهي التي تصنع الخيام الجلدية ، وهي التي تقوم بتغطية منزل الأسرة . وبالجملة ، فإن المرأة تصنع كل شيء يستخدم الجلد في صناعته ؛ وهل كان لدى المغول أي شيء آخر غير الجلد ؟ فقد كانت حتى ثيابهم تصنع من الجلد ، كما ذكرنا ذلك في فصل «اللباس الذي يستخدمه أفراد المجتمع المغولي»[3] .

وهناك واجب آخر مهم تقوم به المرأة في ذلك المجتمع ، وهو طهي الطعام ، والعناية به ، في كافة مراحله ، من ، تنظيف الأواني وغير ذلك .

حول هذا الموضوع بالذات تقول التقارير ، التي بين أيدينا ، أن المرأة المغولية لا تقوم بغسل أو بتنظيف أواني الطبخ ، بعد الانتهاء من الطهي ، أو الأكل . وعندما ينضج اللحم مثلاً فإن المرأة تزيل اللحم ، وتصب المرق من الاناء الذي طُبخ فيه اللحم ، فتتناول ذلك الاناء وتسكب فيه قليلاً من الماء ، فتشطفه به ، ثم تجعله مع المرق[4] .

---

(١) لدباغة الجلود ، يستخدم المغول لبن الشياة الحامض ، مخلوط ، أو محلول ، فيه ملح .

(٢) الطماق هو لباس أو كساء الساقين . ونشاهد هذا النوع لدى رعاة البقر والهنود الحمر في أفلام «رعاة البقر ، والهنود الحمر» في أمريكا .

(٣) راجع ذلك في كلامنا عن لباس المرء في مجتمع المغول ، مما سبق .

(٤) كذلك أنظر الصفحات السابقة في بحثنا عن طعام الفرد المغولي وشرابه .

المرأة المغولية ، مثلها في ذلك مثل أُختها في معظم المجتمعات الدولية الأخرى ، هي التي تقوم بتربية الأطفال ، ورعاية شؤونهم . كما إنها هي التي تقوم بترتيب ورعاية أمورها المنزلية ، حسب الطريقة المغولية المتبعة في داخل المسكن . والمرأة المغولية تتمتع بقدرة عجيبة ، إذ لا تكاد تتعب أو تَكِل أو تَمل في أداء تلك الأعمال ؛ فتقوم بها خير قيام ، وبكل عناية وكفاءة ، إضافة إلى ما تقدم ذكره ، من أعمال موكلة إلى المرأة المغولية فإنها تقوم أيضاً بالاشتراك الفعال مع عشيرتها في الحروب التي تخوضها ضد عشائر أو قبائل أخر ، تلك الحروب الدائمة والدامية التي لا تكاد تنقطع حتى تبدأ من جديد ، كظاهرة تسيطر على كل مجتمع بدوي ، كالمجتمع المغولي . فالمرأة المغولية ، في هذا الميدان ، لا تكاد تقل عن الرجل ، مهارة في ركوب الخيل ، وفي حسن ودقة استخدام السلاح ، كالقوس والرمح ، وما شابه ذلك من سلاح العصر . كما أن لها القدرة على مداومة ركوب الخيل المتواصل ، كأي إنسان مغولي ، ذلك الركوب الذي قد يدوم لأكثر من أربع وعشرين ساعة ؛ حتى أنهم قد روضوا أنفسهم على النوم وهم على صهوات جيادهم . والمرأة ترتدي بنطلوناً قصيراً ، خاصاً بركوب الخيل ؛ وهي في هذا مثل الرجل المغولي تماماً .

يحدثنا «ويليم الربركي» في هذا الموضوع عن قدرة المرأة المغولية على ركوب الخيل ، فيقول بأن جميع النساء المغوليات يجلسن على صهوات الجياد ، كما يجلس الرجال ، أي بإنفراج الساقين . وعندما تمتطي المرأة منهن صهوة جوادها ، فإنها تقوم بربط غطاء رأسها «طربوش أو قلنسوة» برباط أو بخيط حريري سماوي اللون حول خصرها ؛ كما تقوم بشد ثدييها بحزام معين ، لوقايتهما من أن يتعرضا للأذى ، من شدة الأهتزاز أثناء إنطلاق جوادها بأقصى سرعته . ولتتقي شدة لفح حرارة الشمس وسمومها في فصل الصيف ، أو شدة وقرس البرد في فصل الشتاء ، فإنها تربط عصَابة بيضاء من تحت العينين ، وتحزمها وراء

العنق ، ويتدلّى بقية العصَابة على صدرها ؛ فتكون بذلك قد حمت وجهها وعنقها من التعرض للحرارة أو البرودة أثناء انطلاق فَرَسهَا[1] .

بعد أن ظهر المغول ، بزعامة «جنكيزخان» ، وإنفتحوا على العالم المتحضر شرقاً وجنوباً (مُمثلًا في حضارة الصين العريقة) وغرباً (مُمثلاً في الحضارة الإسلامية) ، وبعد أن إمتدت إمبراطوريتهم من المحيط الهادي شرقاً إلى جبال الكربات وسوريا غرباً ، ومن سيبيريا شمالاً إلى شبه القارة الهندية ، والهند الصينية جنوباً ، نجد أن المرأة المغولية ماتزال تحتفظ بنفس المكانة المرموقة . فهي العضو الآلي المتحرك في المجتمعات المغولية الجديدة ، وفي أية بقعة من بقاع إمبراطوريتهم المترامية الأطراف . فقد ظلت تلعب نفس الدور الهام ، في إدارة شؤون ورعاية أُسرتها ، وخاصة النساء العاديات . فبعد قرن ونصف تقريباً من خروج المغول من عزلتهم من وراء تلك العوائق الطبيعية (صحراء كُوبي من الجنوب ، و «جبال كُمنتي» وثلوج سيبيريا من الشمال ، و «مرتفعات خنكَاي» من الشرق ، وسلاسل مرتفعات جبال الطاي من الغرب) نجد أن المرأة المغولية تتوسع في نوعية العمل الذي تقوم به ، حسب ماتمليه ظروف حياتها المعيشية في مجتمعها الجديد .

لقد أصبحت النساء المغوليات يحترفن مهنة جديدة ، وهي مزاولة الأعمال التجارية . حول هذا الموضوع ، يذكر الرحالة المسلم «ابن بطوطة» بأن المرأة المغولية في إقليم القبتشاق ، تحترف التجارة ، وبشكل كبير ؛ إذ تأتي ، ومعها عربتها تجُرها الخيل ، ومعها جواريها وعبيدها ، بالغنم واللبن ، وغيرها من المنتجات الحيوانية ، فتبتاع وتشترى مع الناس بصورة مقايضة ، وخاصة السلع الكمالية كالعطور ، ومتطلبات الأسرة من المنتجات الأخرى ، التي لا تستطيع صنعها داخل مجتمعها الصغير .

---

(١) Rubruck, "The Journey.." Ed., Dawson, PP: 95, 102.

وقد يكون للمرأة السيطرة التامة في رعاية شؤون أسرتها بما فيهم زوجها، إذ يقول «ابن بطوطة» : «...وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه، من يراها، بعض خُدَامها، ولا يكون عليه من الثياب إلا فروة من جلد الغنم، وفي رأسه (لعلها على رأسه) قلنسوة تناسب ذلك، يسمونها الكُلاه»[1] .

لا يكاد يختلف هذا المركز الهام ، الذي تلعبه المرأة المغولية في مجتمع قومها الجديد ، الذي كان لهم في شرق وجنوب شرق إمبراطوريتهم العالمية ، في أراضي الصين ، عنه في مجتمع أُختها الجديد أيضاً في الغرب «القبتشاق» . يحدثنا الرحالة الايطالي «ماركو بولو» في هذا الشأن حيث يقول بأن النساء المغوليات أصبحن يمتهن حرفة التجارة ؛ فالمرأة منهن تبتاع وتشتري ؛ ويمارس النساء أيضاً كل الأعمال التي يحتجنها أنفسهن ويحتاجها مجتمعهن الذي يعشن فيه ؛ وتعمل كل ما تحتاجه أُسرهُن وأسيادهُن . أما ما يتعلق بما يحتجن من مصروفات ، فلسن في هذا الشأن عالة ، أو عبءً على الأزواج . لذلك فإنهُن يكسبن مكاسب كثيرة مما يقمن به من أعمال ، تدر عليهن ما يستطعن به النفقة على أنفسهن ، وأسرهن أيضاً .

أما مايقمن به من رعاية لأسرهن ، فإنهن في هذا المقام حكيمات ، وذوات خبرة ممتازة . فالمرأة تدير جميع شؤون أسرتها بدقة متناهية ، وبكل خبرة ودراية ؛ كما إنهن يصنعن الطعام بعناية فائقة . لهذا السبب (على حد تعبير الرحالة هذا) لم يعد للرجل أية وظيفة في هذا الميدان ، ميدان العناية بالأسرة . فقد ترك ذلك كله إلى زوجته وأوكله إليها[2] .

---

(١) كلمة «كُلاه» كلمة فارسية ، وتعني «القبعة» وكما هو معروف عن ابن بطوطة بأنه يجيد عدة لغات منها الفارسية والتركية ، ويبدو أن هذه الكلمة أصبحت تستخدم بمعناها في هذا الإقليم المغلولي ، إقليم «القبتشاق» ، حيث كانت تقوم دولة المغول المعروفة في التاريخ بـ «القبيلة الذهبية» كما سبقت الاشارة إلى ذلك سابقاً . أنظر : ابن بطوطة «رحلة ابن بطوطة» ص : ٣٣٠ .

(٢) M. Polo, ''Description of the World'', Vol. I, 169; B. Spuler, ''History of the Mongol'' PP: 172-3.

تتمتع المرأة المغولية بسمعة ممتازة ، في زمانها ، لا تكاد ترقى إليها الشكوك ، أو الريب . يقول عنها «جون الكربيني» بإنها إمرأة عفيفة ؛ فلا تقوم بإرتكاب أي عمل قد يدنس شرفها المرموق ، أو يسيء إلى سمعتها الممتازة . كما أنه لم يسمع عنها أنها تتفوه بكلام ناب أو بلغة قبيحة ، اللهم إلا في حالات نادرة عند المزاح أو إلقاء الفكاهة أو الدعابة ، ففي بعض الأحايين النادرة قد تقول بعض الكلمات التي تثير النفور أو الاشمئزاز . وعلى الرغم من أنهن يتعاطين المشروبات المسكرة ، فيشربن حتى الثمالة ، فإنهن لا يتفوهن بأي كلام مخجل أو ناب ؛ أو أن تتصرف تصرفاً قد يغضب الآخرين[1] .

حول هذا الموضوع أيضاً ، يحدثنا «ماركو بولو» عن المرأة المغولية ، فيصفها بصفاة طيبة ، ويغبط الرجل المغولي على أنه يملك مثل تلك المرأة الصالحة ؛ تلك المرأة التي كانت بعكسها المرأة الأوربية ، في بلده «إيطاليا» . فالمرأة المغولية في شغل دائم ودَؤوب ؛ منهمكة في عملها ، تؤديه بكل حنكة ودراية ، وبكل حب وتلهف ، سواء كان ذلك عملاً تجارياً ، أو عملاً داخل منزلها ، أو رعاية ما يتعلق بشؤون بيتها وأسرتها ، أو تربية أولادها .

هنا يقول «ماركو بولو» بحكم تجربته ، وعلى حد حكمه الخاص ، بأن المرأة المغولية هي المرأة الوحيدة في العالم التي تستحق كل ثناء وإطراء من جميع الناس ، لأعمالها الطيبة ، وخاصة ما تتمتع به من صفات الطهارة والفضيلة العظيمتين . كما أنهن أهل لكل حمد وإطراء ، لعفتهن وولائهن لأزواجهن ، ذلك الولاء والعفاف اللذان لا يقفان عند حدود . ثم يقارن «ماركو بولو» بينها وبين المرأة الأوربية الايطالية على وجه الخصوص - فيقول بأنه يشعر بالخزي والخجل عندما ينظر إلى خيانة

---

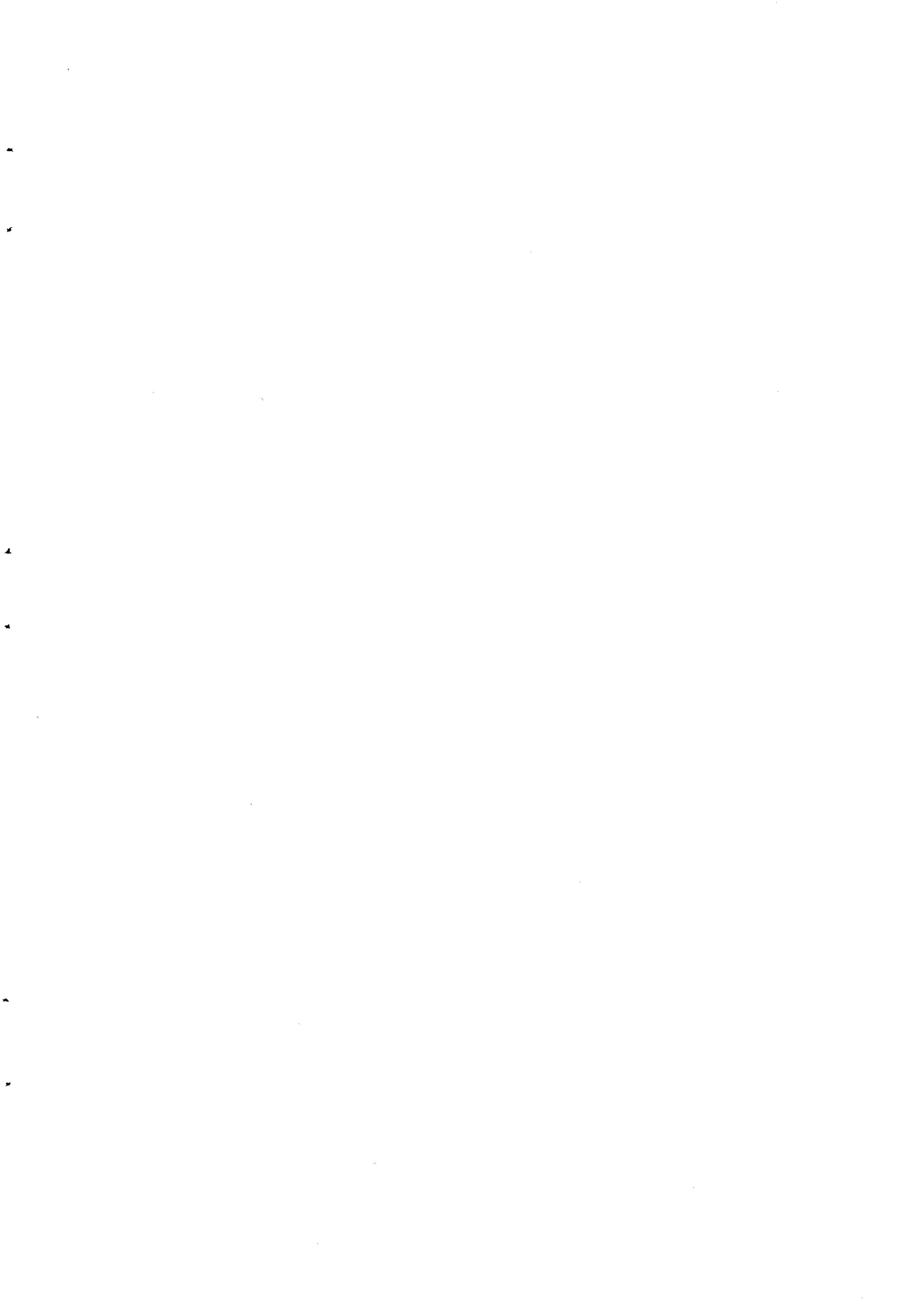
(١) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, 7,15; also: Rubruck, ''The Journey PP: 103-104. ؛ ابن الأثير ، «الكامل في التاريخ» جـ٩/٣٧٨ .

النساء المسيحيات لأزواجهن ؛ مع العلم بأن المرأة الواحدة منهن لا يشاركها في زوجها نساء أُخريات ؛ ومع هذا فلا تحافظ على فضيلتها ، وطهارتها ، ولا ترعى فضيلة العفاف . وبعكسها المرأة المغولية ، فبينما يجد النساء ، الكثيرات العدد ، يعشن حياة سعيدة ، ويحافظن على ولائهن للزوج ، رغم تلك الكثرة العددية كزوجات لرجل واحد (قد يبلغن أحياناً مائة إمرأة تحت رجل واحد) ، ومع ذلك لا يرقى الشك إلى خيانتهن . فهن إذاً أهل للثناء والحمد العظيمين ؛ وليحل العار والخجل بكل الأخريات (لعله يقصد النساء من قومه) بهذا الدعاء الذي صبه عليهن ذلك الرحالة المسيحي .

وفوق ذلك ، فإن المرأة المغولية تتصف أيضاً بصفة ممتازة ، وهي أنها لا تكذب على زوجها ؛ وهي امرأة كادة ، كادحة ؛ تتكبد الآلام ، لتؤدي الأعمال المنزلية المطلوبة منها ، أداءً ممتازاً ، وعلى خير ما يرام[1] .

---

(١) M. Polo, ''Description of the World'', Vol. I, 170; B. Spuler, ''History of the Mongol'' P: 174.



الفصـــل الرابـع

ديانـة المجتمـــع المغولـي

١ – المعتقد الديني في المجتمع المغولي .

٢ – تسامح المغول الديني ، ونظرتهم تجاه الأديان الأخرى .

٣ – رجال الدين في المجتمع المغولي .

٤ – عقيدة المجتمع المغولي فيما بعد الموت .

(أ) تعامل المجتمع المغولي مع المريض .

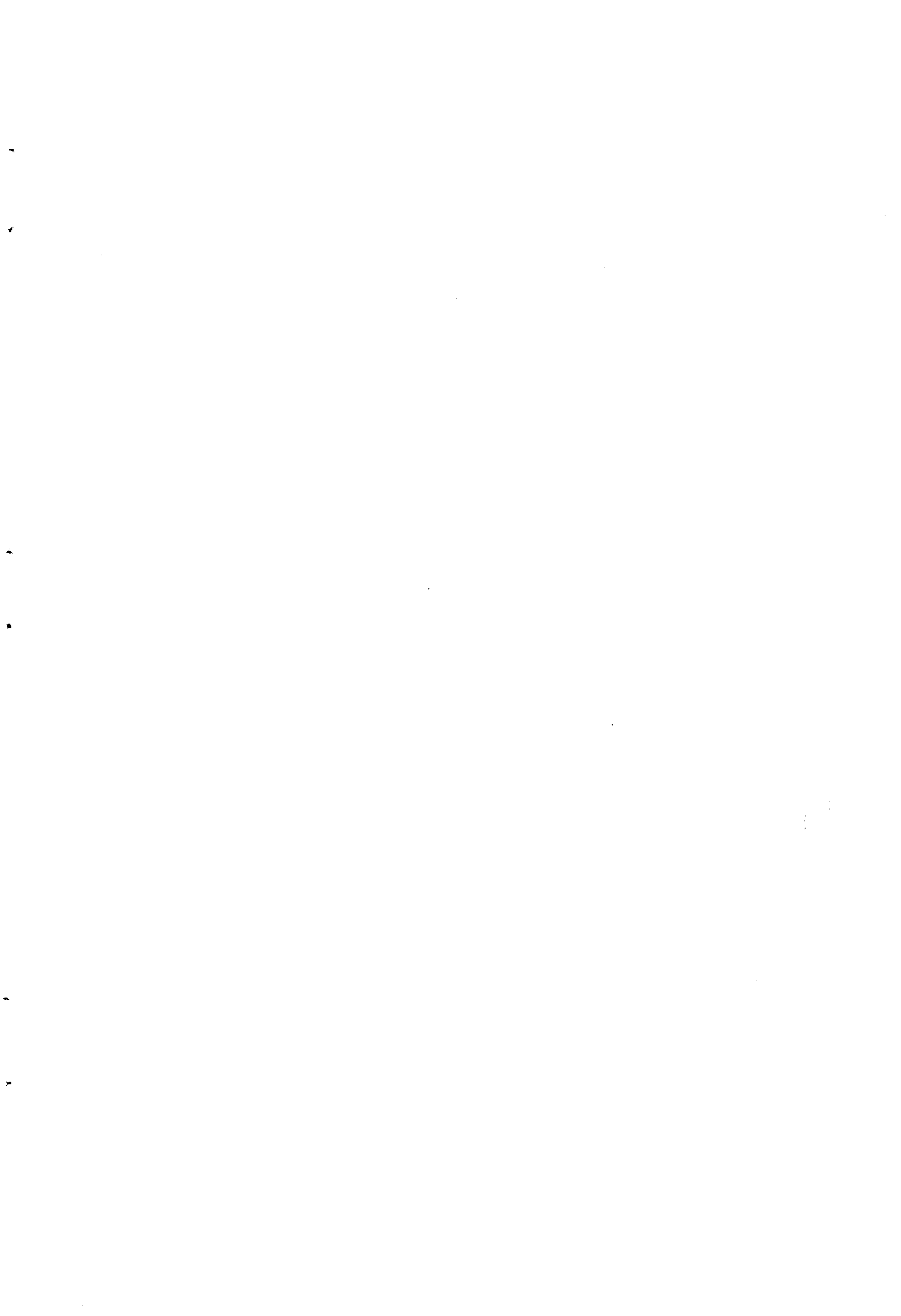
(ب) أنواع المقابر في المجتمع المغولي .

٥ – مراسم وطقوس الدفن في المجتمع المغولي .

(أ) كيفية دفن المتوفين من عامة الناس .

(ب) مراسم وطقوس دفن الرؤساء وكبار القوم .

(جـ) مراسم وطقوس مابعد الوفاة والدفن .



١ - المعتقد الديني في المجتمع المغولي* :

تلعب الديانة دوراً ، من أبرز الأدوار، إن لم يكن أبرز وأهم الأمور الحياتية، في أي مجتمع من المجتمعات، وفي تاريخ الدول، وفي علاقات المجتمعات الداخلية منها والخارجية. فالانسان، في أية زاوية من زوايا الكرة الأرضية، التي يعيش عليها ذلك الانسان، والمرء الذي عاش في العصور السحيقة، سواء أعاش فيما قبل التاريخ، أو أنه عاش بعد ذلك ، حتى أرسل الله أنبياءه، ورسله، شديد التأثر بما حوله من الظواهر الكونية، من صنع الباري، الذي أتقن كل شيء، كالشمس، والقمر، والنجوم، والنور، والظلام، والنار، والهواء، والماء؛ إلى غير ذلك من هذه الأمور، التي أحكم خلقها الله الحكيم العليم. لذلك، فقد يعمد ذلك الانسان، أو هذا؛ إلى عبادة هاتيك الظاهرة أو تلك خوفاً منها، أو رغبة فيما يظن عندها من الأسرار الغيبية. ولعل خير ما نستشهد به في هذا المقام، وما نقوله حول هذا الموضوع، هو محاولة أبي الأنبياء إبراهيم « ﷺ » أن يعبد واحدة من هاتيك الظواهر، حيث أنه اعتقد في أول الأمر بأنها ربه. إلا أنه لما تأفل هذه أو تلك عرف أنها ليست أهلاً لعبادته، وأن وراء ذلك كله خالق لهاتيك الظواهر. لذلك فقد أخبرنا الله جل ذكره بقصة إبراهيم في محكم التنزيل، حيث يقول: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رءا كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رءا القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أَفَلَ قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رءا الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال

★ سبق أن صدر جزء من هذا الموضوع في مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة التاسعة ، شوال ١٤٠٣هـ ص.ص : ٢٠٤ - ٢٢٠ ، بعنوان «المغول والوحدانية» وقد رأيت أن أُضيف عليه الكثير من الاضافات ، المستجدة في هذا الشأن ، إضافة إلى أنه يكمل ما نحن بصدده ؛ فهو لبنة من لبنات هذا الموضوع .

ياقوم أني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين[1]﴾ .

بناءً على ذلك لا يخلو أي مجتمع من مجتمعات الدنيا ، في أي بقعة من بقاع الأرض ، من شعور أفراده بالتقديس والتبجيل والاحترام لأي شيء ، خفياً كان أم مرئياً ، جماداً كان أم حيواناً ، حتى أنه قد يكون ذلك الشيء إنساناً ، كما كانت عليه حالة مصر وفراعنتها . ثم يكون ذلك الشيء هو رب ومعبود لأفراد وجماعات ، أي مجموعة من البشر يقطنون أرضاً . لذلك ، فإنه قد يكون الدافع لهذا المعبود أو ذاك إما الخوف منه ، أو يعبد لاتقاء شره ؛ وإما لأنه مصدر شيء يعتمد ذلك المجتمع عليه ؛ أو أن يكون - حسب اعتقادهم - حامياً ومدافعاً لهم ضد شيء آخر يعتقدون الشر فيه أو الضرر منه ، فيعبدون ذلك ليدفع عنهم الشر . والمغول مثلهم في هذه الظاهرة مثل أي مجتمع آخر ، من مجتمعات الأرض .

لقد تكلم في ديانة المغول معاصرون لهم ، أوربيون وسفراء ومؤرخون مسلمون . وحسب علمي القاصر ، أول من طرق هذه الناحية من مؤرخينا المسلمين ، هو ابن الأثير - رحمه الله - في معرض كلامه عن المغول ، عندما غزوا عالمنا الاسلامي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م ؛ وعن ابن الأثير نقل من جاء بعد . وقد ذكر مؤرخنا هذا بأنهم يسجدون للشمس عند طلوعها[2] . وكما قلنا من قبل، أن ابن الأثير لم يكن يدون معلوماته ، عن المغول أو عمن يسميهم «التتار» ، عن اطلاع مباشر ، أو نقلاً عن شاهدي عيان ؛ سواء أكان ذلك مباشراً أم غير مباشر ؛ بل كان يدون ما يعرفه عنهم معتمداً على ما كان يسمعه من هذا التاجر أو ذاك المسافر ،

---

(١) سورة الأنعام - ٦ ، آيات ٧٥ - ٧٩ .

(٢) ابن الأثير «الكامل في التاريخ» جـ٩/ص : ٣٣٠ .

أو تناقلته الأخبار[1] . إذ أن رواية ابن الأثير هذه تشير بوضوح إلى أن معبود المغول يتمثل في الشمس فقط ، حيث كانوا يتخذون منها إلهاً لهم ، فيعبرون عن عبادتهم وتقديسهم لها بالسجود عند طلوعها من المشرق . ومع ذلك فإن كلام مؤرخنا ليس خطأ بالكلية ، حيث أن الشمس تكوّن واحداً من المعبودات لدى مجتمع المغول ، كما سيأتي ذلك بعد قليل .

لقد سبق لي أن قلت ، ولأكثر من مرة ، بأنني قد جعلت مصادر معلوماتي تلك المصادر الأولية فقط . بناءً على ذلك ، فقد اعتمدت في إعداد هذا البحث ، وفي هذا الموضوع بالذات ، على مراجع أولية معاصرة ؛ كتبها ، كما قلنا آنفاً ، مؤرخون عاشوا مع المغول . فبعضهم عاش طوال حياته ، أو معظم حياته ، والبعض الآخر سكن بين ظهرانيهم مدة كَفَته ليدون معلوماته عنهم بكل دقة ، وعن تجربة شخصية مباشرة . وهؤلاء المؤرخون هم «علاء الدين عطاء ملك الجويني» و «جون البلانو الكربيني» و «ويليم الربركي» و «الراهب الأخ بندكت» و «الرحالة ماركو بولو» وغيرهم ، وقد ورد ذكر تلك المصادر تباعاً ، كل في مكانه المخصص له .

لعل أول أولئك المؤرخين هو السفير البابوي «جون البلانو الكربيني» ثم جاء بعده «الراهب بندكت» ثم سفير الملك الفرنسي «ويليم الربركي» ، فيذكر كل من أولئك الرحالة أن الشمس تكوّن واحداً من عدة أشياء يعبدها أفراد المجتمع المغولي . ومع ذلك فإن المغول يعبدون إلهاً واحداً ؛ فهم يؤمنون بأنه هو الخالق لكل الأشياء ، المرئية وغير المرئية ، وأنه هو وحده موجد ومعطي جميع الأشياء الطيبة في هذه الدنيا ، كما أنه هو الذين أوجد الضيق في العيش ، والحرمان ، والمشاق ، وما يتعرض له

(١) قمنا بدراسة نقدية مختصرة عن كتاب ابن الأثير «الكامل في التاريخ» في كتابنا «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي» ص.ص : ٢٦ - ٢٧ .

الانسان من أضرار في هذه الحياة . كما أورد لنا القس «س.دو بريديا Friar C. de. Bridia» في مصنفه «خارطة فنلندا وعلاقة التتر» وهو مصيب في ذلك ، رواية تقول بأن المغول يعتقدون في رب واحد ويعبدونه ، فهو وحده خالق كل شيء ، مرئي وغير مرئي ، وهو المعطي والمُوجد لكل شيء طيب وسيء على السواء في هذه الحياة[1] . كما أن هذا الاعتقاد بالوحدانية ، قد عبر عنه منكوقآن بن تولي ، وجهاً لوجه إلى الرحالة الأوربي «ويليم الربركي» حيث قال : «إننا نحن المغول نؤمن بأنه لا يوجد سوى إله واحد ، الذي به نحيا ، وبه نموت واليه نتوجه بقلوب مستقيمة»[2] . ويعتقد المغول بأن ربهم المعبود يتربع فوق تلك السماء الزرقاء بإسم «تنكَري»[3] .

على الرغم من اعتقاد المغول في هذا الرب إلا أنهم لا يعبرون عن عبادتهم لذلك الرب ، الخالد والمعطي في السماء ، من الصلوات ، أو الدعاء في مكان مخصوص ، أو القيام بعمل يتطلب جهداً أو مشقة ، أو إعداد ترتيب خاص ، والاستعداد لاقامة احتفال معين لهذا الغرض ؛ أو بطقوس من أي نوع . ومع أنهم يؤمنون بـ «تنكَري» وهو ذلك الرب الذي في السماء ، فإن هذا لم يمنعهم من اتخاذ أوثان ، أو تماثيل مجسدة في أشكال شتى ، وخاصة صور الآدميين ، مصنوعة من اللبود أو من مواد غيرها ، كالحرير مثلاً ؛ فيقومون بوضع هذه التماثيل على جانبي مدخل

---

(١) De Bridia, C. Friar, "The Vinland map and the Tartar Relation", Ed. and translated by R. A. Skelton, and others, Yale University Press, 1965, P: 88 and F.N. 1.

(٢) Rubruck, "The Journey of William of Rubruck,", Ed., C, Dawson, P: 195.

(٣) «تنكَري» كلمة تركية مغولية ، وهي بمعنى الآله الحامي أو الآله الخالد أو الرب المعظم أو الآله السمائي السرمدي الوجود . وهي كلمة مرادفة للفظ الجلالة «الله» . أنظر : دو بريديا ، «خارطة فنلندا وعلاقة التتر» تحقيق : سكلتون وآخرون ، جامعة ييل ، مطابع جامعة ييل ، ١٩٦٥ ، ص : ٨٨ وحاشية رقم (١) .

المنزل ، وإلى أسفل هذه الصور يضعون تمثالاً مصنوعاً أيضاً من اللبود وعلى هيئة الضرع . وهم يعتقدون أن هذه الصور ماهي إلا حراس لمواشيهم ، والتي تهب لهم نعمة الحليب ، والتي تلد لهم العجول ، وفوق هذا «المهور» وهي أغلى حيوان لدى المغول .

لهذا نجد أن المغول يعظمون هذه التماثيل ، ويجلونها إجلالاً كبيراً . وقد يضع المغولي بعضاً من هذه التماثيل خارج منزله أمام الباب ، في عربة جميلة ، مزينة صغيرة الحجم مغطاة . فإذا ما أقدم شخص على سرقة أي شيء من هذا المنزل ، فإنه يقتل دون رحمة أو رأفة به . كما أن العقاب لا يقتصر على الجاني ، فقد يلحق بكل من له قرابة به ، ومن أهله وذويه ؛ وتزداد المشقة وإلحاق الأذى بهم إذا لم يعثر على السارق . كما يصنعون تماثيل لرؤسائهم وخاناتهم ، وكذلك لرب الأسرة بعد وفاته ، فتوضع خارج المنزل ، وتقدم لها القرابين ، لأسباب سيرد معنا ذكرها .

وعندما يرغب المغول في صنع شيء من هذه التماثيل ؛ فإن السيدات الكبار ، لمختلف الأسر ، يقمن بعمل إجتماع فيما بينهن ، حيث ينجزن صنع تلك التماثيل . وعند الانتهاء من هذا العمل يذبحون شاة ؛ فيأكلون اللحم ويشربون المرق ويحرقون عظامها بالنار ، دون كسره ، وهو مايزال يحتفظ بما حواه من المخ .

عندما يصاب طفل بمرض ، فإنهم يصنعون له تمثالاً صغيراً من هذا النوع ، ويضعونه على فراش خاص به بجانب فراش ذلك الطفل المريض ، علّهُ يتماثل للشفاء . كما يحتفظ رؤساء العشائر ، وكبار الرجال وقروم المجتمع المغولي ، وكبار القادة العسكريين ، بشيء من هذه التماثيل ؛ فتوضع في مكان خاص بها ، وهذا المكان عادة يكون في وسط المنزل ؛ حيث تجسد هذه التماثيل صوراً لأشخاص كانوا قد ماتوا ، إذ يقوم ابن الرجل المتوفى ، أو ابن المرأة المتوفاة ، أو أن تقوم امرأة الرجل المتوفى ، أو أي شخص مات له عزيز ، بصنع تمثال له أو لها ، ويوضع في أي

مكان من هذه الأماكن (خارج أو داخل أو عند مدخل المنزل) وذلك للاحترام، والتبجيل لعين الشخص المتوفى، وهي لا ترمز بأي حال من الأحوال للرب «تنكَري» أو للعبادة له في السماء، لأن الرجل العراف - وهذا ما سنتكلم عنه فيما بعد - يقول: «إننا لا نصنع هذه المجسمات للرب، ولكنه عندما يموت رجل غني من رجالنا، فإن ولده أو زوجته، أو أي شخص عزيز لديه، يصنع له تمثالاً بحيث يكون ذلك التمثال على هيئة ذلك الرجل الميت وسماته البارزة، ويضعه هنا. لذلك فإننا نجلها لا لكونها تماثيل، بل نفعل ذلك إحياءً لذكراه فقط[1].

عندما يصنع المغول حفلة، لأي مناسبة كانت (زواج أو احتفال بأول الشهر مثلاً) فإنهم يأتون بتلك التماثيل؛ ثم يأتون لزيارتها، فينحنون أمامها عند الدخول، ويجلونها ويقدسونها، ولا يسمح لأي إنسان غريب قط بالدخول عليها[2].

أما مارواه «ماركو بولو» في هذا الشأن فلا يكاد يختلف كثيراً عما أورده سفير لويس التاسع «ويليم الربركي» حيث يقول: إن المغول يقولون بأنه يوجد إله سمائي، سام ورفيع؛ يسألونه كل يوم بتلهف صادق، أن يمن عليهم بالصحة وفهم أفضل لما يحبه. ويذكر هذا الرحالة بأنهم لا يعبدون الأصنام، وإن من آلهتهم إله الأرض، فهو الذي يعتني بنسائهم، وأولادهم، ومواشيهم، ومحصولاتهم الزراعية[3]. ومن أجل ذلك فإنهم يعظمونها ويجلونها كثيراً. ولهذا فإن كل واحد منهم يضعه في أحسن وأفضل مكان داخل منزله، ويصنعون هذه التماثيل من اللبود، ومن أنواع كثيرة أخرى من القماش، بشتى أنواعه.

يعتقد المغول - حسبما أورده «ماركو بولو» - أيضاً بأن لتلك الآلهة

---

(١) Marco Polo, "The Description of the World", PP: 170-1.

(٢) Rubruck, "The Journey of William of Rubruck" Ed. Dawson, P:140.

(٣) نفس المصدر السابق، ص: ١٤١.

أو لتلك التماثيل زوجات ، ولها أولاد . لذلك فهم يصنعون لها تماثيل أخرى صغيرة ، ويقولون بأنها أولاد لتلك الآلهة ؛ كما يصنعون لها تماثيل تقوم مقام الزوجات . فيضعون الزوجات إلى الجانب الأيسر من الآلهة أو التماثيل ، كما يوضع الأطفال أمام أبيهم ، وهم في وضع إحترام لوالدهم . وعندما يجهزون وجباتهم الغذائية الثلاث ، وقبيل أن يشرعوا في تناول أية وجبة منها ، فإنهم يأخذون قليلاً من المرق أو الماء الذي طبخ فيه اللحم ، فيمسحون به أفواه التماثيل ، ثم ينضحون شيئاً منه أيضاً خارج المنزل ، أو الغرفة التي فيها هاتيك الآلهة ؛ إكراماً لها ، ولأرواح أقرباء الأسرة المتوفين الآخرين . وبعد الانتهاء من هذه العملية ، أو الطقوس الدينية ، فإنهم يشرعون في الأكل ، قائلين بأن تلك الآلهة قد أخذت مايخصها من الوجبة الغذائية المعدة لأفراد الأسرة[١] .

من القرابين التي تقدم لتلك التماثيل والصور «الحليب» ؛ إذ إن حالب الفرس أو البقرة أو غيرها ، يبدأ بتقديم أول حلبة من ذلك الحيوان لها . كما يقوم المغول بتقديم جزء ، ولو بسيط ، من طعامهم أو شرابهم إلى تلك التماثيل – كما سبق القول – قبيل الشروع في تناول الأكل أو الشراب . وحينما يذبحون حيواناً ، أو بالأحرى عندما يقتلونه وذلك بقطعه نصفين من منتصف جسمه حسب طريقتهم – من أي نوع كان – فإنهم يقدمون قلب تلك الذبيحة في كأس كقربان لذلك التمثال الموجود في داخل العربة الصغيرة ، التي تربض خارج المنزل ، ويظل القربان أمام ذلك التمثال حتى صبيحة اليوم التالي ؛ حيث يؤخذ ، دون غسله ؛ ثم يطبخ ويأكلونه مع اللحم ويشربون المرق .

ومن القرابين الأخرى ، عند المغول ، الخيول وغيرها من حيواناتهم ، فتقدم على شكل أوقاف – إن صح لنا استخدام هذا التعبير – فالخيل التي

---

(١) ينطبق كلام «ماركو بولو» على المجتمع الصيني الزراعي ، التي زارها هذا الرحالة الايطالي ، حيث كانت تمثل جزءً من إمبراطورية المغول المترامية الأطراف .

توقف لتلك الآلهة تصبح محرمة وذات حرمة قدسية ، فلا أحد يركبها على الإطلاق ، تقديساً للهدف والغاية التي أوقفت عليها حتى تموت . أما الحيوانات الأخرى الموقوفة ، فإنه عندما يذبحها المغول بغرض الأكل فإنهم يأخذون عظامها لئلا تتهشم ، فيحرقونها في النار . أما الإهاب فهو الجزء الوحيد من ذلك القربان الذي يقدم قرباناً لإلاههم المعبود «تنكري» .
وهذا ما استخلصه الأستاذ الدكتور (ج.أ.بويل) من مقالة له حول «كيفية تقديم الحصان كفداء عند المغول في القرن الثالث عشر والرابع عشر» حيث يقول : «بأن من الأشياء التي تقدم قرباناً إلى «تنكري» جلد أو إهاب الحصان الذي يذبح على قبر من مات حديثاً ، فيؤخذ ذلك الإهاب ويعلق على عمود قائم ، يراد التقرب به إلى ذلك الرب ، كما أن المغول ينحنون أمام تلك التماثيل متوجهين جهة الجنوب ، كما إنهم يجبرون أي غريب قدم إليهم بالانحناء لتلك التماثيل»[1] .

بالاضافة إلى هذه الطقوس والقرابين ، التي تقدم لتلك الصور والتماثيل ، فإن أفراد المجتمع المغولي يجلون ويقدسون أشياء أخرى . من هذه الأشياء – كما قال مؤرخنا المسلم ابن الأثير – الشمس . هذا بالاضافة إلى القمر ، والنار ، والماء ، والأرض . ويعبرون عن تبجيل وتقديس هذه الأشياء بتقديم الطعام والشراب لها أولاً ، وقبل أن يأكلوا أو يشربوا ، وبخاصة في باكورة يومهم ؛ أي في الصباح . إن هذا النوع من التعبد يكاد يكون النمط العام المتبع لدى كل مجتمع بدوي ؛ حيث يتأثر بما يراه في حياته اليومية في السهول المنبسطة ، من أجرام سمائية ،

---

(١) Prof. J.A.Boyle, "A Form of Hors Sacrifice Among the 13th and 14th Century Mongols"; Central Asiatic Journal, 1965, X, 3-4, PP: 145-150. Also: Carpini "History of the Mongol" Ed. Dawson, PP: 8-9; Rubruck, "The Journey..", P: 140; also Ed. of Rockhill, PP: 80-82; J.J. Sauders, "The History of the Mongol Conqests" PP: 13-14.

وما يطرأ عليها من تغيير ، وما يحدث في السماء من برق ، ورعد ؛ ثم ما ينتج عنهما من عواصف رعدية وأعاصير ممطرة بغزارة .

لذلك نجد أن كل هذه الأشياء خلقت لدى الفرد البدوي – وبخاصة المغولي – الخوف والرهبة أمام هذه الأشياء بظواهرها الطبيعية . وكنتيجة لهذا نجدها خلقت عنده تقديساً وتبجيلًا للكثير منها(١) .

فعندما يكون القمر هلالاً ، أي في أول ليلة من ليالي الشهر ، أو عندما يصير بدراً ، فإن المرء المغولي يشرع في أي عمل أو مهام يريد أن ينجزها . لهذا فالمغول يسمون القمر «الامبراطور العظيم» ، وينحنون إليه تقديساً وتبجيلاً ، وذلك بثني الركبتين ، ثم يُصَلُّون له ؛ كما يقولون عن الشمس بأنها أم القمر ، لأنها تمده بالنور الذي نراه عليه .

أما بالنسبة لعبادتهم للنار وتقديسهم لها ، فإنهم يعتقدون بأن أي شيء ، حيوان أو انسان أو جماد ، لا يطهر إلا بالنار . لذلك فهي إله منقٍ لكل شيء من كل شائبة ، أو أي ضرر أو أي أعمال سحرية ، ربما تكون قد أودعت في ذلك الشيء . لهذا نرى المغول يجبرون كل فرد من خارج مجتمعهم ، قدم إليهم لأية مهمة كانت ، سياسية أو تجارية أو دينية ، أن يمرروه بين نارين متقدتين ، ومعه ما كان يحمله من هدايا أو متاع ، مهما كانت مرتبته أو مركزه الاجتماعي بين قومه . لأن النار – في زعمهم – تنقيه من أي شائبة عالقة به ، كالسم أو السحر أو الشعوذة ، أو من أي عمل قد يراد به الحاق الضرر بالرئيس المغولي ، أو بأي فرد منهم ، أو الإضرار بحيواناتهم . وعندما يصاب أي انسان منهم ، أو حيوان من حيواناتهم ، بشهاب من السماء ، كضربة نارية من برق (وهذه الأشياء تحدث في منغوليا بكثرة نظراً لشدة تطرف المناخ) فإنهم يعتقدون أن ذلك الانسان أو الحيوان نحس وغير طاهر ، وإنه نجس ؛ لهذا

---

(١) J.J. Saunder, "The History of the Mongol Conquests",P: 14.

فإنه يتحتم عليهم أن يطهروه بالنار، وذلك بأن يجعلوه يمر بين نارين متقدتين، فتطرد حرارتها كل شيء شرير يعتقدونه عالقاً به، أو مستحوذاً عليه.

أما ما يعتقده المغول عن الآخرة فيقول «جون الكربيني» : إنهم لا يعرفون عن الآخرة الشيء الذي يعرفه هو ، ولا عن العذاب السرمدي بعد الموت ، وما يجري لهم في الحياة الآخرة . ولكنهم يعتقدون بأنه بعد الممات ؛ سوف يعيش المرء منهم حياة ثانية في عالم ثان ، وإن مواشيه ، وحيواناته ، سوف تتضاعف وتزيد أعدادها ؛ وإنه سوف يأكل ويشرب ويقوم بجميع الأعمال التي كان يقوم بها في هذه الحياة الدنيا ؛ وأنه سيكون له أسرة ، وسيصبح في مجتمع عالمٍ آخر ، كما كان عليه حاله في عالمه الأول أثناء حياته . وهذا ما سنتكلم عنه في «اعتقاد المغول في الحياة الآخرة»[1] . تحت عنوان «عقيدة المجتمع المغولي فيما بعد الموت» . لقد كتب الدكتور جواد علي عن أديان العرب وأشار إلى أديان غيرهم ، فيستطيع الباحث والقارىء العزيزين الرجوع إلى ذلك للمقارنة[2] .

٢ – تسامح المغول الديني ونظرتهم تجاه الأديان الآخرى :

بعد أن خرج المغول من عزلتهم الاجتماعية من وراء تلك الحواجز الطبيعية المحيطة بهم ، من جبال وصحاري ، والتي مر معنا ذكرها فيما سبق ، وسيطروا على شعوب ذات أديان مختلفة ونحل شتى ، لم يثبت أن القادة المغول أجبروا أمة من الأمم ، أو مجتمعاً ، ممن أخضعوهم تحت نفوذهم ، باعتناق الديانة المغولية ، أو إجبارهم على اتباع دين بعينه من أديان الأمم التي كانت خاضعة لهم . فقد عرف عن المغول التسامح الديني ، لدرجة تفوق كل تصور ؛ ولا أدل على ذلك من حقيقة واحدة ، وهي أنهم تركوا لشعوب الدول ، التي غزوها وأخضعوا

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol'' Ed. Dawson, P: 12.

(٢) أنظر جواد علي «المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام» ، بيروت ، ١٩٧٠ ، جـ٦/ص.ص : ٥ وبعدها .

سكانها تحت نفوذهم ، الحرية في انتهاج الدين الذي يرتضونه ، بل نجد أن المغول أنفسهم يتأثرون بديانات•تلك الشعوب التي خضعت لهم ؛ بمعنى أن المغولي ترك دين الآباء والأجداد في داخل وطنه الأصلي في منغوليا ، واعتنق دين البلد الذي حل فيه بالغزو ، في أول الأمر ، ثم أحد سكان هذا البلد أو ذاك القطر فيما بعد .

أما ما كان يجري في داخل البلاط المغولي ، فقد كانت العاصمة المغولية «قرا – قروم» مكتظة بأناس من أتباع ديانات مختلفة (سمائية كالدين الاسلامي والديانة المسيحية واليهودية أو وثنية كالشامانية والمغولية ، والبوذية ، والمانوية ، والزرادشتية ، والكونفوشيوسية) . وكان أتباع كل دين ، أو مذهب وثني قد صنع له مكاناً يتعبد فيه بالطريقة التي يرتضيها ، ولديه أوامر الخان الصارمة بألا يحاول أن يتطاول أو أن يلحق الأذى بأتباع أي مذهب أو دين آخر ؛ وكانت عقوبة ذلك الجرم هي الإعدام ، دون ما شفقة أو رحمة . وهذه الحماية ، من الأمبراطور المغولي ، دليل واضح على تسامح المغول ، وحمايتهم ، في حرية التعبد .

كان الخانات المغول يأمرون بعقد اجتماعات دينية في مجالسهم ، يحضرها كبار رجال الديانات السمائية وغير السمائية ، التي سبق ذكرها ، فيتناظرون في نقاش طويل فيما بينهم . لذلك فكل عالم في دينه لديه من حجج وبراهين على صحة معتقده ، فيحاول بكل جهد للظهور على خصومه . وخلال تلك المناقشات لم يثبت أن الخان تعصب لدين معين ضد آخر . وتقول التقارير في هذا الخصوص ، أن الخان كان يصدر أوامره الصارمة ، قبيل أن تبدأ المناظرة الدينية في هذا الموضوع ، بألا يسيء أحد إلى أحد ، وإلا فإن صاحب الإساءة سوف تنزل به عقوبة الموت ، دونما شفقة أو رحمة به .

يحدثنا الرحالة والسفير الأوربي «ويليم الربركي» وقد شاهد هذا

النوع من المناظرة الدينية ، وحضرها وشارك فيها بشكل أو بآخر ، وقد جرت بين علماء الدين الاسلامي وأتباع الديانة المسيحية والبوذية ، أن «منكوقا آن» دعا إلى هذه المناظرة ، وإنه أصدر أوامره إلى المتناظرين سلفاً ، وقبل أن تبدأ المناقشة ، بألا يتجرأ أحد على التعدي على أحد ، وألا يتطاول على خصمه ، أو أن يسيء إليه بأية كلمة نابية ، وألّا يحدث ما يعوق المناقشة ، ومن فعل شيئاً من هذا فإن عقوبة هذا الذنب هي الموت[١] .

ثم بعد تلك المناقشة الدينية ، بين علماء الأديان في بلاط «القاآن» في عاصمة المغول «قرا – قروم» نجد أن الخان يعلن أمام المجتمعين عن طبيعة معتقده ودين المغول ، فلا يجبر أحداً على إتباعه ، حيث يقول : «نحن المغول نؤمن بأنه لا إله إلا رباً واحداً ، به نحيا ، وبه نموت ، وإليه نتجه بقلوب مستقيمة ؛ ولكن بما أن الرب خلق أصابع مختلفة لليد الواحدة ؛ فإنه كذلك أعطى للناس طُرقاً مختلفة (في كيفية التعبير له عن عبادتهم تجاهه)»[٢] .

يحدثنا المؤرخ المسلم «عطاء ملك الجويني» أيضاً في هذا الشأن ، عن التسامح عند المغول في حرية الأديان والمتدينين ، فيقول : إنه على الرغم من أن الخان المغولي (وهو يعني «جنكيزخان») لم يكن مناصراً لأي دين على آخر ، كما لم يكن من أتباع أية ملة بعينها[٣] ، فقد تحاشى كل تعصب ديني أعمى ، وتجنب تفضيل دين على دين ، أو رجحان بعضها على البعض الآخر . بل إن رجالَ العلمِ ، وزُهّادَ كل طائفة دينية أو مذهبية في حقيقة الأمر ، كانوا يحظون منه بكل إكرام وإعزاز وتبجيل . فكما إنه ينظر إلى المسلمين بعين التبجيل والتوقير ، فإنه كذلك يكن تقديراً عالياً لأتباع الديانات الأخرى ، المسيحيين ، وعُباد الأوثان على حد سواء[٤] .

---

(١) Rubruck, "The Journey..", Ed. Dawson, P: 189-195;

(٢) نفس المصدر السابق ، ص : ١٩٥

(٣) لعل الجويني يقصد بأن هذا الخان لم يكن من أتباع دين سمائي معين ، إذ يعتبره وثني الديانة .

(٤) الجويني ، «جهانكشاي» جـ١/ص : ١٨ ، الطبعة الانجليزية ، جـ١/ص : ٢٦ .

نظراً لتلك السياسة التسامحية ، التي كان ينتهجها القادة المغول ورجالهم ، فإننا نجد أنهم قد تأثروا بغيرهم من الأمم والشعوب التي أخضعت لهم ، وأصبحت جزءً من إمبراطوريتهم الواسعة ، فالزعماء المغول ، وبنو جنسهم ، والذين فتحوا الأراضي الصينية (الشمالية منها والجنوبية) والهند الصينية ، أصبحوا من أتباع ديانات تلك الشعوب ، «كالبوذية ، والكونفوشيوسية الصينية» وغيرها . كما أن أولئك الذين أخضعوا أجزاءً كبيرة من أراضي العالم الاسلامي ، وإعتنقوا الدين الاسلامي ، وبخاصة أحفاد «جنكيزخان» من أسرتي «جوتشي خان» (وهو الأبن الأكبر للخان المغولي) . وكونوا لهم دولة إسلامية في «أقاليم القبتشاق أو (القفجاق)» ، وهي التي عرفت في التاريخ بإسم «القبيلة الذهبية» . ومن أسرة «تولي خان» (وهو الأبن الأصغر لجنكيزخان» ، وهم الذين كونوا لهم دولة إسلامية أيضاً في إيران والعراق ، وعرفت في التاريخ بـ «الايلخانيين» . وكذلك إعتنق الاسلام أحفاد «تشغتاي» (وهو أبن «جنكيزخان» الثاني) في إقليمي ما وراء النهر والتركستان . وقد كان للمغول المسلمين الفضل الكبير في إنشاء دولة إسلامية في شبه القارة الهندية ، وإنشاء حضارة إسلامية في تلك البلاد المترامية الأطراف[1] .

بالأضافة إلى ذلك ، نجد أن المغول الذين حكموا في أقاليم أواسط آسيا ، اعتنقوا الديانة المسيحية ، على المذهب النسطوري ، المنتشر هناك ، منذ ما يقرب من أربعة قرون سابقة . بينما نجد أن أولئك الذين ظلوا في منغوليا ، بقوا على ديانة الآباء والأجداد .

يحدثنا «الجويني» قائلاً : أن العديد من أبناء وأحفاد «جنكيزخان» قد إختاروا الديانة التي إرتضاها كل واحد منهم ، حسب ميوله ، وما يراه

---

(١) لمعلومات عن أبناء «جنكيزخان» ، وكيفية تقسيم إمبراطورية هذا الخان عليهم ، راجع كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ١٤١ - ١٤٣ ، وما ورد في هوامش تلك الصفحات من مصادر ومراجع هذه المادة .

هو إنه صائب ؛ فبعضهم اختار الاسلام ديناً له ، وآخرون اعتنقوا المسيحية ، وبعضهم انتقى الديانة الوثنية ، كما أن قوماً غيرهم ظلوا متقيدين بديانة الآباء والأجداد ، وملتزمين بها ، ولم يحيدوا إلى غيرها من الديانات الآخرى . وهذه الفئة أصبحت الآن أقل المجموعات الاخرى . ومع ذلك ، فرغم أنهم قد تبنوا ديانات كثيرة مختلفة ، فإن الغالبية الساحقة منهم كانت تتجنب كل ما من شأنه إظهار تعصب ديني أو مذهبي ، ولم ينحرفوا عن «ياسا جنكيزخان» يعني إعتبار جميع الأديان كدين واحد في المعاملة، ودون تمييز بينها، أو تفضيل واحد على الآخر[1] .

إن سياسة التسامح الدينية التي كان ينتهجها «جنكيزخان» وأبناؤه وأحفاده من بعده ، كما رواه لنا الرحالة الغربيون – في هذا الشأن – ثم ما ذكره الجويني في روايته السابقة – من أن هؤلاء المؤرخين دونوا معلوماتهم عن ديانة المغول كشاهدي عيان – كل ذلك يناقض بالكلية ماأورده المؤرخ الملطي الأرمني «ابن العبري» حول سياسة «جنكيزخان» التي يدعي المؤلف بأنها كانت محابية للديانة المسيحية ، وأنه كان يميل مع أتباعها ، على حساب أتباع الديانات الأخرى[2] .

يبدو لنا أن رواية ابن العبري هذه حول محاباة «جنكيزخان» للديانة المسيحية ، مثلها في ذلك مثل ماأورده الجوزجاني من أن جنكيزخان وحفيده الأكبر كانا مسلمين ؛ حيث يذكر بأن ذلك الحفيد ، «باتو بن جوجي» ، كان يبطن الاسلام ويظهر الوثنية[3] . وهذه الروايات المتضادة تدل على التسامح الديني ، الذي اشتهر به المغول ، حتى أن المرء

---

(١) أنظر الجويني ، «جهانكشاي» جـ١/ص.ص : ١٨ – ١٩ ، وكذلك الطبعة الانجليزية ، جـ١/ص : ٢٦ .

(٢) «ابن العبري» ، أبو الفرج الملطي ، «تاريخ مختصر الدول» ص. : ٢٣٠ .

(٣) الجوزجاني ، طبقات ناصري ، جـ١/ص.ص : ٧٦ – ٧٨ ، الترجمة الانجليزية ، جـ٢/ص.ص : ١١٧٢ .

من أتباع هذه الديانة ، أو تلك ، يظن بأن الخان ، أو أي أمير مغولي ، يؤمن بديانة ذلك المرء ، عندما يشاهد تسامحه مع دينه ويتعامل معه .

٣ - رجال الدين في المجتمع المغولي* :

يستطيع الإنسان المغولي أن يتعبد إلى ربه بطريقته الخاصة مباشرة ، وبدون أن يدخل وسيطاً بينه وبين معبوده ؛ ومن ثم مزاولة ما يعتقده صائباً في حياته اليومية ، من تقديم القرابين وغيرها إلى التماثيل والصور . ومع ذلك فإن الكاهن ، أو العَرَّاف المغولي ، ومايقوم به من أعمال سحرية وشعوذة ، يلعب دوراً بارزاً في حياة المجتمع المغولي في هاتيك الديار . فالعرافة ، والكهانة ، والسحر ، والشعوذة ، والرقية ، والتعاويذ ، والتعزيم ، كل هذه الأشياء تكاد تسيطر على حياة أفراد الشعب المغولي . يقوم بهذه الأعمال رجال ، أو ربما تكون امرأة ، كوسيط بين الإله المعبود ، والعابدين له ؛ حيث تقوم هذه الوساطة ، بشكل أساسي ، في أن الفرد منهم يعتقد بأن ربه «تنكري» الذي يتربع فوق السماء الزرقاء ، على إتصال دائم بهذا الشخص ، الذي هو الكاهن ، حيث يسمى : بـ «تب - تنكري»[١] . إذ أنهم يعتقدون أن الرب يوصل تعليماته إلى هذا الشخص ، وهو بدوره ينقلها إليهم ، فهو إذاً يمارس هذا النوع من العرافة ، التي عُرِفَت في التاريخ المغولي بـ «الشامانية» ويدعى الشخص الذي يقوم بها «شامان» ، ويسميه المغول بـ «كام»[٢] .

يلعب هذا العَرَّاف دوراً مهماً في حياة الناس اليومية ، حيث يولونه إهتماماً عظيماً ، وإحتراماً زائداً ؛ ويصدقونه فيما يأمر به ، أو ينهى عنه ،

★ سبق أن نشر جزءٌ من هذا الموضوع في مجلة الحرس الوطني ، العدد ١٢ ، السنة الثالثة ، ربيع الثاني ، ١٤٠٣هـ بعنوان «من غرائب المجتمع المغولي» وقد أُعيد النظر فيه فأضيف إليه كل ماستجَد ، وجعل في هذا الموضوع في مكانه المخصص .

(١ - ٢) سبق لنا ذلك . أما «تب - تنكري» فهي كلمة تركية مغولية تعني الشخص الرباني ، أو المعظم ، أو المقدس . أنظر : B. Spuler ''History of the Mongol'' P: 26; J.A. Boyle, ''The Shamamesim'' London, 1972, P: 177-193.

ومايقوله ؛ ويعتقدون فيما يتنبأ به ، ويعتبرون ذلك صادراً من الرب «تنكري» الذي يعتقدون أنه يتكلم إلى هذا الكاهن . وقد خلق له في قلوبهم ، هيبة عجيبة ، وخوفاً شديداً . لذلك يقدمون له التقاديم ، فيقدمون له جزءً من طعامهم وشرابهم ، قبيل أن يشرعوا هم في تناول ذلك أنفسهم . كما يتقيدون بما يأمر به ، أو ينهى عنه[1] .

أما مايتعلق بمدى ماكان يتمتع به أولئك العرافون «تب – تنكري» أو «الكامات» من مكانة في المجتمع المغولي ، فيحدثنا الراهب «وليم الربركي» عنهم بشيء من التفصيل . حيث يقول بأنه يوجد أعداد كبيرة منهم ، ولابد من رئيس يرأسهم ، وهو بمثابة رئيس الكهنة ، وهو يقيم منزله على الدوام أمام منزل الخان ، أو الرئيس المغولي ، أو كبير العشيرة ، على بعد مرمى حصاة منه . كما أن جميع التماثيل المجسدة ، التي تحملها عربات خاصة ، تكون عنده ، وتحت حراسته . أما الكهنة المرؤوسون فيجعلون منازلهم في أماكن معينة لهم ، إلى الوراء من المكان الذي يسكنه كبير القوم ، إذ أنه يقوم بزيارتهم أناسٌ من مختلف الطبقات ، وشتى المناطق ، فيضعون ثقتهم في كل مايقولون أو يأمرون به .

ثم يردف «وليم» القول بأن بعض أولئك العرافين ، وخاصة الرؤساء منهم ، مهرة في علم النجوم ؛ ومن جملة الأشياء التي يستطيعون الاطلاع عليها التنبوء بكسوف الشمس ، وخسوف القمر . ونعلم مدى حب وتعلق المجتمع المغولي بذلك النجم وهذا الكوكب ، لذلك عند التكهن بأن ذلك سيقع ، فإنهم يقومون بإعلام الناس بما سيقع ، حيث يقومون بعمل الترتيبات اللازمة ، والاستعداد لذلك الحدث . فيقومون بتخزين طعام وشراب بكميات كافية ، حتى لاتدعو الحاجة إلى الخروج إلى خارج المساكن أثناء الكسوف ، أو الخسوف .

---

(١) Carpini, "The Mongol History", Ed., Dawson, 12.

وفي فترة الكسوف يقوم المغول بالضرب على الدفوف ، والعزف على آلاتهم الموسيقية ، فيخلقون صراخاً وجلبة عظيمين . وعندما ينتهي الكسوف ، فإن ذلك يعتبر مناسبة سعيدة ؛ ولذلك يعملون احتفالاً بهذه المناسبة ، حيث يقضون وقتاً في الأكل والشرب ، وإقامة حفلة كبيرة ؛ فيغنون ويرقصون .

كما يقوم العرافون أيضاً بإعلام الناس بالأيام الملائمة ، وغير الملائمة ، للقيام بتنفيذ عمل ما ، أو الإحجام وعدم القيام به ، لذلك ، يرى «ويليم» بأنه نتيجة لهذا فإن القادة المغول لا يقومون بأي عمل عسكري ما لم ير الكاهن أن الوقت أصبح مناسباً للقيام بتلك الحملة العسكرية ، لهذا – وعلى حد تعبير الرحالة – فقد عقد القادة المغول العزم على العودة إلى «هنكاريا» أراضي المجر ، إلا أن العرافين والكهنة منعوا قيام تلك الحملة ، وذلك لعدم ملاءمة الوقت[١] . وقد أورد المؤرخ الأرمني المعاصر «كيراكوس الأكنكي» عن العرافين (نساءً ورجالاً ، وعن السحرة والمشعوذين) كلاماً بالمعنى نفسه الذي أورده «ويليم الربركي»[٢] .

من الأعمال التي يقوم بها العرافون أيضاً، أنهم يقومون بالذهاب إلى منازل الخانات أو الرؤساء، أو الناس الأثرياء، حيث يقضون معظم أوقاتهم هناك، لقراءة التعاويذ، ومايتعلق بمهامهم في هذا الشأن؛ أما الفقراء فلا يحظى أحد منهم بنصيب من زيارة العرافين أو الكهنة. ومن واجباتهم أيضاً أنهم يبحثون عن الأماكن المناسبة لأقامة المساكن، عندما يأتي الوقت الذي يرتحلون من مكانهم السابق إلى مكان غيره. حيث يسيرون في طلائع القوم لإرشاد القافلة، التي تحمل المنازل أثناء الإنتقال، ثم يختارون المكان المناسب فيحطون رحالهم، ويحط الناس من بعدهم على غرارهم[٣] .

---

(١) Rubruck, "The Journey..", 197.

(٢) J. Boyle, "Kirakos of Kanjak and the Mongols" Central Asiatic Journal, VIII, P: 208.

(٣) Rubruck, "The Journey..", Ed. Dawson, 141.

ثم إن رشيد الدين يحدثنا عن العراف «تب – تنكَري» فيقول بأنه أصبح من عادته أن يقدم الأخبار عن الأشياء التي يخفى علمها على الناس ، والشؤون الغيبية ، فيقول : «...إن الآله يتكلم معي ، وإنني أصعد إلى السماء» . إلا أن المؤرخ – وهو محق في ذلك ، كرجل مسلم – يرفض ما يدعيه «تب – تنكَري» بإعتبار ذلك إدعاءات يقوم بها السوقة ، ومبالغة الرعاع ، وإنه مجرد كذب ، جرى عليه الكاهن ، لتضليل الناس ، والتلاعب بعقولهم ؛ ليعتقدوا فيه ، وخاصة ما يتعلق بمسألة ما يدعيه المغول ، في جميع طبقاتهم ، من أن «تب – تنكَري» يصعد إلى السماء وهو ممتط صهوة جواد أبيض[1] .

لعل السبب الرئيس ، الذي جعل «تب – تنكَري» يسيطر على عقول الناس وإعتقادهم في صدق ما يخبر به ، وأنه يتكلم إلى الآله ، هو حذقه في إتقان أعمال سحرية وبهلوانية تظهر أمام الناس . فمن ذلك ما يرونه من قدرته العجيبة في تحمل الحرارة الشديدة ، والبرودة القارسة . فيحدثنا كل من رشيد الدين والجويني ، حول هذا الموضوع ، بأنه سمع من رجال مغوليين ثقات أن «تب – تنكَري» كان يسير في أشد أشهر البرد ، وفي أكثر المناطق برودة – في الصحاري والجبال – وهو عار ، ودون أن يكون على جسمه شيء يتقي به البرد القاتل ؛ ثم إنه كان يجلس عاري الجسم في وسط نهر متجمد من شدة البرودة في أشد أيام الشتاء ، فيتصاعد بخار الماء الذائب من حرارة جسمه ، ثم يأتي ويدعي بأن الإله قد تكلم إليه . فيكبرونه ويجلونه ، لأن الرب حماه من البرودة ، حسب زعمهم .

أما قدرته على تحمل الحرارة ولذع النار ، فإنه يستطيع – حسب زعمهم – أن يضطجع بجانب نار ملتهبة في كومة كبيرة من الحطب دون أن يكترث للحرارة المنبعثة منها . أما الجمرات والشهب التي تتطاير

---

(١) رشيد الدين ، «جامع التواريخ» الترجمة الروسية الكاملة ، نقل عنها الأستاذ الدكتور ج.أ.بويل في كتابه عن الشامانية التركية في العصور الوسطى ص : ١٨١ .

وتتساقط على جسمه ، من النار المشتعلة ، فإنه لا يأبه بها ، ويكون رد فعله الوحيد تجاه ذلك هو أن يحك المكان الذي وقعت عليه جذوة أو شهاب أنبعث إليه من تلك النار . أما إذا إستيقظ من سباته للحظة قصيرة من آثار الجمر المتساقط على جسده ، فإنه يتصرف كشخص كان يظن بأن حشرة صغيرة قد قرصته ، فيحك جلده ، ثم يعاود النوم ثانية ، بلا مبالاة[1] .

كذلك نجد أن من واجبات العراف ، أو من الأعمال التي يقوم بها ، الحضور عند كل مريض ، كبيراً كان أم صغيراً ، لقراءة التعاويذ ، وإعطاء الرقي والتعازيم؛ ثم ينبيء بمدى خطورة ذلك المرض ، وعما إذا كان مرضاً عادياً ، أم إنه حصل عن طريق سحر ، أو شعوذة ، يراد بها إيذاء ذلك الشخص الذي وقع مريضاً . كذلك فإن العراف يستدعى عندما يولد طفل جديد ليخبر أهله - بزعمهم - عن مستقبل حياته .

كذلك يقوم الكهنة والعرافون ، رجالاً كانوا أم نساءً ، بالاشراف على عملية التطهير ، أو التنقية بالنار . فعندما يلمس الفرد منهم النار بسكين ، أو يقترب بقطعة حديد من النار ، أو يكسر خشباً بالقرب منها (حيث يعتقدون أن هذه الأعمال تحرمهم من وجود النار أو الخشب) ، أو يتكيء المرء منهم على السوط الذي يضرب به الحصان ، أو يلمس القوس بالسوط ، أو يقتل الطيور الصغار ، أو يضرب الخيل بلجامها ، أو يكسر عظمة بعظمة أخرى ، أو يهرق حليباً أو لبناً أو ماءً ، أو أي نوع من أنواع الشراب ، أو يتلف طعاماً بإلقائه على الأرض ، أو يتبول داخل المسكن ، كل هذه الأعمال تعتبر ذنوباً ، فإما أن يُقتَل الجاني ، وإما أن ينقىٰ بالنار ، وذلك بأن يمرره العراف بين نارين متقدتين . ولقاء ذلك

---

(١) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ؛ أنظر كذلك ، علاء الدين عطا ملك الجويني ، «جهانكشاي» جـ١/ص : ٢٨ .

فإنه يدفع للكاهن أشياء كثيرة لقيامه بهذه الخدمات[1] .

كما نجد أن العراف له مصادر مالية ، أو بالأحرى ، مصادر عينية يعيش عليها ، فإنه بالاضافة إلى ما يقدمه أولئك المذنبون له ، لقاء إعفائهم من عقوبة الموت ، بتطهيرهم من الذنب ، فإنه يحصل على نصيب مفروض لقيامه بالعمل نفسه «التطهير بالنار» . فكل شيء يرد إلى الخان ، المغولي أو رئيس العشيرة ، من هدايا وتقاديم ، وغيرها ، فإنه لابد أن يطهر وينقى بإمراره بين نارين ، ويقوم العراف بالاشراف على ذلك بنفسه . كذلك فإن الحيوان الذي يمرر بين تلك النارين ويقع بينهما ، فإنه يصبح ملكاً للكاهن . وفي أوائل أشهر فصل الربيع من كل عام ، يقوم العرافون بحبس كل فرس بيضاء ، ثم يجعلها وقفاً مقدساً لهم . فهي ملكهم ، ويزعمون أنها ملك للرب «تنكري» .

لذلك نجد أن الكاهن يحصل على أنواع شتى مما يملكه المغول ، من حيوان ، ومتاع ، ومأكل ومشرب ، وملبس ؛ حيث يقدمها الأفراد له لقاء تأدية تلك الخدمات[2] .

مع تلك المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها الكاهن ، أو العراف ، في الأوساط الاجتماعية المغولية ، فإننا نجد أنه يكون في بعض الأعمال التي يقوم بها شيء من الاستبداد ، ومحاولة الوشاية ، للايقاع بين الناس ، وبخاصة من أولئك الذين يحاولون الحد من مكانته ، أو تحدي سلطته الروحية . إلا أنه في نهاية الأمر يكتشف ، فيصبح هو الضحية . ولكن لا يحصل شيء من هذا القبيل إلا في حالات نادرة ، وبعد أن تتضافر جهود أفراد المجتمع ، وبشكل جماعي ، لأنه يصعب إقناع كافة طبقات المجتمع ، حتى يثبتوا جرم الكاهن .

لعل إيراد حادثة واحدة ، تتعلق بجنكيزخان وأحد إخوته ، قد تلقي

(١-٢) Carpini, ''The History of the Mongol'' Ed., Dawson, P: 11; Rubruck ''The Journey..'' Ed. Dawson, PP: 198-210.

الضوء على مدى سلطة الكاهن أو العراف ، ومدى تصديق ، ليس أفراد الناس العاديين له ، بل كبار وعلية القوم ؛ ثم كيف أطيح بذلك العراف ، لإيقافه عند حده ، وعدم السماح له بإنشاء سلطة ونفوذ له فوق نفوذ رئيس القوم «جنكيزخان» . وقد أورد هذه الحادثة صاحب كتاب «تاريخ المغولي السري» ، حيث بدأت المسألة بين أحد أخوة «جنكيزخان» وإسمه «جوجي قسار» وبين العراف «تب - تنكَري» وأسمه «ككتشو» .

كان «ككتشو» هذا هو الابن الرابع ، من بين سبعة أبناء لشيخ كبير السن أسمه «منكليك» ، من كبار رجال عشيرة «خنكختان» . وقد إمتهن هذا الابن مهنة العرافة أو الشامانية ، حتى أصبح ذا شأن بين أفراد مجتمعه . فكون مع إخوته الستة كتلة متحددة للايقاع بمن يرونه عدواً لهم ، أو بمن يحاول الحد من سلطتهم ، أو مكانتهم الخاصة لدى المجتمع الذي يعيشون فيه .

في ذات يوم تجمع الأخوة، فضربوا «جوجي قسار»، وهو أخو جنكيزخان الصغير، فذهب ليشتكي إلى أخيه طغيانهم؛ إلا أن أخاه (الذي كان حينئذٍ الخان، ولم يكن قد أعلن كخان أعظم للمغول بلقب جديد «جنكيزخان» أنَّبه حينما لم يستطع الدفاع عن نفسه، أو أن يثأر منهم لكرامته. فذهب واختفى عن الانظار أياماً ثلاثة، حيث كانت مدة كافية لذلك العراف أن يذهب إلى «جنكيزخان» ليوقع بين الأخوين، فأوشى إليه قائلاً: «... إن ملاكاً أحضر رسالة من الرب «تنكَري» الخالد مخبراً فيها بأن تيموجين (يعني «جنكيزخان» سوف يكون الحاكم الأعلى في قومه لوقت معين فقط، لأن أخاه جوجي قسار سيخلفه في ذلك المنصب من بعده ...». وهنا نصح العراف «جنكيزخان» بسرعة التخلص من أخيه «جوجي قسار» لئلا يرث الحكم من بعده، ويدع أبناء «جنكيزخان»، وإلا فإن أحداً لا يستطيع أن يتنبأ بما سيقع، على حد قول العراف.

يقول التقرير بأن «جنكيزخان» ذهب في تلك الساعة نفسها للبحث عن أخيه ، الذي اختفى عن الأنظار طول تلك الثلاثة أيام ، فعثر عليه وأحضره ، وأخذ يحقق معه ، ذلك التحقيق الذي سينتهي - كالعادة - بالحكم على الجاني ، أو المتهم ، بالاعدام . وخاصة أن الجاني شهد عليه العراف ، وشهادته مؤيدة من الاله «تنكَري» ، فلم يرق الشك فيما يدعيه هذا العراف ، فقوله صادق لا محاولة ، خاصة أن الأمر يتعلق بمسألة مجد وحكم . كان «جنكيزخان» قد إنتهى تقريباً من التحقيق ، فجرد أخاه من ملابسه ، وكان ، إلى حد كبير ، سيصدر الحكم عليه بالاعدام ، لولا أن الخبر قد وصل إلى أمهما «هوئلون» التي أصابها الذعر والهلع على ما سيحكم به «جنكيزخان» على أخيه . فأسرعت إليه ، وتدخلت في الأمر . وبعد توسل وتضرع من جانب الأم أقلع أبنها الأكبر عن إصدار حكمه في الوقت الراهن ، فرأى تأجيله ، إرضاء للأم الوجلة والولهانة على إبنها ، الذي ثبت جرمه ، حسبما أفاد بذلك «تب ـ تنكَري» برسالة جاءت من «تنكَري» .

أطلق سراح الأبن الأصغر ، ولكن أخاه الخان جرده من كل ما تحت يده من رجال وأتباع ، إما خوفاً من ثورة أخيه ، تصديقاً لما جاء به العراف ، وإما لأن ذلك خطوة أولى للتخلص منه بصفة نهائية ، وبشكل تدريجي . لذلك نجد الأم تأخذ الشيخوخة منها كل مأخذ ، وبدأت تهرم بسرعة لهذا السبب ، ومع ذلك ، فقد طرأ حادث آخر من هذا النوع ، فقد جاء الأخ الأصغر لجنكيزخان وإسمه «تيموج» ليسترد بعض ما أخذه الأخوة الستة وأخوهم العراف من رجاله بالقوة ، فقبضوا عليه وشرعوا في إذلاله ، وإهانته على ملأ من قومهم . فقد أجبروه أن ينحنى أمامهم ويعترف بأنه أرتكب خطأ لأنه طالب بإعادة أتباعه من الأخوة الستة ، وفوق هذا من أخيهم العراف .

إن صحت الرواية في هذا التقرير ، فإن العراف وإخوته الستة كانوا

يخططون للقيام بثورة عارمة – مستغلين تلك المكانة المرموقة والسلطة التي يتمتع بها أخوهم العراف – ضد «جنكيزخان» ومن ثم الاطاحة به ونبذ الطاعة له ، وذلك بعد أن أغروا العديد من العشائر والقبائل المغولية بالانضمام إليهم ، فنجحوا في ذلك ، وأصبح مجموع أتباعهم يفوق مالدى جنكيزخان بكثير .

رجع «تيموج» إلى أخيه الخان ، فاشتكى مما فعله الأخوة الستة ، وتشجيع أخيهم العراف ، ضده . وهنا تدخلت زوجة «جنكيزخان» «بُرْتِه» فأنَّبت زوجها على إهماله ، والسماح للآخرين بإهانة أخوته ، والتوسع في بناء قوتهم على حساب قوة الخان . وهنا قرر الخان أن يفعل شيئاً ماضد هذا العراف ، وذلك بوضع كمين من المصارعين للايقاع به عندما يأتي العراف ووالده وأخوته كالعادة إلى منزل الخان .

عندما شرع القوم في إحتساء الشراب تناول «تيموج» العراف من عنقه ، وجره إلى الخارج ، حيث كان قد أرصد له ثلاثة رجال أشداء مشهورين بقوة الأبدان وحرفة المصارعة ، وهنا قضوا على العراف بكسر ظهره ، وقذفوا بجثته إلى خلف منازل الحي . حاول الأخوة وأبوهم الانتقام من «جنكيزخان» لمقتل العراف إلا أن الخان قد تحسب لذلك ، فأرصد حراسه وأتباعه ، فاستطاعوا أن يتغلبوا عليهم ، فتمكن الخان من السيطرة على زمام السلطة .

وقد أنَّب الخان الأب «منكليك» لتساهله في تربية أبنائه الستة ، والسماح للعراف بمحاولة توسيع نفوذه على حساب نفوذ الخان ، صاحب السلطة في القوم . كما أنَّب نفسه ، وأظهر الندم ، حيث سمح لنفسه بأن يستبقى أشخاصاً مثلهم على قيد الحياة ، ولم يَقْضِ عليهم مع من قضى عليهم بالموت منذ سنوات ، على ماكان يقوم به العراف ، وإخوته من أعمال لا تخدم الخان ولا مصلحة المجتمع المغولي . ولكنه كان ، على الدوام ، يصدقهم في وعودهم بحسن النية ، وصدق الولاء ، وإخلاص الطاعة لما يأمر به .

ثم يختتم صاحب الرواية كلامه بالقول : «..، ومع ذلك ، فإن الذي يغير في المساء ما سبق وقاله في الصباح ، ثم يحيد في الصباح عما وعد أن يفعله في المساء ، لخليق به أن يشعر بالذلة والهوان ، ويستحق ما يتكلم به الناس من سوء الحديث عنه .. ، وقد أصيب «منكليك» وأبناؤه بوصمة عارٍ ألصقت بهم بعد أن قتل العراف ..»[1] .

٤ - عقيدة المجتمع المغولي فيما بعد الموت :

للمجتمع المغولي نظرة معينة ، وعقيدة خاصة تجاه الفترة التي تلي فترة حياته في هذه الدنيا ، أي فيما بعد الموت ؛ فهو ، كأي مجتمع بشري عاش ويعيش على هذه الأرض ، شديد الربط بين حياته الأولى وحياته الثانية ، وقد يختلف بطريقة أو بأخرى عن غيره من هاتيك المجتمعات أو عن بعضها . ولذلك فله عادات ونظم في هذا الخصوص . يبدأ ذلك الاعتقاد في التطبيق مباشرة حين يمرض ، وعند وفاته وساعة دفنه ، وطريقة حفر ضريح ذلك المتوفى ، ثم الكيفية التي يدفن بها ، وما يدفن معه .

من هذه العادات والتقاليد الاجتماعية «كيفية دفن موتاهم» ، فهم يختلفون عن المسلمين ، والمسيحيين ، واليهود ، والبوذيين ، وغيرهم من أصحاب الديانات في المجتمعات الأخرى . وكذلك حول ما يعتقدونه فيما بعد الموت .

لو نظرنا إليهم كأناس عاشوا قبل الميلاد (على اعتبار أنهم لم يكونوا يعيشون في القرن السادس للهجرة/الثاني عشر الميلادي ، وانطلاقاً من ثقافتهم وحضارتهم البدائية جداً ، حتى إن حياتهم كانت بدائية شبيهة بمجتمع الغابات والكهوف) وقارناهم باليونانيين والرومانيين ، لوجدناهم

---

(١) "The Secret History of the Mongol" Unknown author, translated by: A. Waley, London, 1963, PP: 288-291.

أنظر كذلك : عطاء ملك الجويني «جهانكشاي» جـ١/ص ٢٨ . كذلك الترجمة الانجليزية ، جـ١/ص : ٢٩ .

يختلفون تمام الاختلاف من حيث مراسم وطقوس دفن موتاهم ، ومن حيث اعتقادهم في الحياة أو مصير المرء بعد الوفاة .

فاليونانيون كانوا يقومون بدفن موتاهم ، ملوكاً كانوا أم من عامة الناس ، بشكل طبيعي وعادي ، كما يدفنون معه شيئاً بسيطاً جداً ، يتمثل في قارورة صغيرة ، بها زيت أو عطر ، وأشياء أخرى تخصه شخصياً . فالفارس – مثلاً – يدفن ومعه سلاحه ، لسبب واحد بسيط وهو أن ذلك الشيء ملك يخصه هو ، وقد يضعون على قبره نصباً منحوتاً لشخصه .

أما الرومانيون ، فنجدهم ، من الناحية الثانية ، يقومون بحرق موتاهم ، من أي طبقة كانوا ، مثلهم في ذلك مثل البوذيين ، ثم يذرُّون شيئاً من رماد جثمانه المحروق في النهر ، كنهر «التايبر» في إيطاليا ، والذي يشق مدينة روما العاصمة . وقد يجمعون بعضاً من ذلك الرماد ويضعونه في قنينة صغيرة (URN) ثم يقلونها ، ويضعونها في مدفن خاص في سرادب تحت الأرض يعرف بـ (كولومباريوم -Colombarium) وبه طاقات (كوى) . وقد نجد في هاتيك السراديب عدة مئات من الكوى بها قوارير صغيرة تحتوى كل قارورة شيئاً من رماد ذلك الميت ، ثم تقفل تلك بألواح صغيرة جداً من الحجارة أو من الرخام يحمل اسم صاحب الرماد ، وقد يأخذ أفراد أسرة المتوفى شيئاً من رماد ميتهم بعد حرقه ، فيضعونه في كوة صغيرة داخل المنزل وأمامها تمثال نصفي ، يقوم بنحته رجل نحات محترف ، ويكون موضعه في صدر البيت .

أما اعتقادهم في المرء بعد الوفاة ، فإن الأمر يكون قد انتهى تماماً إلى أبد الآبدين ، وهذا بعكس المغول وما يعتقدونه في حياة المرء الثانية ، بعد حياته الأولى في الحياة الدنيا .

أما وجه المقارنة بين مجتمع المغول ومجتمع السكان ، في شبه جزيرة العرب ، في عصورها السابقة للاسلام ، فإن المرء في ذلك المجتمع كان يعتقد ، على مايبدو لنا ، بأن الانسان الذي يموت لا تنتهي حياته بشكل

نهائي ، كما رأيناه في المعتقد اليوناني والروماني ، كما أنه ليس مثيلاً لما يعتقده أفراد المجتمع المغولي ، من أن الانسان يعيش حياة ثانية ومباشرة بعد نهاية حياته الأولى ودفنه ، حيث أن المرء في مجتمع الجزيرة كما يعتقد بأنه سيعيش مرة ثانية ، بعد فترة من الزمن ، لم تحدد ؛ ثم إن حياته الثانية ستكون مغايرة ، بشكل أو بآخر ، لهاتيك التي عاشها في المرة الأولى . لذلك فقد كانوا يدفنون معه ، عند وفاته ، سلاحه ، وأوانيه ، وحليه ، وما يظنون بأنه سيحتاجه ، بشكل أو بآخر ، في حياته الثانية . كل ذلك يجعلونه في قبره ، وإلى جواره ، ليكون على مقربة منه ، وفي متناول يديه عندما يعود إلى الحياة . لهذا تراهم ينصبون بالدعاء الدامي ، والسعير المتقد على كل من يحاول أن يمس تلك القبور ، أو ما تحويه من جثمان ، أو أواني وأمتعة ؛ كل ذلك حتى يضمنوا بقاء جميع حاجيات المرء منها في حياته الثانية[1] .

قد يكون هذا صحيحاً ، بدليل دفن هاتيك الحاجيات معه ، وتوجد لدى فئات من سكان الجزيرة العربية ، وهذا سُمِيّ عندهم بـ «الرجعة» ، ولكن الكثير من مجتمعات الجزيرة كانوا لا يؤمنون بذلك ، وقد ورد أخبار عن مجادلات قريش بمكة ومنافقي المدينة لرسول الله « ﷺ » في الآيات القرآنية في العديد من السور القرآنية ، وكلهم ينكرون البعث والحساب . وإن حياة الانسان تنتهي بنهاية حياته في هذه الدنيا . ﴿أ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون .. الآية﴾ وقوله تعالى على لسان الكفار : ﴿... ، إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين ، فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين .. الآية﴾[2] . ولقد

---

(١) حول هذا الخصوص ، أنظر : أ.د. الانصاري ، عبدالرحمن ، «قرية الفاو» جامعة الملك سعود ، ١٤٠٢هـ ص.ص : ٢٠ – ٢١ .

(٢) راجع ذلك وأمثلة عليه في العديد من سور القرآن الكريم في سورة الدخان، السجدة، الرعد، الأنعام، النحل، الاسراء، الحج، المؤمنون، النمل، هود، التغابن، الصافات.

فصل جواد علي في هذه الناحية في موسوعته لتاريخ العرب قبل الاسلام[1] .

أما إذا رجعنا إلى موضوع دراستنا ، فسنجد أن للأفراد ، في المجتمع المغولي ، نظرتهم الخاصة ، وتقليدهم المختلف وعادتهم المغايرة ، في كثير من الأمور التي لها علاقة فيما يعتقدونه ، وما يتصورونه عن حياة المرء بعد وفاته ، وفنائه من هذه الدنيا . ذلك الاعتقاد ، وذاك التصور اللذان ينعكسان في تصرفاته ، في العديد من الأمور المتعلقة بهذا الشأن ، وخاصة في تعامله مع الانسان عندما يلم به مرض يقعده في الفراش ؛ ثم كيفية دفن ذلك الانسان ومن أية طبقة من طبقات المجتمع ؛ ثم مايجب على أفراد ذلك المجتمع تجاه ذلك الانسان المتوفى بعد ذلك ، ونوعية المقابر التي يدفن فيها هذا المرء أو ذاك . وسوف نتناول هذه المواضيع ، كلٌ على انفراد ، بشيء من التفصيل .

(أ) تعامل المجتمع المغولي مع المريض :

عندما يصاب المرء ، في المجتمع المغولي ، بمرض عضال يقعده في الفراش ، ويصبح حبيس بيته ، فإن له معاملة خاصة . فمن العادة التي كانت متبعة ، وماتزال ، في المجتمع المغولي البدوي ، أنه إذا أصيب فرد من الأسرة بمرض ، وأصبح لا يطيق الخروج من منزله ، فإنه يستلقي في داخل عربته المنزلية ، أو داخل خيمته المنصوبة على الأرض ؛ ثم يضع أقرباؤه علامة – شبيهة بالراية أو العلم – على مسكنه ، حيث يرقد المريض على فراشه ، وتلك العلامة معروفة لديهم ، حيث تشير إلى أن في داخل ذلك المنزل مريضاً . ومن العادة ألا يسمح لأحد بالدخول عليه للزيارة ، ماعدا من يقوم بخدمته والاشراف على مرضه ، والعناية به ، وذلك اعتقاداً منهم بأنه قد تدخل مع الزائر روح شريرة أو ريح قد تصيب

---

(١) أنظر : جواد علي ، «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» ، بيروت ١٩٧٨ ، في أول الجزء السادس ، من كتابه الكبير ، فيمكن الرجوع إلى ذلك للمقارنة ، أو الاستزادة في هذا الشأن .

المريض بالأذى أو تزيد من مرضه ، وتصبح مسألة شفائه ميؤوساً منها . ثم يظل المريض على تلك الحالة يتماثل إلى الشفاء .

أما إذا تفاقم به مرضه ، أو كان قد أُصيب بمرض عضال وتمكن منه ، وأصبحت بعدها الآمال في شفائه قد تلاشت ، فإنهم ينصبون عنده حربة أو رمحاً ، ثم يلفون حوله لبداً أسوداً . ومن تلك اللحظة لا يستطيع أي شخص أجنبي أن يجروء على الاقتراب من مسكنه أو مساكن ذويه ، كما لا يسمح لأحد بزيارته . وحينما تأتي ساعة الاحتضار ، وتشتد عليه سكرات الموت ، فإن جميع الحاضرين من أقربائه يتركونه وحده حتى يموت ، ومن ظل عنده حتى وفاته من واجبه ألا يذهب إلى مخيم الرئيس ، أو مساكن الخان المغولي ؛ كما أنه لا يسمح له بذلك إذا أراد ، حتى ينقضي ذلك الشهر الذي كان قريبه قد توفي في أيامه ، ويبدأ شهر جديد .

عندما يتوفىٰ ذلك المريض ، فإن أقرباءه يبدأون مراسيم النياحة عليه ، ويفعلون ذلك بأصوات مرتفعة ، ويبكون عليه لمدة ثلاثين يوماً ، أو أكثر أو أقل ، ومن واجب المجتمع تجاه أسرة ذلك المتوفىٰ أن يعفوها من أي إلتزام تجاه العشيرة ، أو الدولة ، حتى تنقضي تلك السنة التي مات قريبهم فيها . وهذا النوع ، من التكافل والتعاون الاجتماعيين ، يدل على أن الأسرة ليست هي المتضررة بوفاة عزيز منها ، فقد شاركها في مصابها الجلل مجتمع تلك الأسرة .

أما إذا كان المرء من الأسرة وقد بلغ من السن عتياً ، وأخذت منه الشيخوخة كل مأخذ ، فيُقضى عليه بصورة متعمدة . وحول هذا الموضوع يحدثنا «فينسنت البيوفيز» بأن بعض الأبناء السيئين من المغول ، وبعضاً ممن يدين بالمسيحية أيضاً ، يقومون بإعطاء آبائهم ، المتقدمين جداً في السن ، بعض المواد الدهنية – وغالباً ماتكون من ذيول الأغنام «الإلية» – ليأكلونها . لذلك فإن تلك الدهنيات تخمد قواهم المتداعية ، فيؤدي بهم ذلك إلى اختناقهم بسهولة . وعندما يموت ذلك الأب فإنهم

يقومون بحرقه ، وبعد ذلك يجمعون الرماد الناتج من حرق الجثة ، حيث يحتفظون به كشيء غالٍ لديهم . وقبيل الشروع في أكل الوجبات اليومية يذرُّون شيئاً من ذلك المسحوق على طعامهم[1] .

أما مايورثه الميت ، فإنه يُعْطَىٰ لورثته ، فإن لم يكن له وريث من ذويه يُعْطَىٰ إلى أحد غلمانه أو خدمه أو عبيده ، لأن مايورثه الميت يعتبره الآخرون شيئاً منحوساً ونكداً ، لايجوز أن يأخذه أحد من المجتمع ، أو أن تأخذه السُلطة القائمة[2] .

(ب) أنواع المقابر في المجتمع المغولي* :

لو نظرنا إلى مجتمع الجزيرة العربية ؛ لوجدناه يدفن موتاه في ثلاثة أنواع من المقابر ، مقابر لعامة الناس ، حيث يدفن مع كل إمرىء مايحتاجه من هاتيك المتطلبات التي ذكرناها آنفاً ، وهي شديدة الشبه بالمقابر الاسلامية ؛ ومقبرة لعلية القوم من كبار المجتمع ، ويدفن مع هذا الشخص أو ذاك ماغلي ثمنه من أمواله . وهذا النوع يكون عادة أكبر حجماً من قبر الرجل العادي ، نظراً لمكانة الشخص المتوفىٰ ، مثل قبر «عجل بن هفعم» في «قرية الفاو» . أما النوع الثالث من مقابر سكان الجزيرة ، فهو المقابر الملكية ، ولعل هاتيك المقبرة الملكية في «قرية الفاو» أيضاً هي مايمكننا الاشارة إليه هنا ، وهي مقبرة «الملك معاوية بن ربيعة آل القحطاني ملك قحطان ومذحج» . وقد نَزَلتُ إليها في إحدى زيارتي لحفريات قسم الآثار ، بدعوة كريمة من رئيس وأعضاء قسم الآثار

---

(١) Rockhill, "The Journey of William of Rubruck" PP: 80-81, and F.N.2.

(٢) الجويني «جهانكشاي» ، جـ١/ص : ٢٥ ، الترجمة الانجليزية ، جـ١/ص : ٣٤ .

★ سبق أن نشر جزٌ كبيرٌ من هذا المقال «بعنوان : مكان ومراسم دفن الخانات المغول في منغوليا» في مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية» جامعة الملك عبدالعزيز ، المجلد الخامس ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، ص.ص : ٢٢٣ - ٢٤١ . وقد أعدت النظر فيه ، وأضفت عليه أشياء كثيرة ، مما استجد في الموضوع ، بعد نشره ، وجاء في مكانه المناسب من هذا البحث .

والمتاحف فوجدتها عبارة عن غرفة كبيرة جداً تحوي قبر الملك والعديد من أسرته[1] . وهذا النوع من المقابر ، بأنواعها الثلاثة ، شديدة الشبه بالمقابر المغولية ، كما سيرد معنا بعد قليل ، إلا أن وجه الاختلاف هو أن المقبرة الملكية في الجزيرة العربية تحتوي على جثمان أكثر من شخص ، بينما تلك المقابر فيها أباطرة المغول لايحوي كل قبر سوى جثمان الامبراطور . أما الذين يدفنون معه فليسوا إلا خدماً ، وعبيداً لخدمته ، كما سنرى ، وليس فيهم من أعضاء أسرة الامبراطور أحد . أما من ناحية سِرِيّتِهَا ، فلا يبدو لنا بأنها كانت سرية أو غير معروفة لذلك المجتمع في شبه الجزيرة ، وهذا يكاد ينطبق إلى حد كبير مع قبول المغول ، كما سيرد ذكر ذلك هنا .

على الرغم مما تكلم به الرحالة ، والمؤرخون المعاصرون ، ومن جاء بعدهم ، عن السرية المطبقة ، والتكتم الكبير ، الذي أحاط بمكان تلك «الدائرة العظمى المحرمة»[2] . فالذي ظهر لنا أن المكان كان معروفاً لدى المغول أنفسهم ، أو المقربون من الأسرة الحاكمة ؛ وإن مسألة سريتها تنطبق على الناس الاجانب والغرباء من غير أهل البلد . وأن مسألة سريتها أيضاً أخذت طابع السرية ، وعدم معرفة تحديد مكانها بصورة مؤكدة ، بتقادم العهد . وزاد من ذلك تفكك الامبراطورية المغولية ، والحروب الأهلية ، والتي بدأت هناك في منغوليا بين كل من «قبلاي» و «أريق بوقا» ؛ ثم إنتقال مركز الدولة المغولية الكبرى من عاصمة الخانات العظام في مدينة «قره – قروم» إلى الأراضي الصينية ، حيث أصبحت مدينة «خان باليغ» أي مدينة الخان ، وهي «بكين» العاصمة المغولية . بعدها نجد أن أمر «قره – قروم» يتلاشى بالتدريج ، حتى أصبحت أثراً بعد عين .

---

(١) أنظر الانصاري ، «قرية الفاو» ، ص.ص : ٢٠ – ٢١ .

(٢) «الدائرة العظمى المحرمة» هي المكان السري الذي دفن فيه خانات المغول ، جنكيزخان وأبنه تولي وبعض أحفاده ، وهي المقابر الملكية في وطن المغول الأصلي ، كما سيرد معنا ذلك ، بعد قليل .

الذي جعلنا نستبعد مسألة سرية المكان الذي قبر فيه الخانات المغول ، في أيام عز «قره - قروم» هو ما حدثنا به الرحالة والسفير البابوي «جون الكربيني» عن وجود نوعين من المقابر هناك . فقد عرف هذا الرجل مكانها ، وأنواعها ، وقال بأنه يوجد لديهم نوعان من المقابر ، واحدة مخصصة للخانات ورؤساء العشائر والنبلاء ، وقد عنى «جون» هنا المقبرة التي دفن فيها «جنكيزخان» وأبنه الأصغر «تولي» ومن جاء بعده من أبناء الآخير . أما النوع الثاني فخصص للرجال العسكريين الذين قتلوا في الحروب أثناء الفتوحات المغولية . قد يكون هناك نوع ثالث يدفن فيه بقية الناس العاديين . ومع هذا فلم يرد ذكر لذلك فيما كتبه الرحالة هذا ؛ وقد يكون النوع الثالث لا وجود له ، على اعتبار أن المغول يدفنون موتاهم من الناس العاديين حسبما اتفق ، وحسب رغبة المشيعين لذلك الجثمان ، فليس مهماً إذن أن يخصص لهم مكان يدفنون فيه .

يضيف «جون» قائلاً ، بأنه يقوم على حراسة تلك المقابر حراس ، خصصوا لهذا الغرض ؛ وذلك لئلا يقترب أحد منها ، فهي محرمة من أن يطأ أرضها انسان ، ربما كان ذلك باستثناء الحراس أنفسهم . فإذا ما سولت لأحد نفسه أن يدخلها ، أو حتى يقترب منها ، فإن الحراس يقبضون عليه ، ثم يجردونه من كل ما يملك ؛ وتؤخذ ملابسه ، ويضرب ، ويعاقب أشد عقاب وأقساه . ثم يقول : «نحن أنفسنا دخلنا حدود مقبرة الرجال العسكريين الذين قتلوا في «هنكَري» دون قصد منا ، فإنهالوا علينا ، وكادوا يرمونا بالسهام ، ولكن ، بما أننا كنا سفراء ولم نكن نعرف عادات البلاد ، أطلوقوا سراحنا»[1] .

٥ - مراسم وطقوس الدفن في المجتمع المغولي :

(أ) كيفية دفن المتوفين من عامة الناس :

بعد وفاة الانسان، من عامة الناس، فإن القيمين على إعداد الجثة وتهيئتها،

---

(١) Carpini, ''History of the Mongol'', Ed., Dawson, PP: 13-14.

لمواراتها في باطن الأرض، يأخذونها إلى العراء، خارج المنطقة السكنية. وهناك تدفن في أي مكان يراه المشيعون مناسباً لمواراة الجسد، حيث يحفرون حفرة كبيرة، وهذه الحفرة تكبر وتصغر حسب مكانة الشخص المتوفى، لتتسع للجثمان، ولما يدفن معه من المتطلبات التي يعتقدون بأن ذلك الشخص سيحتاجها في حياته الثانية. وهنا يدفن الانسان العادي في مكان أبعد ما يكون عن السرية، على الأقل بالنسبة لأفراد مجتمع المغول المحيطين به. وهذا بعكس الوضع عند وفاة الخان المغولي، كما سيرد ذكر ذلك معنا، في موضوع «المقابر الملكية في منغوليا» وكذلك في خارج وطن المغول الأصلي. ثم يدفن مع ذلك الانسان واحد من منازله، هذا إذا كان يملك أكثر من واحد في حياته الدنيوية. ثم يجلسونه في وسط البيت، ويضعون أمامه مائدة طعام، وأناءً مملوءً باللحم، وقدحاً مملوءً أيضاً بحليب فرس. على اعتبار أن حليب الفرس هو الشراب المفضل عند المرء المغولي؛ ومسألة حلب الأفراس وصربها من اختصاص الرجل. كما يدفنون معه فرساً، ومعها مهرها، وحصاناً عليه لجامه وسرجه، وكامل عدته. ثم يذبحون حصاناً آخر على قبره، فيسلخون جلده، ويأكلون اللحم، ويأتون بجلده، فيملؤونه قشّاً، ويجعلونه واقفاً على أعمدة، عمودين أو أربعة أعمدة على القبر. أما عظام الحصان المذبوح، فتؤخذ، كمجموعة، ثم تحرق بالنار- أعتقاداً منهم- على روح المتوفى، وتحرق هاتيك العظام بدون تكسيرها، أو أخذ ما تحويه من مخ.

أما إذا كان الشخص المتوفى من الناس الأغنياء والموسرين، فلا تختلف مراسم دفنه عن الرجل العادي، أو المغمور، اختلافاً كبيراً؛ إلا أنه يدفن في أغلى وأجمل لباس كان يمتلكه، ويتم دفنه في مكان بعيد عن الآخرين، أي بشكل أكثر سرية مما عليه الوضع في حالة الرجل العادي، خشية أن يعرف مكان مواراة جثمانه فيما بعد ذلك[1].

---

(١) Rockhills "The Journey of William of Rubruck" PP:80-81 and F.N.2 in the same two pages.

أما الغرض من دفن هذه الأشياء مع الميت فهو – كما يعتقدون – أن المتوفىٰ سيعيش مرة ثانية ، وأنه سيحتاج إلى تلك الأشياء ، فلا ينقصه أي شيء ؛ فلديه مسكنه ، حيث يجعله مأواه الذي يستقر فيه ، وفرسه ، حيث تمده بما يحتاجه من الحليب ؛ ولديه حصانه ، الذي يمتطيه عند الحاجة إليه في سفراته ، ثم يستطيع بواسطة فرسه وحصانه أن يزيد من تعداد خيوله وأفراسه . قد يكون عدد الأفراس والخيول ، التي تدفن مع الميت ، أكثر من هذا العدد (أي أكثر من حصان وفرس) ، وكذلك بالنسبة للخيول التي تذبح على قبره ، وتعلق جلودها فوق الضريح . كل ذلك يعتمد على ثراء المتوفىٰ في حياته ، فكلما زاد نماؤه زيد في الانفاق على مراسم نعيه ودفنه .

ويبدو لنا أن مسألة دفن الميت ومعه أشياء من هذا القبيل ، ثم قتل أعداد من الخيول والأفراس ، وما يتعلق بذلك من اعتقادهم في الحياة الثانية ، هي عادة متبعة وتقليد منتشر لدى الاويغوريين ، والنيمان ، وغيرهم من سكان مناطق أواسط قارة آسيا[1] . وحول هذا الموضوع يحدثنا ابن فضلان (ذلك الرحالة المسلم الذي عاش في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجريين /والتاسع والعاشر الميلاديين ، والذي جاب قسماً كبيراً من أقفار أواسط قارة آسيا) قائلًا بأنه عندما يموت الفرد منهم ، فإنهم يحفرون حفرة عظيمة تبلغ حجم المنزل ؛ ثم يأتون إليه ويلبسونه قرطته (السترة أو الجاكيت أو الدثار) ويقلدونه قوسه ، ويضعونه في حزامه ، ثم يضعون في يده قدحاً مصنوعاً من الخشب ، وفيه شراب ، ويتركون أمامه إناءً خشبياً فيه شراب أيضاً . ثم يحضرون كل شيء خاص به ، كان يستخدمه في حياته الدنيوية ، من حاجيات وأواني منزلية ، فيضعونها معه في تلك الحفرة ، والتي هي بمثابة منزل له .

---

(١) لمعلومات عن الاويغوريين والنيمانيين أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٧٢ – ٨٥ .

ثم يجلسون ذلك الميت في داخل المنزل ، ثم يجعلون سقف تلك الحفرة من الطين ، وهي تظهر بمظهر القبة . بعدها يعمدون إلى خيوله فيقتلون مائة ، أو مائتين ، وأحياناً يذبحون واحداً منها فقط ، معتمدين في هذا الشأن على كثرة أو قلة مايملكه ذلك المتوفىٰ ؛ فيأكلون لحوم تلك الخيول ، ويتركون رؤوسها ، وقوائمها ، وجلودها ، وذيولها ، حيث يعلقونها على أعواد من الخشب فوق ذلك الضريح . أما الغرض من ذلك فهو أن هذه الخيول هي التي سيركبها – حسب زعمهم – إلى الجنة . وإذا ما كان الشخص المتوفى رجلاً شجاعاً ومقداماً ، وإنه كان قد قتل من الرجال واحداً أو إثنين أو أكثر ، فإنهم ينحتون تماثيل من الخشب ، على هيئة صور الآدميين بعدد من قتلهم ، ثم يضعونها معه في داخل قبره ، ويقولون : «أي ! هؤلاء عبيده الذين سيخدمونه في الجنة»[1] .

في بعض الأحيان يهمل أقرباء المتوفىٰ ذبح الخيول ، كقرابين إلى روح ميتهم ، لمدة يوم أو يومين . وهنا يعمد رجل من كبار قومهم المسنين يستحثهم بالاسراع إلى تقديم القرابين قائلاً لهم : «لقد رأيت في منامي كذا وكذا (حول الرجل المتوفىٰ) » كما تراني ، لقد سبقني كل رفاقي ، وقد أصبح من الصعوبة عليَّ أن ألحق بهم . فقد تقرحت قدماي من جراء السعيِ خلفهم . لذلك فلن أستطيع اللحاق بهم ، وقد تُرِكتُ وحدي منفردا .... ،

ثم يضيف ابن فضلان ، في هذا الخصوص قائلاً : «وما أن يسمع أقرباء الميت هذه المقالة من ذلك الانسان العجوز ، حتى يعمدون إلى الخيول فيذبحونها ويأكلون لحمها ، ثم يعلقون الباقي – كما شرحنا ذلك أعلاه – إلى جانب الضريح . ثم بعد هذه الحادثة بيوم أو يومين ، يأتي

---

(١) إعتمدت في هذا الخصوص على : Prof. J.A. Boyle "A Form of Horse Sacrifice.." PP: 145-150, and the Notes. وقد إعتمد هذا المصنف على المتن الأصلي المنشور .

إليهم ذلك الرجل المسن ، ويخبرهم بأنه رأى في منامه الميت ، وإنه قال له : «قل لأسرتي ورفاقي بأنني قد لحقت بأولئك الذين كانوا قد سبقوني ، والآن قد ارتحت من عنائي»[١] .

شاهد الراهب «جون البلانو الكربيني» ، سفير «البابا انوسنت الرابع» إلى بلاط الخان المغولي ، بأم عينه مراسم الدفن هذه عند المغول ، كما سمع ذلك ممن شاهدها . وهنا يضيف «جون» بأنه من الأشياء التي تدفن مع الميت حاجياته الثمينة ، مثل ذهبه وفضته ؛ وكذلك سلاحه (القوس والسهام ، والرمح ، والخوذة ، والسيف) وملابسه . كذلك يدفن معه خدمه ، رجال ونساء ؛ أما عربته المنزلية ، فإنها تكسر ، ويتلف بيته (هذا غير البيت الذي كان قد دفن معه) . كما أن أحداً لا يجرؤ أن يتفوه بأسمه بعد وفاته ، ويظل ذلك الوضع قائماً بعد وفاته ، حتى الجيل الثالث ، أي أن الميت يُنْسَىٰ تماماً بمجرد وفاته ، ما عدا مايقدم إلى روحه من طعام وشراب وغير ذلك[٢] .

أما المؤرخ الأرمني «كيراكوس» فيذكر أنهم يقرون بطن الخيل ، فيستخرجون اللحم دون العظام ، فيحرقون الأمعاء والعظام ، ويخيطون الجلد حتى يصبح متكامل الجسم وكأنه حي ، ثم يبرون رأس خشبة كبيرة غليظة ، فيدخلونها من مؤخرته حتى تظهر من فيه ، فيعلقونها على مرتفعٍ عالٍ فوق القبر ، أو على شجرة كبيرة[٣] .

(ب) مراسم وطقوس دفن رؤساء وكبار القوم :

لا تختلف مراسم وتشييع ودفن رؤساء وكبار القوم ، في المجتمع المغولي ، اختلافاً كبيراً عن تلك التي تجرى للموتىٰ من الناس العاديين أو

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) Carpini, "The History of the Mongol" Ed., Dawson, P: 13.

(٣) Kirakos of Gonjak on Mongols, Central Asiatic Journal VIII, The Hague and Wiesbaden 1963, PP: 199-214, Ed. by: Prof. J.A. Boyle.

الأغنياء . فعندما يتوفىٰ الرئيس ، أو كبير القوم ، فإن المشيعين يذهبون ، بصفة سرية وفي تكتم تام ، بالجثمان إلى خارج المخيمات ، وبعيداً عن المساكن . وهناك يقومون - بعد اختيار المكان المناسب - بإزالة العشب بعناية ، ومعه جذوره ، وما علق بها من طين ، أو تربة ؛ ثم يضعونها جانباً . وبعد ذلك يحفرون حفرة كبيرة جداً ، ثم يجوِّفون حفرة أخرى لوضع الجثمان بها . كما يدفنون ، إلى أسفل من ضريح السيد ، أحب عبيده إليه حياً ، حيث يضطجع في ذلك القبر لبرهة وجيزة ، ثم يؤخذ إلى الخارج كي يستعيد النفس ، ثم يعيدونه ، ويضطجع مرة أخرى ، كما فعل في الحالة الأولى . وهكذا يكررون هذه العملية ثلاث مرات . فإن إستطاع أن ينجو من الموت بعد المرة الثالثة ، فإنه يصبح رجلاً حراً طليقاً ، ويستطيع أن يفعل ما يفعل الأحرار ، كما إنه يصبح من الرجال ذوي الاعتبار والرتب العالية بين رجال المجتمع ، وذا مكانة مرموقة بين أقارب وأصدقاء ذلك السيد المتوفىٰ .

بالاضافة إلى ذلك ، فإنهم يدفنون معه مسكناً له ، وفرساً ومهراً ، وحصاناً ، وطعاماً وشراباً ، ومائدة ، وذهباً وفضة - كما هي الحالة بالنسبة للرجل المتوفىٰ من الناس العاديين ، أو الأغنياء . ثم يعيدون العشب ، ذلك الذي سبق وأزيل قبل حفر تلك الحفرة لجثمانه ، وما عليه من طين وتراب عالق به بعناية ، على ظهر تلك الحفرة ، فيصبح شكل الضريح كتلّ صغير ، ولا يبدو عليه أثر الحفر ؛ لذلك فإنه لا يستطيع أحد معرفة المكان الذي تم وضع جثمان الميت بداخله . وفي الحقيقة ، فإنه كلما كان الشخص المتوفىٰ ذا مكانة كبيرة في مجتمعه كلما كان كِبَرُ حجم قبره تحت الأرض ، وكثر عدد ما يذبح على قبره من الخيل وغيرها ، وما يدفن معه من الاتباع والأواني المنزلية ، وأمتعة يحتاجها للاستخدام في حياته الثانية ، فيحاول أقرباؤه أن يجعلو - حسب اعتقادهم - حياته الثانية لا تقل عن وضعه ، وما كان عليه حاله في حياته

الأولى قبل وفاته ؛ كذلك تزداد سرية مكان الدفن ، كلما كان المتوفى كبيراً في قومه وذويه[1] .

(جـ) مراسم وطقوس ما بعد الوفاة والدفن :

بعد وفاة المرء ، وبعد أن تتم مراسم دفنه ، وطقوس نحر الخيل ، وعمل الاضحيات ، بالطريقة التي أوضحناها ، فإن المجتمع المغولي لا يتعامل مع أقرباء ذلك المتوفى حتى تتم عملية تنقيتهم وتطهيرهم بالنار ، تحت إشراف كهنة أو عرافين ، رجالاً كانوا أم نساءً . وتتم عملية تنقيتهم بالطريقة التالية ، التي وصفها لنا «جون الكربيني» كما رآها هو ، وكان هو ممن نُقِّيَ بتلك النار ، قبل أن يسمح له بالدخول على الخان المغولي .

يقول القس : إنهم يوقدون نارين ، ثم يقيمون حربتين ، أو رمحين ، ويربط رأسا الرمحين بحبل بالقرب من تلك النارين ، ثم يربطون في هذين الرمحين حبلاً من البقرم (وهو قماش قوي جداً ، يستعمل لتجليد الكتب) . بعد ذلك يأتون بأقرباء المتوفى ، الرجال والنساء والأطفال ، ويجعلونهم يمرون من تحت ذلك الحبل ، أو الوشاح المربوط في الرمحين المنصوبين إلى جانبي النار ، ثم بالضرورة يصبح مرورهم من بين هاتين النارين . وبعد أن يمر الأفراد ، يؤتى بجميع ما تملكه أسرة المتوفى ، من خيل وأفراس ، وثيران وأبقار وأغنام ، وماعز ، وجمال وغير ذلك . ثم بالأمتعة من لباس ، وأواني ، وعربات ، ومساكن ، فتمرر جميع تلك الحيوانات والأمتعة من بين النارين ، ليتم تطهيرها ، وتنقى مما علق بها - حسب زعمهم - من أرواح شريرة نتيجة لوفاة ذلك المرء من تلك الأسرة[2] .

يقوم بالاشراف على عملية التنقية والتطهير هذه - كما قلنا - عرافون، وغالباً ما يكونون من النساء الكاهنات. حيث تقف على جانبي النار

---

(١) Rubruck, "The Journey.." Ed. Dawson, P: 105.

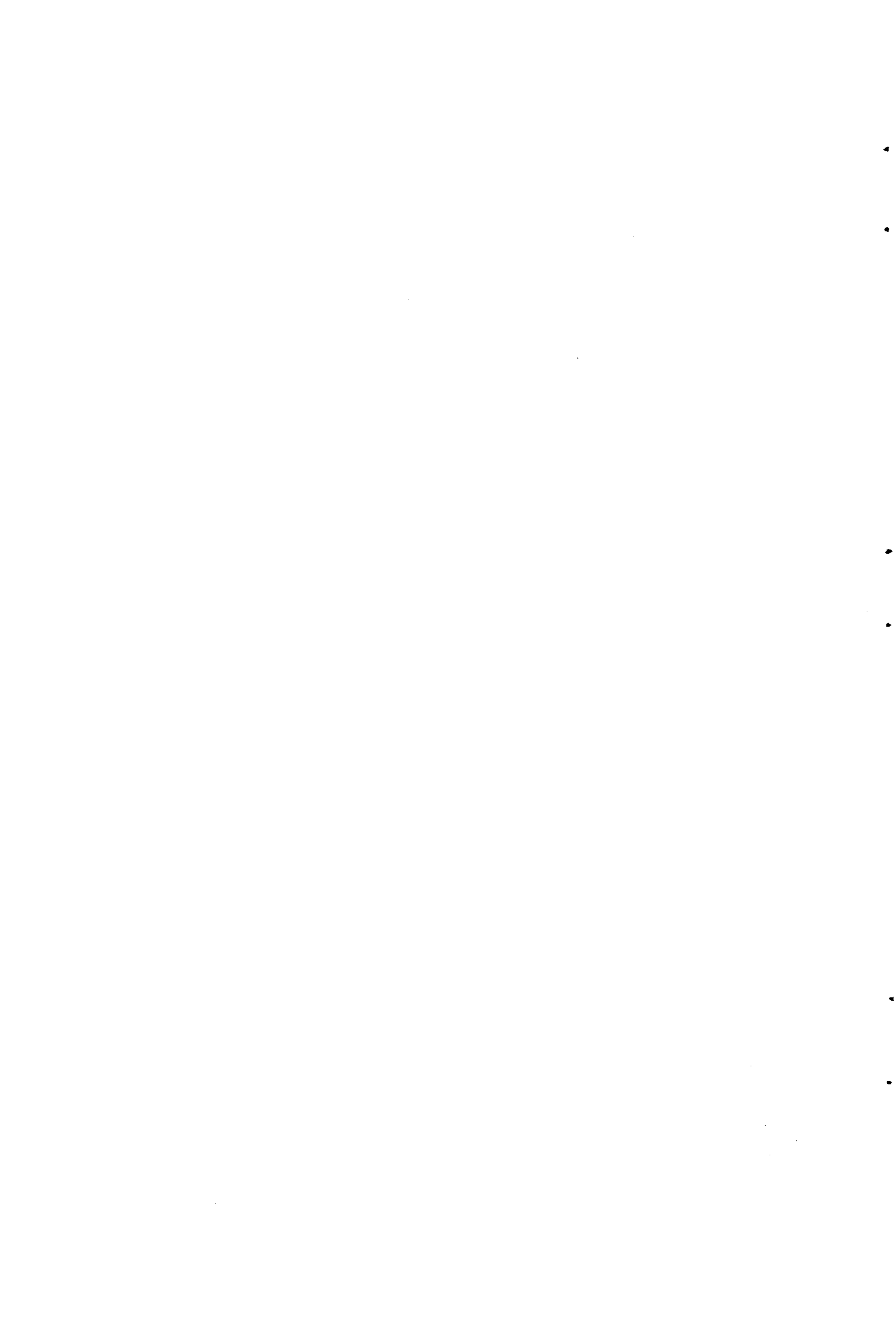
(٢) Carpini, "The History of the Mongol" Ed., Dawson, P: 14.

امرأتان – كل واحدة على جانب من إحدى النارين ؛ وفي أثناء عملية مرور الأفراد ، والمواشي ، والعربات والمنازل والأثاث ، تنضحان ماءً على المارين ، وترددان تعاويذ معينة ، فإذا ماوقع شيء على الأرض ، أو إنكسرت عربة ، أو سقط منها شيء ، أو وقع على الأرض حيوان من تلك الممتلكات ، أثناء عملية مرورها بين النارين ، فإن جميع ما يسقط أو يقع أو ينكسر يصبح ملكاً لهاتين المرأتين الواقفتين على جانبي النارين .

أما إذا أصابت صاعقة إنساناً وقتلته ، فلابد أن يُنَقَّى كل فرد كان يسكن معه ، أو كان من أسرته ، بالنار ، وبالطريقة التي سلف ذكرها ، قبل أن يدخل معه أحد من بقية أعضاء مجتمعهم في أي نوع من أنواع المعاملات . فلا أحد يلمس خيمته ، ولا فراشه ، ولا عربته ولا لبده ، ولا ملابسه ، ولا أي شيء من أشيائه الخاصة به ؛ إذ يعتبرون ذلك كله أشياء مزدارة ، ومنحوسة ، ونجسة ؛ فلا تلمس حتى تنقى من تلك النجاسة التي علقت بها ، ومن أرواح شريرة تكمن فيها ، وذلك من خلال تمريرها من بين نارين متقدتين[1] .

---

(١) راجع الحاشية السابقة ، نفس الصفحة ، أنظر كذلك الحاشيتين السابقتين لها ، وفي نفس صفحات تينك الحاشيتين .



الفصــــل الخامـــس

مقابر المغول الملكية ومراسم دفن خاناتهم

١ – المقابر الملكية في منغوليا .

«الدائرة العظمى المحرمة»

(أ) وفاة جنكيزخان .

(ب) مراسم وطقوس دفن خانات المغول في الدائرةالعظمى المحرمة .

٢ – المقابر المغولية الملكية خارج منغوليا وطقوس الدفن .

(أ) مقدمـــــة .

(ب) مكان ومراسم دفن الخان المغولي الثاني «اكتاي قاآن» وأسرته .

(جـ) أسرة «يوان – تشه» في الصين .

(د) أسرة الايلخانيين في إيران والعراق .

(هـ) أسرة جوجي خان «القبيلة الذهبية» في القفجاق .

مقابر المغول الملكية ومراسم دفن خاناتهم :

نهج المغول طريقة متميزة عن غيرهم من كثير من سكان المعمورة ، في السرية التي أحاطوها بمكان دفن خاناتهم ، وكيفية مراسم دفنهم ؛ سواء ما يتعلق بأفرادها داخل موطن الآباء والأجداد ، منغوليا ، أم خارجه . كل ذلك لشدة إعتقادهم بحياة الفرد منهم مرة ثانية ، في عالم ما بعد الموت . وسيتضح ذلك معنا في عرضنا للمقابر الملكية لأسرة جنكيزخان ، ومراسم دفنها ، سواء في داخل منغوليا ، أم خارجها ؛ وسوف نرى ما حدث من تطور فيما يتعلق بالفئة الأخيرة ، حيث توسع المغول – كما قلنا سابقاً – في فتوحاتهم ؛ وضموا أراضي شاسعة ، وأمماً مختلفة ، وشعوباً ذات أديان وأصول حضارية متباينة ، وتقاليد وعادات ، اختلفت عما كان أولئك الغزاة قد ألفوه في أرض الآباء والأجداد . ومع ذلك فقد أخذ المغول معهم – وعلى رأسهم القادة والخانات – عاداتهم وتقاليدهم ، بما في ذلك مراسم دفن موتاهم ، بدون إستثناء ، إلى تلك الأصقاع من العالم ، والتي ضمت إلى أراضيهم ، وأصبحت تكون جزءاً من إمبراطوريتهم العالمية . فنجد أن «قبلاي» وأبناءه وأحفاده ، ممن جاء بعده من سلالة «يوان» جاءوا إلى أرض الصين ، ونقلوا معهم ما جرى عليهم آباؤهم وأجدادهم من عادات وتقاليد . وكذلك ينطبق الشيء عينه على «هولاكوخان» وأبنائه ثم أحفاده ، من سلالة «أيل خان» أو «ايلخان» ، الذين كانت لهم دولة في إيران والعراق . وما سار عليه أعضاء هاتين الأسرتين في هذا المضمار نجد أن أسرة «جوجي» ، وبعضاً من أفراد وحكام هذه الأسرة ، والمعروفة بـ «القبيلة الذهبية» تسير على نفس المنهج ، فتنقل عاداتها وتقاليدها إلى إقليم القبجاق ، حيث كان أراضي هذه الأسرة . وسنورد هنا مثالاً . أو مثالين ، على كل أسرة ، ثم نطلع سوية على التطور الذي حصل في الأراضي الغربية من الامبراطورية المغولية ، وأعني بذلك أراضي «القبلية الذهبية» والأسرة «الايلخانية» ،

وخاصة ، بعد اعتناق حكامها ، فيما بعد ، الدين الاسلامي . فقد تغير المنهج الاجتماعي في هذا المضمار تغيراً جذرياً ، وفي ليلة وضحاها ، كما سنرى بعد قليل .

سنتعرض هنا للمقابر الملكية ، التي دفن فيها «جنكيزخان» ، وبعض أبنائه وأحفاده ، وخاصة ، داخل أراضي آبائهم وأجدادهم ، وهي المنطقة التي عرفت بـ «الدائرة العظمى المحرمة» ؛ ثم نطرق بعد ذلك مسألة وفاة خانات المغول ، خارج منغوليا ، والتطورات التي حدثت للخانات المغول في هذا البلد أو ذاك .

١ - المقابر الملكية في منغوليا :

«الدائرة العظمى المحرمة»

(أ) وفاة جنكيزخان :

في منتصف صيف عام ٦٢٤هـ/١٢٢٧م كان جنكيز خان يعيش في قمة أحداث آخر حملة عسكرية له ، يخوض معارك طاحنة ضد مملكة «هسي - هسيا» أو «التنكوت» التي تمردت على سلطانه . وهناك ، وفي مكان في أعلى نهر «وي» بالقرب من نقطة إلتقاء حدود المقاطعتين الحاليتين «سو» و «شن سو» توفي جنكيزخان ، في رمضان عام ٦٢٤هـ/أغسطس سنة ١٢٢٧م ؛ وقد سبق لنا مناقشة هذا الموضوع بشيء من التفصيل في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، وعما إذا كانت وفاته لمرض الم به ، أم أنه مات مقتولاً[١] .

لئن كان المجتمع المغولي يختلف اختلافاً بيناً فيما يتعلق بمراسم

---

(١) ص : ١٣٩ أما مايتعلق بوفاة هذا الخان وماقيل من آراء في هذا الخصوص فيمكن مراجعة الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/ص : ١٤٤ ، الترجمة الانجليزية ، جـ١/ص : ١٨٣ ؛ رشيد الدين «جامع التواريخ» ، جـ١/ص.ص : ٣٨٦ - ٣٨٧ ؛ المخطوطة العربية المحفوظة في آيا صوفيا «السليمانية» الورقات ٢٢٧ ب - ٢٢٩ أ . كذلك أنظر : Fox, Ralf, "Genghis Khan", London, 1936, P: 240.

وطقوس وطريقة دفن موتاهم عن أي مجتمع آخر ، كاليونانيين والرومانيين مثلاً ، فإنه يختلف بالكلية أيضاً من حيث سرية المكان الذي يدفن فيه الميت . إذ أن ذينك المجتمعين ، وغيرهما من مجتمعات الدنيا قد لا يكون هناك سرية تتعلق بأماكن مقابر موتاهم ، عامة كانوا أم خاصة ، وهذا بالعكس تماماً نجده عند المغول ، وخاصة ما يتعلق بخاناتهم وعلية القوم والناسِ الأثرياء منهم .

ما إن تُوُفي جنكيزخان حتى أسدل على وفاته ستار مطبق من السرية البالغة والتكتم الشديد ، فلم يكن أطلع على وفاته سوى بعض من المصرح لهم بمقابلته ، كالأبناء وأقرب الناس إليه من حرسه الخاص أو أصدقائه ؛ فأُخِذَ جثمان الخان إلى منغوليا ، وهو محمول على عربة ذات عجلتين ، نقلته من المنطقة العلوية لنهر «وي» المذكور أعلاه ، أو كما قال «مارتن» نقلاً عن المصار الصينية وثيقة الصلة بتاريخ «يوان - تشه»[1] ، من أقصى المناطق العلوية لـ «هسي هو» والمعروفة اليوم بـ «تشيئنك - شو هو»[2] .

على الرغم من بقاء الكتائب العسرية المغولية في أراضي «هسي - هسيا» لكي تواصل محاولة إخضاع البقية من مدنها وأراضيها ، والتي لم يتم إخضاعها بصورة نهائية إلا في عهد خليفة جنكيزخان «أكتاي قاآن» (٦٢٧ - ٦٣٩هـ/١٢٢٩ - ١٢٤١م)، ومع ذلك فقد رجعت الغالبية

---

(١) لمعلومات عن أسرة «يوان - جه» المغولية في الصين ، أنظر تحت ص : ١٧٢ - ١٧٤ وقد حكم المغول الأراضي الصينية أكثر من قرن من الزمان ، أي من عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م إلى سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م .

(٢) Martin, H.D. "The Mongol Wars With Hsi-Hsia (1205-1227), Journal of the Royal Asiatic Society" (JRAS), 1942, PP: 195-228; R. Fox, Ralf, "Genghis Khan", London, 1936, P: 143; J.J. Saunders, "The Mongol Conquests" P: 53; C.C. Walker, "Genghis Khan", London, 1939, P: 143; R.K. Douglas, "The Life of Jenghis Khan" translated from the Chinese Contemporary Chroniclers, London, 1877, PP: 54-58.

الكبرى من جيش «جنكيزخان» إلى منغوليا لتواكب جثمان قائدها . ذكر في بعض المصادر الأساسية أن الحرس الخاص ، والجند الذين رافقوا جثمانه ، قاموا بقتل جميع من قابلوه في رحلة العودة بالجثمان إلى الوطن . وهنا يذكر لنا الرحالة الايطالي «ماركو بولو» بأنهم كانوا يقولون عند قتلهم لأي إنسان : «أذهب لتخدم سيدك في الحياة الثانية» . ثم يعلق ذلك الرحالة بأنهم كانوا قد أقدموا على ارتكاب هذا العمل الأحمق ، حيث أعماهم الشيطان وصور لهم هذا العمل الجنوني ، الأمر الذي جعلهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً بأن كل أولئك الذين يقتلونهم لهذا الغرض بأنهم يذهبون حقيقة ليخدموا ذلك السيد الخان في حياته الثانية في العالم الآخر ، ويحسنون صحبته ومعاشرته . كذلك فإن هذا الأمر ينطبق على تلك الخيول التي كانت تقع تحت أيديهم في طريقهم أثناء العودة بالجثمان إلى المكان الذي سيدفن فيه ، وذلك ، حسب اعتقادهم ، ليكون لديه أكبر عدد ممكن من الخيول في عالمه الآخر ، حيث يقومون بذبح جميع ماترك الخان وراءه من خيول وأفراس وجمال[1] .

ذكرت بعض التقارير ، في هذا الخصوص ، أن المغول أقدموا على قتل أولئك البشر حتى لا يتسرب خبر وفاة جنكيزخان ، والتي أبقيت مسألة سرية كما قلنا ، بينما ذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى القول بأن هذا العمل (عملية قتل كل من قابلوه في طريق العودة) لم يقع ، وأن الروايات في هذا الخصوص غير صحيحة ، وهم في هذا يعتمدون على عدم ورود شيء منه في المصادر الصينية قريبة الصلة . ومع هذا فإن عدم ذكر تلك المصادر لهذا الخبر لا يعني بأي حال من الأحوال ، بأنه لم يكن قد وقع . لذلك فإن مسألة إقدام المغول على هذا النوع من العمل غير مستبعد الوقوع ، فقد أثبتت بعض المراجع المعاصرة أنهم قاموا بأعمال مشابهة

---

(١) Marco Polo, "The Description of the World", Vol. I, PP: 167-168; also, B. Spuler, "History of the Mongols..", P: 171.

لهذا ، حيث قاموا بذبح عدد كبير من البشر عندما توفي حفيد جنكيزخان «منكو قآن» (٦٤٩ - ٦٥٧هـ/١٢٥١ - ١٢٥٨م) وغيره من الخانات المغول . كما أنه قد يكون الإقدام على قتلهم يمثل جزءاً من كتمان خبر وفاة «جنكيزخان» ، لأن ذلك بدوره يحافظ على سرية المكان الذي سيدفن فيه الخان المغولي الكبير(١) .

بعد أن وصلت الجثة إلى الموطن الأصلي للخان المتوفى ، وهي الجهة الشمالية الشرقية من منغوليا ، أعلن بصفة رسمية خبر وفاة الخان على المَلأ ، وأرسل رسل إلى أنحاء أراضي الامبراطورية المغولية ، لنقل ذلك النبأ ، كما طلب من كبار أفراد أسرة المتوفى أن يحضروا ، لكي يودعوا سيدهم الفاتح ، وباني مجدهم .

أما عن المكان الذي وارى المغول جثمان خانهم ومن جاء بعده من الأبناء والاحفاد ، فهو ماعرف بـ «الدائرة العظمى المقدسة» . وحول هذا المكان يحدثنا عنه المؤرخ المسلم العظيم رشيد الدين الوزير ، في كتابه الموسوم بـ «جامع التواريخ» . يذكر هذا المؤرخ بأن المكان الذي دفن فيه جنكيزخان وبعض أبنائه وأحفاده ، كان قد اختاره هذا الخان بنفسه في باكورة حياته كرجل دولة ، ليكون فيه مثواه . هنا يقول رشيد الدين بأنه «.. في يوم من الأيام ذهب جنكيزخان إلى الفلاة للصيد ، وفي مكان ما ، على بعد مسافة ، كانت توجد هناك شجرة وحيدة في ذلك المكان . وقد أعجبه منظرها غاية الاعجاب ، فذهب وجلس تحت ظلها الوارف لمدة ساعة من الزمن ، فكان لذلك الموضوع أبلغ الأثر في مشاعره وخلجات نفسه ، وأثارت في نفسه إحساساً وضاء بالبهجة والغبطة

(١) C.C. Walker, "Genghis Khan", P: 170 and Notes 1,2; T.N. Dupuy, "The Military Life of Genghis Khan of Khans" New York, 1969, PP: 95-96; Fox, R. "Genghis Khan", PP: 240-241; H.D. Martin, "The Mongol Wars..", PP: 115-6, and Note 1 in P: 226.

والسرور . لذلك ، أصدر أوامره ، والتي تقضي ، «بأن هذا المكان هو الموقع المناسب لأن أُدفن فيه ، فعليكم أن تتذكروا ذلك جيداً» . في الوقت الذي مات فيه جنكيزخان (وبعد أن وصل جثمانه إلى أرض الآباء والأجداد) وبينما كانت مراسم العزاء تأخذ مجراها ، تذكر الناس الذين سمعوا كلامه ، فأعادوا قول ماسمعوه حول وصيته . وهناك اختار الامراء والقادة ذلك المكان لمواراة جثمانه ، نزولاً عند أوامره ، ويقال بأنه في السنوات التالية نبتت الأشجار والكلأ ونمت بشكل كثيف جداً ، فامتلأ المكان (مع مرورو السنين) حتى صعب معرفة الشجرة الأولى التي دُفِنَ تحتها الخان وذووه ، ولم يبق مكان للعبور ، لدرجة أن القائمين على حراسة المكان لم يعودوا يعرفون «الدائرة العظمى المحرمة» ولم يجدوا لهم طريقاً إليها»[1] . كما أن هذا المؤرخ يضيف بأن ذلك المكان جمع أيضاً رفات أبنه الأصغر تولي خان (ت : عام ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) ، وأبناء الأخير ، «منكو قآن (٦٤٩ - ٦٥٧هـ/١٢٥١ - ١٢٥٨م) ، وأريق بوقا» ، (ت : ٦٦٤هـ/١٢٦٥م) ، و «قبلاي قآن» (٦٥٨ - ٦٩٤هـ/١٢٦٠ - ١٢٩٢م) بينما دفن أبناء وأحفاد جنكيزخان الآخرون في أماكن أخرى ، والتي سنعرض لها بالاشارة فقط في ثنايا هذا البحث[2] .

بناءً على ذلك ، وحسب ما تقتضيه عادات وتقاليد المغول، فإنه عندما يموت الخان المغولي في أي مكان ، قريباً أم بعيداً ، فلابد من أخذه إلى

---

(١) أنظر رشيد الدين «جامع التواريخ» جـ١/ص : ٣٨٧ ؛ حيث يمكن مراجعة النص الأصلي بلغته الفارسية .

(٢) بعد وفاة أو مقتل ، منكو قآن في عام ٦٥٧هـ/١٢٥٨م ، قامت في منغوليا ثورة وحرب أهليتين ، بين «قبلاي وأريق بوقا» ، وهما أخوا «منكو» الصغيران ، فقد قاد الثورة «أريق بوقا» مطالباً بالعرش المغولي ، فقامت بذلك حرب أهلية بين الأخوين ، إستمرت حوالي أربع سنوات ، إنتهت بهزيمة الثائر المتمرد ، وإستسلامه في عام ٦٦٤هـ/١٢٦٥م ، توفي بعدها ، ربما مقتولاً ، رغم أن رشيد الدين يذكر بأنه توفي بعد مرض ألم به ، أنظر : رشيد الدين «جامع التواريخ» ، جـ١/ص.ص : ٦٣١ - ٦٣٢ .

المكان الذي كان قد خصصه الخان الأكبر(الأب جنكيز) ليوارى فيه جثمانه. فإن كان الخان في سفر، أو كان في غزوة، فإنه يتحتم على ذويه ومرافقيه أن ينقلوه إلى ذلك المكان، وحتى لو كانت تقع المسافة بين المكان الذي تُوُفِّي أو قُتِلَ فيه والمكان الذي سيدفن فيه مسيرة مائة عام، فلابد من نقل جثمانه إلى عين ذلك المكان المخصص لدفنه ودفن أسرته من بعده. وهذا المكان هو جزء من أراضي القبيلة، أو جزء من أملاك ذلك الخان المتوفى.

حول هذا المعنى، يحدثنا الرحالة الايطالي«ماركو بولو» : «إن جميع الخانات العظام[١] ، وكبار سادة التتر (يعني المغول هنا) الذين ينحدرون من سلسلة سيدهم الأول جنكيزخان ، عندما يموتون فإنهم يحملون إلى جبل عظيم للدفن . وهذا الجبل يسمى التاي[٢] . فإذا ما مات أحدهم على مسافة تبعد مسيرة مائة يوم من ذلك الجبل ، فإنه قد يكون لزاما على ذويه حمله إلى هناك للدفن في ذلك الجبل المذكور مع الآخرين إذ أنهم يأبون كل الإباء لدفنه في أي مكان آخر غيره[٣] » .

إلا أنه على الرغم مما أورده هذا الرحالة فقد جانب «ماركو بولو» الصواب في بعض ماأورده ، لأننا لو رجعنا إلى تتبع حالات الوفاة عند الخانات المغول ، من هذه الأسرة ، لوجدنا أن ماأورده هذا لا ينطبق بالكلية على جميع الخانات ، بل لا ينطبق إلا على بعض منهم فقط ، وممن

---

(١) خانات المغول العظام هم «جنكيزخان ٥٤٩ - ٦٢٤هـ/١١٥٥ - ١٢٢٧م) ثم ابنه أكتاي حكم ٦٢٧ - ٦٣٩هـ/١٢٢٩ - ١٢٤١م، ثم كويوك حكم ٦٤٤ - ٦٤٦هـ/١٢٤٦ - ١٢٤٨م، ثم «منكو» حكم ٦٤٩ - ٦٥٧هـ/١٢٥١ - ١٢٥٨م، ثم «قبلاي» حكم ٦٥٨ - ٦٩٤هـ/١٢٦٠ - ١٢٩٤م) .

(٢) لقد إشتبه الأمر على هذا الرحالة ، لأن سلسلة جبال التاي في وسط آسيا غير المكان المعروف الذي دفن فيه خانات المغول في جبال «كنتاي» حيث تقع «الدائرة العظمى المحرمة» في جبل «برقان قلدون» . أنظر أطروحتنا للدكتوراه ص : ٢٩٤ .

(٣) Marco Polo, "The Description.." PP: 167-8; also, Spuler, "History of the Mongols", P: 171.

له علاقة مباشرة بوراثة أرض الآباء والأجداد ، حسب العرف والتقاليد والعادات المغولية التي تحتم ذلك ؛ فهم وحدهم الذين ضمهم ذلك الجبل المسمى «الدائرة العظمى المقدسة» أو «المحرمة» . إن ذلك الجبل الواقع إلى الشمال الشرقي من منغوليا ، والمسمى بـ «برقان قلدون» والذي أحيط بسرية مطبقة ، وغاية في الاحكام والدقة ، هو الذي يحوي بين جنباته تلك المقبرة الملكية التي حوت جثمان «جنكيزخان» وبعضاً من أسرته من نسل أبنه «تولي» فقط بصفته حارس البيت والنار حسب المعتقدات المغولية ، والتقليد المتبع عندهم . لعل السبب في ذلك يكمن في حقيقة واحدة ، وهي أن كل شخص ، من أبناء جنكيزخان يموت ، كان يدفن في أراضيه الخاصة به وبأسرته الصغيرة . فمن المعروف جيداً أن «جنكيزخان» كان قد قسم أمبراطوريته بين أبنائه الأربعة الكبار ، كما مر معنا سابقاً ، وهم الذين من زوجته الكبرى «بُرْتِه» . لذلك وجدنا بأن كل أمير ، من أبنائه هؤلاء ، قد دفن في أراضيه الأميرية ، التي عينها له والده قبل وفاته ، وخصصها له ولأبنائه وأحفاده من بعده . فقد أعطى أبنه الأكبر «جوتشي خان» الجهات الغربية من إمبراطوريته ، وتمتد من ضفاف «نهر قرا - ارتش» إلى «نهر الفلكَا» ، وتشمل كل مايستطيع فتحه المغول من الأراضي الغربية ؛ والأراضي الواقعة إلى الشرق من ممتلكات الأخير خصصها «جنكيزخان» لأبنه وولي عهده «اكتاي قاآن» أبنه الثالث ، (وتشمل منطقة «نهر إميل» وأراضي المغول شرق «نهر قر - ارتش» ومناطق «سينكيانك» الشمالية الحالية ، كما جعله ولياً للعهد من بعده) ؛ أما الأبن الرابع ، وهو أصغر الأخوة الكبار الأربعة «تولي خان» فإن ما خصه به والده هي أراضي المغول الأصلية ، باعتباره الوارث الحقيقي لأرض الآباء والأجداد ، والذي يطلق عليه «حارس البيت والنار» لأنه الابن الأصغر من الزوجة الكبرى[1] .

---

(١) لمعلومات تفصيلية عن توزيع ميراث جنكيزخان بين أبنائه وذويه ، أنظر : الجويني ،

في حقيقة الأمر ، فإن ماقاله «ماركو بولو» لاينطبق إلا على «جنكيزخان» وعلى أبنه الأصغر «تولي» وبقية أبناء الأخير ، «منكو» وأبنائه ، و «أريق بوقا» وأبنائه ، حيث يقع ذلك الجبل الذي به «الدائرة العظمى المقدسة» وهو عندهم بمثابة القلب النابض لوطنهم القومي ، وهو من ضمن أراضي الأمير «تولي» وأسرته ، كما قلنا . أما بقية أفراد الأسر الأخرى ، فقد دفن كل فرد منهم في أراضيه وأراضي أسرته ؛ فأعضاء أسرة «جوتشي» تم دفنهم في أراضيهم التي عرفت في التاريخ بـ «القبيلة الذهبية – Golden Horde» ، حيث كانت عاصمتها «السراي» القديمة ثم الجديدة ، الواقعتان على ضفاف «نهر الفلكَا»[1] . أما أسرة «تشغتاي» فقد كانت أراضيها تقع في إقليمي التركستان وما وراء النهر ، حيث أصبحت مكاناً ليدفن فيه كل من أنحدر من أسرة هذا الأمير ، وهذا بعينه ينطبق على الأبن الثالث لجنكيزخان ، وهو «اكتاي» وأسرته ، والتي جعل أفرادها من حوض «نهر إميل» مركزاً لمملكتهم[2] . بل إننا نجد بأن هناك فرعين آخرين تفرعا من أبنين من أبناء «تولي خان» وهما «هولاكو خان» و «قبلاي قآن» . فنجد بأن الفرع الأول يؤسس له ملكاً ، ودولة في أراضي إيران والعراق ، ويجعل فيها مقبرة له ولأسرته ، على غرار ماجرت عليه العادة في المجتمع المغولي[3] . بينما نجد أن «قبلاي» هو الآخر قد أسس له دولة وملكاً مركزهما «مدينة الخان» ، «بكين» «خان باليغ»

تابع (١)

«جهانكشاي» ، جـ١/ص.ص : ٣١ – ٣٩ ، ثم كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ١٤١ – ١٤٣ وما ورد في حواشي هاتيك الصفحات من مصادر ومراجع المادة ، وموضوع الاشارة .

(١) أنظر «مراسم دفن الخانات المغول وسرية قبورهم» في ٣ أسرة «جوجي خان» «القبيلة الذهبية» في القفجاق تحت ، من هذا البحث ص.ص : ١٧٧ – ١٨٠ .

(٢) أنظر تحت: «مكان ومراسم دفن الخان المغولي الثاني «أكتاي قآن» ص.ص: ١٦٦ – ١٧٢ .

(٣) أنظر تحت: «أسرة الايلخانيين في إيران والعراق» ص.ص : ١٧٤ – ١٧٧ .

وبها كانت مقبرة أبناء وأحفاد هذا الأمبراطور[1] .

(ب) مراسم وطقوس دفن خانات المغول في «الدائرة العظمى المحرمة» :

لعل الذي يهمنا هنا هو ما يتعلق بكيفية دفن الخان المغولي «جنكيزخان» ، وما قدم له من أضاح أو قرابين ، بشكل عام ، وخاصة ما يخص بكيفية دفن هذا الخان نفسه ، حيث لم نعثر على وصف كامل ، أو قريب منه ، كذلك الذي أورده لنا الرحالة المسلم «ابن بطوطة» ، في وصفه لقبر أحد موتى المغول في الصين ، والذي شاهدها بنفسه[2] . فالمصادر التي بين أيدينا تذكر بأن جثمان «جنكيزخان» قد قام بتجهيزه ، والاشراف على طقوس ومراسم الدفن ، واحد من اثنين من قواده المخلصين والمقربين إليه ، فهو إما «سوبتاي بهادر» وهو من أعظم قائدين عرفهما التاريخ العسكري المغولي[3] أو «بيسلوكَن بهادر» على اختلاف الروايات في هذا الشأن[4] . على الرغم من إننا لم نعثر ، كما قلنا ، على وصف لهذا ، فإن الطابع العام في دفن الموتى في المجتمع المغولي واحد ؛ فلا تكاد تختلف مراسم الدفن لخان مغولي عن الرجل العادي ، من حيث الأصل والكيفية والتقليد العام . وإن كان هناك اختلاف فإنه يكمن في كبر حجم الضريح ، وكثرة عدد ما يذبح له من الحيوانات على قبره أو لأجله ، وما يقتل من الآدميين . وهذا ما ينطبق بصورة رئيسة على حالة وفاة الخان ، وذلك

---

(١) أنظر تحت : يوان تشه في الصين «يوان جه» ص.ص : ١٧٢ - ١٧٤ .

(٢) سيرد معنا تحت ذكر لوصف هذا الرحالة المسلم ، في كلامنا عن دفن «أسرة المغول في الصين والمعروفة بـ «يوان تشه أو يوان - جه» .

(٣) القائد المغولي الثاني هو «جبه نويان» وقد لعب ، هذان القائدان ، أبرز الأدوار العسكرية في حملة «جنكيزخان» ضد الشرق من العالم الاسلامي . راجع في هذا الخصوص كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ١٢٤ وبعدها ، كذلك كتابنا «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي» ص.ص : ٢٧٣ وبعدها .

(٤) رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/ص.ص : ٤٠٦ - ٤١٦ .

ليلحقوا بسيدهم المتوفى ، ويسعدوا بخدمته في حياته الثانية ؛ وفوق ذلك كله ، السرية ، المطبقة التي يحيطها المغول حول أماكن أضرحة خاناتهم ، وبخاصة بين أفراد المجتمعات الأخرى ، من غير المغول ، إذ إن المغول لابد أن يكونوا على علم بها .

لذلك ، فلابد وأنهم ذهبوا به ، بصفة سرية ، إلى المكان المعروف والمعين من قِبَل الخان نفسه ، خارج المخيمات ، وبعيداً عن المساكن . هناك أزالوا أعشاب وحشائش المكان بكل عناية ، حتى يظل التراب ، أو الطين ، العالق بها على حاله ، ليتم إعادته على الضريح ، كما كان قبلاً ؛ ثم يحفرون حفرة هائلة جداً ، للتسع لكرسي العرش ، وما يدفن معه من أناس أحياء ، وأوانٍ ، وشراب ، وزاد ، ولباس وغير ذلك ، من مسكن له ، وأفراس ومهرات ، وأحصنة ، ومائدة من الذهب أو الفضة . وإلى جانب تلك الحفرة الكبيرة يجوِفّون حفرة أخرى لوضع الجثمان فيها ، بعد ذلك يعيدون العشب وماعليه من طين وتراب فيصبح الضريح شبيهاً بتلٍ صغير ، ولا يظهر عليه أثر الحفر ، بعد أن يسقفوه ، على مايبدو لنا ، بأخشاب وأعمدة ، فلا أحد يتمكن من تمييز المكان ، كما سنذكر ذلك في هذا البحث . ولابد أن أرضية الضريح قد فرشت بأحسن أنواع الفرش ، وزين وزخرف ، ودفن معه مايملكه من أواني الذهب والفضة ؛ وغير ذلك مما قد يحتاجه في حياته الثانية ، والتي لا يريد أقرباؤه وذووه بأن تكون حياته الثانية أقل رفاهية وتنعمٍ ، وجاهٍ وجلالٍ ، من الحياة الأولى ، حسب المعتقد الديني عند المغول ، ونظرتهم تجاه الحياة الثانية .

هذا ما يتعلق بمسألة الدفن ، أما ما يخص القرابين ، وما يهرق من دماء بشرية وحيوانية ، فإن من عادات المغول في هذا الشأن ، ذبح أكبر عدد ممكن من البشر والحيوان ؛ ليكثر حَشَم وخَدَم وحيوانات وأملاك ذلك الشخص المتوفى . والدليل ماترويه تلك الروايات ، حول ماقتله حرس «جنكيزخان» من البشر والحيوان ، أثناء طريق العودة من أراضي

«التنكَوت» حتى وصلوا منغوليا ، وهي روايات أقرب إلى الواقع ، أو شيء منه ، منها إلى الوهم ؛ وأكبر شاهد يمكن الاستدلال به هنا هو ما قام به خليفة «جنكيزخان» وأبنه الثالث «أكتاي» بعد أن نصب على عرش المغول بعد والده ، إذ يحدثنا المؤرخ المسلم «الجويني» ، في مصنفه «جهانكشاي» ، أي «فاتح العالم» أن أول عمل قام به «أكتاي» بعد أن نصب «قاآناً» جديداً ، هو إصدار قراره بتقديم القرابين إلى روح والده . حيث أمر بأن يختاروا له أربعين بنتاً عذراء ، من اللواتي كُنَّ على جانب كبير من الحُسن والجمال ، وهُنَّ في غاية التزين والتجمل ، ومن ذوات النسب الراقي ، والمحتد الطيب ، من الأمراء والقادة ، ممن كُنَ قريبات الصلة بالخان المغولي أثناء حياته ، ومعهن أربعون من أجود وأحسن أنواع الخيل ، وهي مسرجة بكامل عدتها ؛ كل ذلك العدد من البنات والحيوان أُخْتِيرَ لِيُذْبَحْ حتى يلحقوا «بجنكيزخان» . فالنساء يقمن على خدمته والعناية به ، في حين تستخدم الخيول ليرحل عليها من مكان إلى آخر ، في حله وترحاله ، أثناء حياته الأبدية الثانية ، حسب إعتقادهم . وهنا يظهر من المستحسن أن ننقل نص ماروراه في هذا الخصوص «رشيد الدين» ، حيث أن روايته ، التي نقلها بتصرف عن سلفه «الجويني» ، تبدو لنا أكثر قبولاً من رواية الأخير ، حيث يقول : «وعندما انتهى (يعني أكتاي) من الاحتفالات (إحتفالات تتويجه خاناً جديداً ، والتي تمت بعد ثلاث سنوات من وفاة والده) وعمل الهدايا ، أصدر أوامره ، طبقاً لما ورد في الياسا القديم (قانون جنكيزخان) وما جرت عليه العادة والتقاليد ، بأن يتم إعداد أطعمة يستمر جمعها وتقدمتها خلال ثلاثة أيام على التوالي لتقدم إلى روح جنكيزخان ، وأن يختاروا أربعين بنتاً بديعات الحُسن والجمال ، ومن أصل ونسل الأمراء الذين كانوا ملازمين له ، «جنكيزخان» ، وقد حُلِّين بأثواب نفيسة ومرصعة بالذهب والجواهر

ليلتحقن مع مجموعة من الخيول بروح «جنكيزخان»[1] .

إذاً، أصبح واضحاً لنا الكيفية التي تقدم بها القرابين من البشر والحيوان، وذلك بقتلهم وقتل الحيوانات؛ ومع ذلك فإن الكيفية التي يتم بموجبها إعدام الناس، الذين يقدمون كقرابين له في داخل ضريحه تحت الأرض، ليست معلومة لدينا. إلا أنهم ، على مايبدو لنا، يقومون بدفن الضحايا البشرية (رجالًا ونساءً) أحياءً إلى جانب الجثة، وفي داخل منزله الذي دفن فيه؛ بالاضافة إلى أنهم يدفنون معه ، في أسفل الضريح، أحب عبيده إليه حياً[2]. وفي هذا الخصوص يحدثنا المؤرخ الأرمني المعاصر «كيراكوس الاكنجكي» بأن المغول يدفنون مع الرجل المتوفى في قبره، وبخاصة إذا كان من الرجال العظام، خدمه من الرجال والنساء، لكي يقوموا على خدمته ورعاية شؤونه؛ وكذلك يدفنون معه سلاحه، وخيله، إعتقاداً منهم بأنه سوف تقع حروب طاحنة وقتال ضارٍ في الحياة الثانية[3] .

بما أن هذا هو إعتقاد المغول ، من أن الحياة الثانية ، بعد موته ، لا تختلف في نظرهم عن الحياة الدنيوية ، فإن الاكثار من تقديم أكبر عدد ممكن من القرابين ، سواء أكان ذلك من النفوس البشرية أو من الخيول والأفراس ، مسألة تحتمها مكانة الشخص المتوفى . وبما أن المرء المتوفى هنا هو الخان الكبير «جنكيزخان» ، فلابد أن تكون الضحايا البشرية والقرابين من الأفراس والخيول كانت بأعداد كبيرة ؛ حتى يتمكن من إمتلاك أعداد كافية من البشر ليقوموا على القتال معه ، ويخدمونه ؛ وأعداد

---

(١) رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/ص : ٤٥٤ ؛ الجويني ، «جهانكشاي» ، جـ١/ص : ١٤١ ، الترجمة الانجليزية ، جـ١/١٧٨ – ١٧٩ . راجع كذلك الترجمة الانجليزية لكتاب رشيد الدين لخلفاء جنكيزخان وهو : "The Successors of Genghis Khan" Translated from the Persian by: Prof., J.A. Boyle, New York, 1971, P: 31.

(٢) ورد ذكر ذلك سابقاً في موضوع الديانة في المجتمع المغولي .

(٣) Kirakos of Ganjak on the Mongols", Central Asiatic Journal, Vol. VIII, PP: 199-214 (P: 204).

كبيرة من الأفراس لتزوده بالحليب والمهور ؛ كما أن القيمين على مراسم دفن «جنكيزخان» دفنوا معه سلاحه الذي كان يستخدمه في حياته الأولى على وجه الأرض ، من الأقواس ، وسهام ، ورماح ، وسيوف ، ودروع ، وخوذ ؛ كل ذلك ليتمكن من التغلب على أعدائه . فالمغول يعتقدون بأن مايجري في حياة الفرد الدنيوية يتكرر له أحداث مثلها في حياته بعد الموت ، فيخوض الحروب ، ويقود الرجال في المعارك ، كتلك التي كان يفعلها قبل موته ، كما مر معنا ذكر ذلك أعلاه . .

أما مسألة كيفية تقديم الطعام كقربان ، فإن ذلك يتم بجمع كميات ، تكثر أو تقل ، حسب مكانة الشخص المتوفى . وهنا يحدثنا مصنف كتاب «التاريخ السري للمغول» من أن ذلك كان يجري كل سنة ، كشيء ، أو عادة أو تقليد ، متبع ، في شهر ويوم معينين ، يتم في بلاط الخان الأعظم . ففي الشهر التاسع القمري من كل سنة ، وكذلك في يوم ما ، بعد اليوم السادس عشر من الأثني عشر شهراً القمرية ، تجري العادة أن تقام مناسبة طقوس تقديم الطعام إلى أرواح الآباء والأجداد ، في بهو البلاط الخاني ، حيث يتم إجراء هذا النوع من الطقوس بحرق ذلك الطعام بعد جمعه . ويتكون ذلك الطعام من لحوم الخيل ، ولحوم ثلاث من الضأن ، مع شراب من لبن الفرس «قميز» ، والكحوليات ، والخمور ؛ هذا بالاضافة إلى ثلاث لفات من القماش الأحمر ، وحرير مزين ومرصع بالذهب والجواهر ، وحرير آخر مصنوع من مادة خشنة ؛ كل ذلك لكي يستعمله المتوفى المنذور له ذلك القربان ، كملابس داخلية . وتنفيذاً لأوامر الأمبراطور ، يأتي بعد ذلك رجل مغولي ، يكون من كبار موظفي البلاط الخاني ، ومعه العراف والعرافة ، فيحفرون حفرة في الأرض لحرق الطعام[1] . كما يحرقون الكحوليات والخمور مخلوطة باللحم . وفي أثناء عملية تقديم القرابين تلك ، يقوم العرافون (رجال ونساء) فينادون بأسماء الحكام المتوفين باللغة الوطنية وذلك ، على مايبدو لنا ، ليعلموهم

---

(١) "The Secret History of the Mongols" PP: 288-291.

بأن يأتوا ليتسلموا تلك القرابين ، وينعموا باللباس ، خلال حياتهم التي يعيشونها . ويظهر لنا أن رشيد الدين والجويني قد أخفقا في ذكر السبب الذي جعل «اكتاي» ينتدب من يجمع الزاد ويجري مراسم وطقوس لثلاثة أيام متواصلة ، ثم يقوم بحرق ذلك الطعام والشراب ، وتقديمه كقربان إلى أرواح آبائه وأجداده[1] .

٢ - المقابر المغولية الملكية خارج منغوليا وطقوس الدفن* :

(أ) مقدمـــــة :

سبق أن تحدثنا في موضوع منشور ، عن ظهور قائد مغولي ، في قلب منغوليا ، موحد قواها المتناثرة ، ولم شعثها المبعثر ، وجعل منها قوة أرهبت عالم وقتها ، وأخضعت أغلب أراضيه وشعوبه لسطوة جبروتها ، وهيمنت على أممها ردحاً من الزمن ، في الشرق والغرب ، من أراضيهم خلال وقت زمني ، يعتبر قياسياً[2] .

فما أن شارف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي على النهاية حتى أصبح «تيموجين بن يِسُكَاي بهادر» ، والذي عُرِفَ في الأوساط التاريخية العالمية «بجنكيز خان» (٥٤٩ - ٦٢٤هـ/١١٥٥ - ١٢٢٧م، يتزعم جميع القبائل المغولية القاطنة في منطقة «نهري أونون وكرولين ؛

---

(١) Prof., J.A.Boyle, "The Thirteenth Century Mongols' Conception of the After-Life: The Evidence of Their Funerary Practices" PP: 12-13.

★ نشر جزء كبير من هذا الموضوع «مراسم دفن الخانات المغول ب - خارج موطن المغول الأصلي» بعنوان «مكان ومراسم دفن الخانات المغول خارج موطنهم الأصلي» في مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، المجلد الحادي عشر ، صفحاته ٢٩٧ - ٣١٢ . وقد إستجدت أمور ، رأيت أنه لابد من إعادة النظر فيه ، ومن ثم جعله ضمن الإطار العام لما نحن فيه ، فهو مكمل لموضوع «بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الإجتماعية والدينية»

(٢) أنظر في هذا الخصوص كتابينا «سقوط الدولة العباسية» ، وخاصة الفصل الاول ؛ و «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي» ص.ص : ٢٣٧ وبعدها .

بعد أن وحدها تحت قيادته الشخصية[1] . ما إن انقضت الخمس سنوات الأولى من العقد الأول من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، حتى أكمل «جنكيزخان» توحيد كافة القبائل المغولية قاطبة ، وشرع في بناء إمبراطورية عالمية ، كتب لها أن تخضع تحت سلطتها المباشرة ، تقريباً جميع الأراضي الممتدة من السواحل الغربية للمحيط الهادي في الشرق حتى وصلت قلب القارة الأوربية ، ودقت أبواب «فينا» في الغرب ، ومن سيبيريا وموسكو وأراضي الدويلات الروسية ، قرب بحر البلطيق في الشمال إلى الهند الصينية وشمال شبه القارة الهندية وشمال الجزيرة العربية والشام جنوباً ؛ لذلك فقد أضحت في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، من أكبر الامبراطوريات التي عرفها التاريخ الانساني ، إن لم تكن أكبرها على الاطلاق[2] .

قبل أن يخرج هؤلاء المغول البدو من عزلتهم ، في موطنهم الأصلي ، كان لهؤلاء الناس عادات وتقاليد معينة يكاد مجتمعهم يختلف ، في أشياء كثيرة منها ، عن غيره من المجتمعات البشرية الأخرى ، وخاصة تلك التي أخضعها المغول تحت نفوذهم إلى الجنوب والغرب بشكل رئيس . مر معنا كل ذلك بنوع من التفصيل في الصفحات السابقة من هذا البحث .

فمن هذه العادات والتقاليد ، كيفية دفن موتاهم ، وقد رأينا كيف كانت تتم مراسم ودفن الناس العاديين ، من الناس وشيوخ العشائر وكبار رجال المجتمع لدى المغول ، ومدى سرية المكان الذي يدفن فيه ميتهم ، أما مسألة مراسم ودفن الخانات المغول وسرية أماكنها فلا تكاد تختلف كثيراً عما سبق ذكره إلّا في مسألة السرية . لذلك فسوف نُخصِّصُ الصفحات

---

(١) نهرا «أونون وكرولين» من أشهر الأنهار التي تكاد تحيط بالموطن الأصلي للمغول ، على شكل جزيرة ؛ وهو كثير الشبه بسواد العراق .

(٢) فيما يتعلق بجهود «جنكيزخان» في توحيد قبائل المغول أنظر المرجع الأول في الحاشية قبل السابقة ، ص.ص : ٥٣ .

التالية للحديث عن مراسم دفن الخانات المغول خارج وطنهم وسرية أماكنها؛ وسنتخذ مسألة مراسم وسرية مكان دفن الخان المغولي الثاني «أكتاي قاآن» مثالاً، ثم كيف خرج المغول بهذا التقليد، من موطنهم الأصلي في منغوليا؛ والتغيير الذي واكب تطور المغول في حياتهم الجديدة في أراضي مملكتين من ممالكهم التي أنشأوها خارج أرض الآباء والأجداد. وهاتان المملكتان هما: «الدولة الايلخانية في إيران والعراق، ودولة القبيلة الذهبية في إقليم القبجاق أو القفجاق»، حيث حصل لهم في هذه الناحية ذاتها تغيير جذري، بعد أن إعتنقوا الدين الاسلامي، وأصبحوا من المتحمسين له، ونبذوا طريقة آبائهم وأجدادهم، للظروف والمستجدات التي طرأت على حياتهم.

قبل أن يتوفى «جنكيزخان» قام بتقسيم أراضي الامبراطورية، التي أشاد بناءها شامخاً من لا شيء، بين أبنائه الأربعة الكبار، من زوجته الكبرى «بُرْتِه»؛ وخصص لكل واحد من أولئك الأبناء مملكة واسعة خاصة به؛ وقد سبق لنا تفصيل ذلك في موضوع سابق[1]. بناءً على ذلك التقسيم، أصبح لكل واحد من أولئك الأبناء مملكة مستقلة ورثها من بعده أبناؤه وأحفاده. وفي هاتيك البقاع أمسى لكل أسرة وأفرادها أماكن خاصة تحوي جثمان كل إمرىءٍ منهم، وفي غاية السرية والكتمان، إلا من أسلم منهم فيما بعد، أو أصبح هذا الانسان، أو الآخر، المغولي يعتنق غير ملة أبائه وأجداده، فتبدل حاله، وتغيرت طريقة مراسم دفنه، بتغير وضعه الاجتماعي.

لذلك، فإن إيراد كيفية مراسم دفن فرد واحد من خانات المغول تكفي لاعطاء صورة واضحة حول هذا التقليد والعادة المغوليتين.

(ب) مكان ومراسم دفن الخان المغولي الثاني «أكتاي قاآن» وأسرته:

الخان المغولي الثاني من أسرة «جنكيزخان» هو «أكتاي قاآن»

(١) أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ١٤١ – وبعدها.

(٦٢٧ - ٦٣٩هـ/١٢٢٩ - ١٢٤١م) . ومن المعروف أن الأراضي الأميرية ، التي أصبحت ملكاً له ولأسرته من بعده ، هي المناطق الواقعة بين وادي «نهر أميل» و «نهر قرا - آرتش» ، أي في المنطقة المعروفة في الوقت الحاضر بـ «منطقة سنكيانك» أو «اويغور» . إذاً ، فلابد أن تكون مقبرة هذا الفرع من أسرة «جنكيزخان» في مكان ما من هذه الأراضي الواسعة . وعندما توفي «اكتاي» - والذي كانت وفاته بسبب الإفراط المدمن في الشراب ، رغم نصائح الأقرباء بعدم الأكثار من ذلك - أخذت جثمانه ، ونقل إلى هذه المنطقة . دفن في سفح جبل طويل مغطى بالثلوج الدائمة - خاصة في فصل الشتاء - في أراضيه الأميرية ، حيث تقع منابع «نهر قرا - آرتش» . وقد إستخلص الأستاذ الدكتور «بويل» (ذلك الباحث الأنجليزي الكبير والمتخصص في التاريخ المغولي) من دراسته لاستقصاء ومعرفة مكان دفن هذا الخان المغولي الكبير ، بأن مكان دفنه لابد أن يكون في مكان ما على المنحدرات الجنوبية لجبال «سور» وهي المرتفعات التي تفصل بين شمال مقاطعة «سينكيانك» الصينية وبين المرتفعات العلوية لمنابع «نهر قرا - آرتش» . إستخلص هذا الأستاذ الباحث نتائج دراسته تلك ، بعد بحوث ودراسات وتحقيقات علمية موثقة قام بها أساتذة سابقون له ، أمثال : بُلْ بليوت الفرنسي ، ورافرتي الانجليزي ، بارتولد وسميرنوفا وختكورف وبتروشفسكي الروسيون[١] .

أما ما يتعلق بمراسم دفن «أكتاي قاآن» ، فيبدو لنا أنه قد ذبح على ضريحه أعداد كبيرة من الحيوانات ، ولابد أن تكون الأفراس في قائمة هاتيك الحيوانات المضحى بها ، حتى يكون لديه ، في حياته الثانية ، حسب ما يزعمون ويعتقدون ، منها ما يباهي به نظراءه ، ويحارب أعداءه

(١) J.A. Boyle, "The Burial Place of the Great Khan Ogedie", Acta Orientalia, XXXII, Copenhagen, 1970, 45-50 (P:50).

عليها . وقد سبق لنا ذِكرُ ذلك سابقاً ، فيما يتعلق «بالمريض والمتوفىٰ في المجتمع المغولي» ؛ ثم ماأوردناه في الفقرة (١) السابقة .

بناءً على ما يمكننا إستنتاجه مما ذكر سابقاً ، ومن خلال ماأمدتنا به مصادر مادتنا ، يبدو لنا أن الخان المغولي «أكتاي» ، قد حُفِرَ له تحت الأرض حفرةً هائلةً لتَتَسعُ له ولخُدامه ، وعَبيده ، والمقربين إليه ، ومعه حليه ، وسلاحه ، وعدته وعتاده ؛ وفوق ذلك كله عرشه ، الذي لابد أن يكون قد دُفِنَ ليجلس عليه ، بصفته كان «قاآناً» للمغول ، وخاض حروباً ومعارك لا هوادة فيها ، أثناء حياته ؛ وسوف يقوم ، كما يعتقد المغول ، بحروب ، وقيادة معارك في حياته الثانية بعد وفاته ، مشابهة لهاتيك الحروب والمعارك التي قام بها في حياته الدنيوية . ولابد أن يكون قبره قد سُقِّفَ ، وأُعِيدَ عليه جميع الأشجار والأحراش والأعشاب ، التي سبق وأُزيلت بعناية فائقة ، ووضعت جانباً ، وحفر مكانها ضريح الخان المغولي ، وعليها طينها وأتربتها ، وأُخفيت جميع معالم الضريح ، وكأن الأرض لم تحفر من الأصل ، ولم تُزَلْ ما كان عليها من أشجار وغيرها . ولابد أن يكون قد ذبح على ضريح الخان هذا أعداداً هائلة من البنات المغوليات العذارىٰ ، ومن ذوات الحسب والنسب الراقيين ؛ ناهيك عما كان قد قتل من أفراس ودواب أخرى ؛ كل ذلك ليلحقوا بسيدهم ، ويسرعوا في خدمته . وعلى كلٍ فإن ماعُمِلَ له شبيه بما أُجري لوالده من قبل .

على العموم ، يظهر لنا ، بأنه أضحى من الصعوبة بمكان إماطة اللثام عن ذلك المكان السري ، الذي دُفِنَ فيه ذلك الامبراطور المغولي ؛ وكل ماقيل حول احتمال وجود الضريح ، هنا أو هناك ، لم يتأكد بشكل دقيق ، حسب مايظهر لي ، وحسب معلوماتي .

دُفن في نفس المكان ابنه وخليفته على العرش المغولي — الخان الثالث — «كويوك خان» (٦٤٤ — ٦٤٦هـ/١٢٤٦ — ١٢٤٨م) ؛ وجرت له مراسم الدفن المعتادة لدى المغول . حيث أصبح ذلك المكان

مقبرة لأفراد هذه الأسرة ؛ وهذا المكان عبر منه الرحالة الأوربي ومبعوث «البابا أنوسنت الرابع» «جون البلانو الكربيني» وهو في طريقه لمقابلة الخان في «قره – قروم» ، في رحلته المشهورة إلى منغوليا[1] .

أصبح موقع المقبرة مكاناً مقدساً لدى أعضاء هذه الأسرة ، والتي أصبحت أرضها يعبر عنها بـ «الدائرة المقدسة» ومحرم قطع أو أخذ شيء من أشجارها . حيث يروي لنا الرحالة بأن مؤسس هذه الأسرة ، من فرع عائلة «جنكيزخان» ، قد جعل هذه الأراضي أيكة واسعة ، خصبة المرعى ، كثيرة الأشجار ؛ وحرمها على أي واحد من أن يرعى كلأها ، أو أن يقطع من شجرها ، مهما كان صغيراً ، ولأي غرض ؛ وذلك لتكثير مراعيها وأشجارها ؛ وتصبح كثيفة إلى روحه . لذلك – وكما يروي لنا «جون» – فإنه لا أحد يجرؤ أن يقترب منها ، أو يقطع منها شيئاً . كان هذا الرحالة – حسب روايته – ورفاقه في أمس الحاجة إلى عصي صغيرة لدوابهم التي يركبونها ، فلم يكن بإستطاعتهم أخذ ذلك من تلك الغابة ؛ ومن فعل ذلك فإنه يؤخذ ، ثم يجلد على ملأ من الناس ، ويجرد ويهان[2] .

يظهر لنا أنه ربما كان الغرض ، من إيجاد هذا الحمى ، هو اعتقاد منهم بأنه سيكون أرضاً ممرعة ، ترعى فيه مواشي ودواب الخان المتوفى ، صاحب ذلك الحمى ، فحرم الرعي على غيره فيه ؛ وَحُرِمَ قطع أشجاره ، ليصبح ممرعاً ، وكافياً لحيواناته ، في حايته الثانية ، ولتبقى سمينة على الدوام . فالحيوانات هي عماد إقتصاد المغولي ، وبدونها لا يكاد يعيش . وكذا كان يعتقد بأن حياته الثانية لا يمكن أن تكون سعيدة هنيئة بدون حيواناته ، التي لابد أن يهيء لها حمى خاصاً ممرعاً .

---

(١) لمعلومات عن فترة حكم «كويوك خان» أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» : ١٥٧ – ١٥٩ .

(٢) Carpini, "History of the Mongol", Ed., Dawson, P: 13.

أما بالنسبة للخان المغولي الرابع «منكو قاآن» (٦٤٩ - ٦٥٧هـ/ ١٢٥١ - ١٢٥٨م) فقد دُفِنَ في المقبرة الملكية الكبرى في منغوليا ، مع والده «تولي» وجده «جنكيزخان» ، والمعروف بـ «بورقان قلدون» ذلك الجبل المقدس لدى «جنكيزخان» حيث قضى فترة شبابه[١] .

كان «منكو قاآن» يقود حملة المغول العسكرية الكبرى ضد الأراضي الصينية ، الواقعة إلى الجنوب من النهر الأصفر ، حيث كانت أمبراطورية سُنْك[٢] ؛ وقد ذهب إلى هناك كقائد عام للجيوش المغولية الغازية ، والتي كانت طلائعها قد أرسلت بقيادة أخيه الصغير «قبلاي» ، الذي كان مسيره إليها متواقتاً مع مسير حملة «هولاكو خان» إلى الغرب ، حيث قضى على طائفة الاسماعيلية في إيران ، وأنهى أمر خلافة بني العباس المتداعية وغزا بلاد الشام[٣] .

مات «منكو قاآن» أثناء حملة المغول داخل أراضي الصين ، وبالذات أثار حصار الخان لمدينة «ياوجو»[٤] . لذلك فقد كان حتماً على المغول أن ينقلوا جثمان الخان المتوفى إلى حيث تقع أراضيه الأميرية ، وعلى وجه

---

(١) Poppe N. ''On Some Geographic Names In Jami'al-Tawarikh'', Harvard Journal of Asiatic Studies, 1956, Vol. 19, 1-2, PP: 33-44 (P: 35), Note 8.

(٢) كان الغزو المغولي قد بدأ يهاجم أراضي الصين منذ أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بقيادة «جنكيزخان» ، ثم تلاه في هذا الخصوص أبنه وخليفته «أكتاي» الذي أنهى إمبراطورية «جن» في شمال الصين . ثم جاء الامبراطور «منكو» فسار على نفس المنوال ، ومات وهو يقاتل الصينيين ؛ ثم جاء الامبراطور «قبلاي» وأخضع أراضي الصين كافة في أواخر ذلك القرن . وبذلك أسس المغول دولة لهم بها إستمرت حوالي قرن من الزمن أنظر تحت «أسرة يوان تشه في الصين» .

(٣) لمعلومات أوفر في هذا الموضوع ، أنظر ماقلناه في هذا الشأن في كتابنا «سقوط الدولة العباسية» الفصل الرابع .

(٤) يبدو لنا أن هذه المدينة هي «يون ـ نان فو» المعروفة في الوقت الحاضر بـ «كنمنك Kunming» . راجع في ذلك رشيد الدين ، «جامع التواريخ» جـ١/ص : ٦٠٢ ، الترجمة الانجليزية «خلفاء جنكيزخان» ص.ص : ٢٢٦ ـ ٢٢٨ حاشية ١١٧ و ١٢٤ .

الخصوص في الجبل المذكور ، ليدفن إلى جانب والده وجده .

حدثنا رشيد الدين عن وفاة هذا «القاآن» ، وأن المناحات أقيمت أربعة أيام متتالية ، كل يوم ينقل التابوت إلى مسكن إحدى زوجاته «الخواتين» الأربع ، على التوالي ؛ وفي كل مرة يضعون التابوت ، وفي داخله الجثة ، على كرسي العرش المغولي ، وينوحون عليه . بعد ذلك ذهبوا به فقبروه إلى جوار أبيه وجده . حول هذا الموضوع بالذات يحدثنا «ماركو بولو» قائلاً بأنه عندما مات «منكو قاآن» أخذ جثمانه ، ونقل من الأراضي الصينية إلى أراضيه الأميرية ، وفي أثناء رحلة العودة قتل الجند المرافقون للجثمان أكثر من عشرين ألف رجل ، ويقولون عند قتل الواحد منهم : «إذهب وإخدم سيدك في العالم الآخر»[1] .

كما هي العادة ، التي كانت متبعة لدى المغول في دفن خاناتهم ، بالطبع فقد تكررت مرة أخرى في مراسم دفن «منكو قاآن» وأخويه «قبلاي» و «أريق بوقا» ، اللذين دفنا في نفس المكان ، من حيث حفر الحفرة الهائلة لتتسع لما يدفن معه من بيت وأثاث ، وطعام وشراب ، ونساء ورجال ، وخدم ، وخيول ، وذهب ، وفضة ، وسلاح ؛ ثم ماذبح على قبره من الآدميين والدواب ، وأخيراً إخفاء معالم ذلك القبر ، لئلا يعرف مكانه ، فيظل سرياً .

بقي مكان دفن أولئك الخانات مسألة سرية لا يعرف عنها أحد ، لأعتقاد المغول بأهمية سريتها ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الهجري الماضي/أواخر السبعينيات من القرن الميلادي ، حيث عين الأثريون مكان «الدائرة العظمى المحرمة» إلى حد اليقين ، والذين كانوا برئاسة العالم

---

(١) راجع المصدر السابق، الطبعة الفارسية، جـ١/ص.ص : ٦٠٣- ٦٠٤ والترجمة الانجليزية ص.ص: ٢٢٧- ٢٢٩، ثم الحواشي ١٢٥- ١٢٩، راجع كذلك: Marco Polo, "The Description..", PP: 167-168; Spuler, "History of the Mongols", P: 171; Rubruck, "The Journey.." Ed., Rockhill, PP: 192-194.

الآثري الألماني الشرقي «جونس سكوبرت» ؛ حيث أماط اللثام عنه في تقرير قرأه في العاصمة المغولية ، «أولان بأتور» أمام ندوة المتخصصين المغوليين ، في عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م[1] . أما بالنسبة لمكان دفن أسرة «أكتاي» ، فكما ذكرنا سابقاً ، فإنه مايزال أمراً غير معروف ؛ ومن يعلم ، فقد يماط اللثام عنه قريباً .

(جـ) أسرة «يوان – تشه» في الصين :

أسس هذه الأسرة المغولية ، التي حكمت الصين لمدة قرن وربع القرن من الزمن تقريباً (٦٥٨ – ٧٧٢هـ/١٢٦٠ – ١٣٧٠م) مؤسسها الكبيرة «قبلاي قاآن» (٦٥٨ – ٦٩٣هـ/١٢٦٠ – ١٢٩٤م) . أورد لنا الرحالة المسلم «ابن بطوطة» (٧٠٤ – ٧٧٩هـ/١٣٠٤ – ١٣٧٧م) وصفاً حياً لحادثة مراسم دفن رآها بعينه جرت في مدينة «خان باليغ» ؛ حيث زارها أيام حكم الامبراطور المغولي «توغان تيمور» (٧٣٣ – ٧٧٢هـ/١٣٣٢هـ – ١٣٧٠م) . إلا أنه أخطأ من الناحية التاريخية – على ما يظهر لنا عندما ذكر بأن مراسم الدفن تلك التي رآها كانت لمورارة جثمان هذا الامبراطور بعد أن ثار عليه ابن عمه[2] «فيروز» الذي كان ولياً له في مدينة «قرا – قروم» . حيث يدعى «ابن بطوطة» أن «القاآن» ذهب إليه لإخماد تمرده الثائر ، إلا أن جنده انحازوا إلى ابن عمه ، فقاتلوه وهزموه ، وأخيراً قتل ، كما يذكر «ابن بطوطة» . ويبدو لنا أن هذا الرحالة قد جانب الصواب في هذه الناحية[3] .

---

(١) J.A. Boyle, "The Thirteenth-Century Mongols' Conception of the After Life: The Evidence of their Funerary Practices, Mongolian Studies, I, Bloomington, Ind., 1974, PP: 5-14, P: 9 and Note 23, P: 13.

(٢) J.A. Boyle, "A Form of Horse Sacrifice.." C.A.J.,X, P: 147, Note 12.
يبدو لنا بأن هذا الاستاذ لم يكن دقيقاً عندما ذكر بأن الثائر كان ابن أخي الحاكم .

(٣) من المعروف أن «توغان تيمور» ظل متربعاً في سدة حكم أسرته في الصين من عام ٧٣٣هـ/١٣٢م إلى سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م حيث كانت نهاية هذه الأسرة . وقد أشار بويل إلى الشك في عدم دقة رواية ابن بطوطة وهو محق في ذلك . أنظر المرجع السابق ، نفس الصفحات .

لعل الذي يهمنا هو ما نحن بصدده في هذا الشأن ، وما أورده «ابن بطوطة» ، حيث يردف قائلاً : بأنه بعد أن وصل هو إلى مدينة «خان باليغ» جاء الخبر بوفاة «القاآن» فزينت المدينة ، وضربت الطبول والأبواق الانفار ، واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ، ثم جيء بالمقتول (الذي ربما أنه لم يكن القاآن نفسه) . قال فحفر له ناووس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفرشوه بأحسن الفرش ، وجعل فيه الميت بسلاحه ؛ وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة ، وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص المماليك ، معهم أواني الشراب ، وبني باب البيت (يعني القبر) وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ، ثم جاءوا بأربعة أفراس ، فأجروها عند قبره حتى أتعبت فوقفت من آثار الجري ، ونصبوا خشباً على القبر وعلقوها عليه . وجعل أقارب المتوفىٰ المذكورين في نواويس ، ومعهم سلاحهم ، وأواني دورهم ، وصلبوا على قبورهم كبارهم ، وكانوا عشرة ، ثلاثة من الخيل على كل قبر ، وعلى قبور الباقين فرساً فرساً . وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً ، لم يتخلف عنه أحد من الرجال والنساء المسلمين والكفار ، وقد لبسوا ثياب العزاء ، وهي الطيالسة البيض للكفار ، والثياب البيض للمسلمين . وأقام زوجات الرئيس (المتوفىٰ) وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوماً ، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة ، وصنعت هناك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه[1] .

يبدو أن ذلك المتوفىٰ لم يكن «القاآن» كما يذكر ابن بطوطة ، بدليل أنه لم يذكر أنهم قاموا بتجهيز طعام وشراب ، ولباس ليحرقوه في حفرة ، تعمل لهذا الغرض ، إلى أرواح الآباء والأجداد ، كما جرت عليه العادة عند وفاة أحد الخانات المغول ؛ إذ كان يقوم بذلك العرافون من

---

(١) ابن بطوطة «رحلته» ، ص.ص : ٦٤٤ - ٦٤٥ .

الرجال والنساء[1] . قد نخرج بنتيجة واحدة ، هي أن المغول في الصين ظلوا محافظين على ما جرى عليه آباؤهم في أرض الوطن ، حتى ثار الصينيون عليهم فأخرجوهم من تلك الأراضي وأعادوهم إلى حيث كانوا ، قابعين وراء «صحراء كوبي» ، في سنة ٧٧٢هـ/١٣٧٠م ، والسنوات القلائل التي تلت .

(د) أسرة الايلخانيين في إيران والعراق :

كان الأمر ، بالنسبة لهذه الأسرة المغولية في الغرب ، يختلف عنه عند أسرتهم الأولى في الصين . فعلى الرغم من أن «الايلخانيين» الأوائل طبقوا مراسم الآباء والأجداد عند دفن موتاهم ، والتي جاءوا بها إلى أراضيهم الجديدة في إيران والعراق ، إلا أننا نجد أن البقية من خاناتهم قد إعتنقوا الدين الاسلامي ، وطبقوا تعاليمه ، في طريقة دفن موتاهم على وجه العموم .

كان مؤسس هذه الأسرة هو «هولاكو خان» (٦٥٤ - ٦٦٣هـ/ ١٢٥٦ - ١٢٦٥م) ؛ الذي مات في ربع الثاني ٦٦٣هـ /كانون الثاني - يناير ١٢٦٥م . فأخذ جثمانه في تابوت ، ودفن على قمة تل يقع في وسط جزيرة صغيرة تسمى «جزيرة شاهي» في داخل بحيرة «أُرْمية» ، في إقليم أورمية آذربيجان ، وهذا التل يرتفع عن مستوى شواطيء البحيرة بحوالي ١٠٠٠ قدم . يذكر لنا حمدالله المستوفي القزويني ، في هذا الصدد ، بأن هذا التل في تلك الجزيرة أصبح المكان الذي دُفِنَ فيه ملوك المغول ، يعني الأوائل الذين جاءوا من بعد «هولاكو»[2] .

كما يحدثنا المؤرخ الفارسي ، شهاب الدين عبدالله بن فضل الله الشيرازي والمعروف بـ «وصاف الحضرة» حول مراعاة المغول لمراسم آبائهم وأجدادهم ، عند دفن موتاهم ، وإنهم صنعوا له (لهولاكو خان) تابوتاً وضعت الجثة في داخله ، ثم دُفِنَ ومعه كميات هائلة من الجواهر (ذهب

---

(١) J.A. Boyle, ''A Form of Horse Sacrifice..'' C.A.J.,X, P: 12-13.

(٢) حمد الله المستوفي القزويني في كتابه الذي حققه وترجمه لوسترينج بعنوان: ''The Geographic Part of the Nuzhat al-Qulub'', Leyden, 1919, P: 233 and Note 4.

وفضة وغيرهما) . كما دُفِنَ معه أيضاً عدد من البنات ذوات الحُسن والجمال ، في غاية التزين ، لابسات ثياب فاخرة مرصعة باللآلىء ، وذلك «... لئلا تصيبه الوحشة ، ويأخذه الضيق ، فيبقى مصاناً - حسب زعم هذا المؤرخ والجغرافي - من عذاب النار ...»[1] .

إضافة إلى ذلك ، فإنه لابد أن يكون هذا «الايلخان» ، كما جرت عليه العادة لدى المغول في مثل هذه المناسبة ، قد دُفِنَ أقرباؤه معه في بيته ذلك الذي تحت الأرض ، أكبر كمية من تلك الثروة الهائلة التي حازها «هولاكو خان» من أراضي الدولة الاسماعيلية في إيران - عندما أطاح بهم ، واجتثهم من جذورهم ؛ ثم ماحازه أيضاً من بغداد من خزائن الخليفة المستعصم ، وما جمعه آباؤه وأجداده من سبائك الذهب والفضة ، والتي أماط اللثام عنها هذا الخليفة نفسه من أحواضها التي كانت مخازن لها تحت الأرض ، ثم ماوجد في قصور الخلفاء ومانهب من بغداد من أموال تفوق كل وصف[2] . ونحن نعلم أن «هولاكو» قد بنى قلعة خاصة لتكون مخزناً لتلك الثروة في الجزيرة المذكورة[3] . بناءً على ذلك ، فلابد أن مادُفِنَ في قبره كان معظم ، إن لم يكن كل ، تلك الثورة الهائلة ؛ بالاضافة إلى تقديم القرابين من خيول وغيرها . كذلك لابد أن يكون قد دُفِنَ معه سلاحه وآلات حربه ، وطعام وشراب ولباس ، ومايرى ذووه أنه يحتاجه في حياته الثانية .

ينطبق على ابنه وخليفته على العرش في إيران والعراق «اباقا خان» أو

---

(١) وصاف الحضرة ، شهاب الدين عبدالله الشيرازي ، تاريخ وصاف ، المعروف أيضاً بـ «كتاب تجربة الأمصار وتجزية الاعصار» تحقيق عبدالحي آيتي ، طهران ، ١٣٤٦هـ.ش ، ص : ٣٠ .

(٢) حول هذا الموضوع أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ص.ص : ٢٨٩ وبعدها .

(٣) المصدر المذكور قبل السابق ، ص.ص : ٦٨ - ٧٠ ، كذلك راجع : J.A.Boyle, "The Thirteenth-Century Mongols, Conception.." PP: 9FF.

«اباغا خان» (٦٦٣ - ٦٨٠هـ/١٢٦٥ - ١٢٨١م) ماسبق وعمل «لهولاكو» من حيث مراعاة السرية التامة ، في موضع المقبرة الملكية «الايلخانية» ، ومن إجراء الطقوس المتبعة لدى المغول . وقد قبر إلى جانب والده في رأس ذلك التل ، في تلك الجزيرة في بحيرة «ارمية» .

كان «الايلخان» الرابع حفيد «هولاكو» هو «ارغون خان بن اباقا خان بن هولاكو» (٦٨٣ - ٦٩٠هـ/١٢٨٤ - ١٢٩١م) ، كما كان آخر حاكم مغولي من سلالة «الايلخانيين» تجرى له مراسم الدفن المغولية المعتادة ، وقد قبر في «جبل سجاس» الذي يبعد حوالي عشرين ميلاً إلى الجنوب من مدينة سلطانية ، والتي كان قد شرع في بنائها ولم يتمه ، فأكمله من بعده أبنه «اولجايتو» (٧٠٤ - ٧١٦هـ/١٣٠٤ - ١٣١٦م) . حيث يذكر لنا حمدالله القزويني بأن هذا الخان جرت له مراسم دفن حسب الطريقة والعادات المغولية ، وراعوا في ذلك السرية التامة . فبعد أن تم دفنه ، على قمة ذلك الجبل ، جعلوا الجبل جميعه منطقة مقدسة ، فلا أحد يجرؤ أن ينتهك لها حرمة . وهذا يعني أنهم أخفوا جميع المعالم التي قد يستدل منها على القبر في تلك المنطقة ، حيث أن المرء يمر بها دون أن يعرف بأن بها قبراً[١] .

ومع هذا ، فرغم السرية والتكتم التامين ، التي أحاطها القيمون حول ما يتعلق بضريح «أرغون خان» ، فقد قامت أبنته الكبرى أو الأولى «اولجتاي خاتون» بإماطة اللثام عن مكان ضريح والدها ، وكانت قد إعتنقت الدين الاسلامي . فأقامت عنده منزلاً يتعبد فيه الدراويش ؛ كما قامت بإنشاء مستوطنة هناك ، لتعمير المنطقة المحيطة بضريح والدها .

وبهذا أصبح من الآن فصاعداً الحكام المسلمون المغول يدفنون موتاهم ؛ ويدفنونهم على الطريقة الاسلامية ، بعد أن اعتنقوا الاسلام ،

---

(١) المصدر والمرجع المذكورين في الحاشية السابقة ، نفس الصفحات .

وأصبحت مراسم الدفن - حسب العادة والطريقة المغوليتين - لا وجود لها في مجتمعهم الاسلامي الجديد[1] .

(هـ) أسرة جوجي خان «القبيلة الذهبية» في القبجاق :

كانت ظروف الأسرة المغولية ، في إقليم القبجاق ، الاجتماعية في مجموعها ، ومراسم دفن الموتى ، مشابهة لدى بني عمومتهم وجيرانهم الايلخانيين في الجنوب ؛ حيث خضعت لتغيير يكاد يكون جذرياً ، وخاصة فيما نحن بصدده . وإن كان هناك وجه اختلاف ، أو كان هناك فرق بينهما فهو أن أسرة «جوجي خان» كانت السابقة إلى اعتناق الدين الاسلامي ، والتمشي بموجب تعاليمه ، من أسرة «هولاكو خان» في إيران . فإن كان السلطان «الايلخاني» أحمد تيكودير (٦٨٠ - ٦٨٣هـ/١٢٨١ - ١٢٨٤م) هو أول خانات المغول في إيران والعراق يعلن إسلامه ، ونبذ ما كان عليه آباؤه وأجداده ، فقد سبقهم في هذا الميدان خانات «القبيلة الذهبية» بأكثر من ثلث قرن من الزمن ؛ وذلك عندما اعتلى عرش أسرتهم أول خان مسلم لهم هو «بركاي بن جوجي بن جنكيزخان» (٦٥٥ - ٦٦٦هـ/١٢٥٧ - ١٢٦٦م) عرش الأسرة الذهبية المغولية ، أصبحوا شديدي الحماس والغيرة على الاسلام ، ومحاولة التمشي بموجب تعاليمه[2] .

---

(١) كان السلطان الايلخاني أحمد تيكودير أول من أسلم من أسرة هولاكو خان في إيران ؛ ثم ظل حكام هذه الأسرة مسلمين حتى إنقضائها ، بعد حوالي قرن من الزمن تقريباً .

(٢) سبق أن ذكرنا سابقاً بأن «جنكيزخان» جعل القسم الغربي من إمبراطوريته لأبنه الأكبر «جوجي» ؛ وقد إستقل كل قسم من هاتيك الأقسام الأربعة الكبرى ، وأضحى على رأس كل أسرة خان مغولي مستقل بكافة شؤونه عن بقية الأقسام الأخرى . بل وقد نشبت حروب طاحنة بين هذه الأسرة ، وتلك . ولعل الحروب على الحدود بين أسرتي «جوجي» و «هولاكو» خير ما نستدل به هنا . أنظر كتابنا «سقوط الدولة العباسية» ، ص.ص : ٢٩٠ - ٢٩٢ .

كان «جوجي خان» (٥٨٠ – ٦٢٤هـ/١١٨٤ – ١٢٢٧م) هو الأبن الأكبر من أبناء مؤسس امبراطورية المغول «جنكيزخان» ، كما كان هو المؤسس لهذا الفرع من أسرة هذا الخان المغولي ، والتي عاشت في ظل ونور الاسلام أكثر مما عاشت في ظلام الكفر (٦٢٤ – ٧٥٩هـ/١٢٢٧ – ١٣٥٧م) . توفي «جوجي» قبيل وفاة والده بأشهر قلائل ، وقد دُفِنَ في مكان مجهول في المنطقة المجاورة لـ «نهر قرا – ارتش» وهي الجهة الشرقية من أراضي هذا الأمير ، التي منحه إياها والده ، لتكون نصيبه ونصيب أسرته من ممتلكات الخان وإمبراطوريته الواسعة . لم نعثر في المراجع التي بين أيدينا عن الكيفية التي تمت بها عملية دفن هذا الأمير ، نظراً للظروف التي أدت إلى غموض هذه الصفحة من تاريخ هذا الأمير ؛ وذلك بسبب سوء العلاقة التي كانت تسود الجو العائلي بينه وبين والده ، ثم بينه وبين أخويه الكبيرين الآخرين ، وخاصة الأخ الذي يليه مباشرة «جغتاي» . ذلك العداء أو بالأصح ذلك التوتر ، الذي ساد علاقة الأخوين ، وربما علاقة الوالد «جنكيزخان» بولده الأكبر «جوجي» الذي يعود تاريخه إلى الوراء منذ الطفولة ، بل منذ ولد «جوجي» وأمه عائدة إلى مضارب زوجها ، «جنكيز» ، بعد أن فك أسرها من زوجها ومختطفها «المركيتي» كما هي عادة المغول في إختطاف الزوجات ، حديثات الزواج ، من أزواجهن . وقد أثيرت الشكوك حول شرعية «جوجي» كأبن أكبر «لجنكيزخان»[1] .

خلف «باتو بن جوجي» (٦٢٤ – ٦٥٤هـ/١٢٢٧ – ١٢٥٦م) أباه على رأس فرع هذه الأسرة . توفي هذا الأمير في عاصمة مملكته التي

---

(١) فيما يتعلق بحادثة إختطاف «بُرْتِه» زوجة «جنكيزخان» الكبرى ، وأم أبنائه الأربعة ، راجع في ذلك «التاريخ السري للمغول» الترجمة الفارسية ، على يد د . شيريني بياني ، طهران ١٣٥٠ هـ.ش. جـ١/ص.ص : ١٩ ــ ٢٠ ؛ كذلك الترجمة الانجليزية ، على يد وولي ، ص : ٢٣٧ ؛ رشيد الدين ، «جامع التواريخ» ، جـ١/ص : ٢٣٣ .



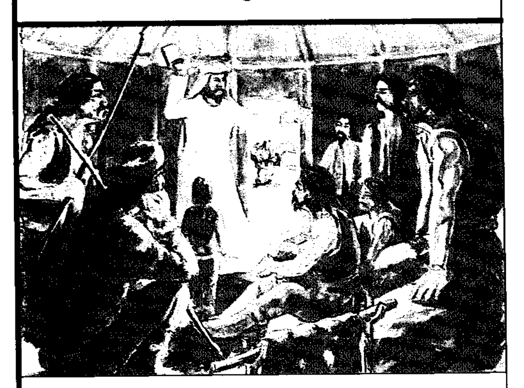
تمثل الشمس واحداً من معبودات المغول، هذه رسمة توضح ركوع مغولي لها حين بزوغها من الشرق



صورة تخيلية توضح فرحة المغول عندما بدأت الشمس تنجلي من الكسوف الذي أصابها، وهم يضربون على الطبول



صورة تمثل فرحة المغول وهم يضربون على الطبول والدفاف عندما بدأ القمر ينجلي من الخسوف



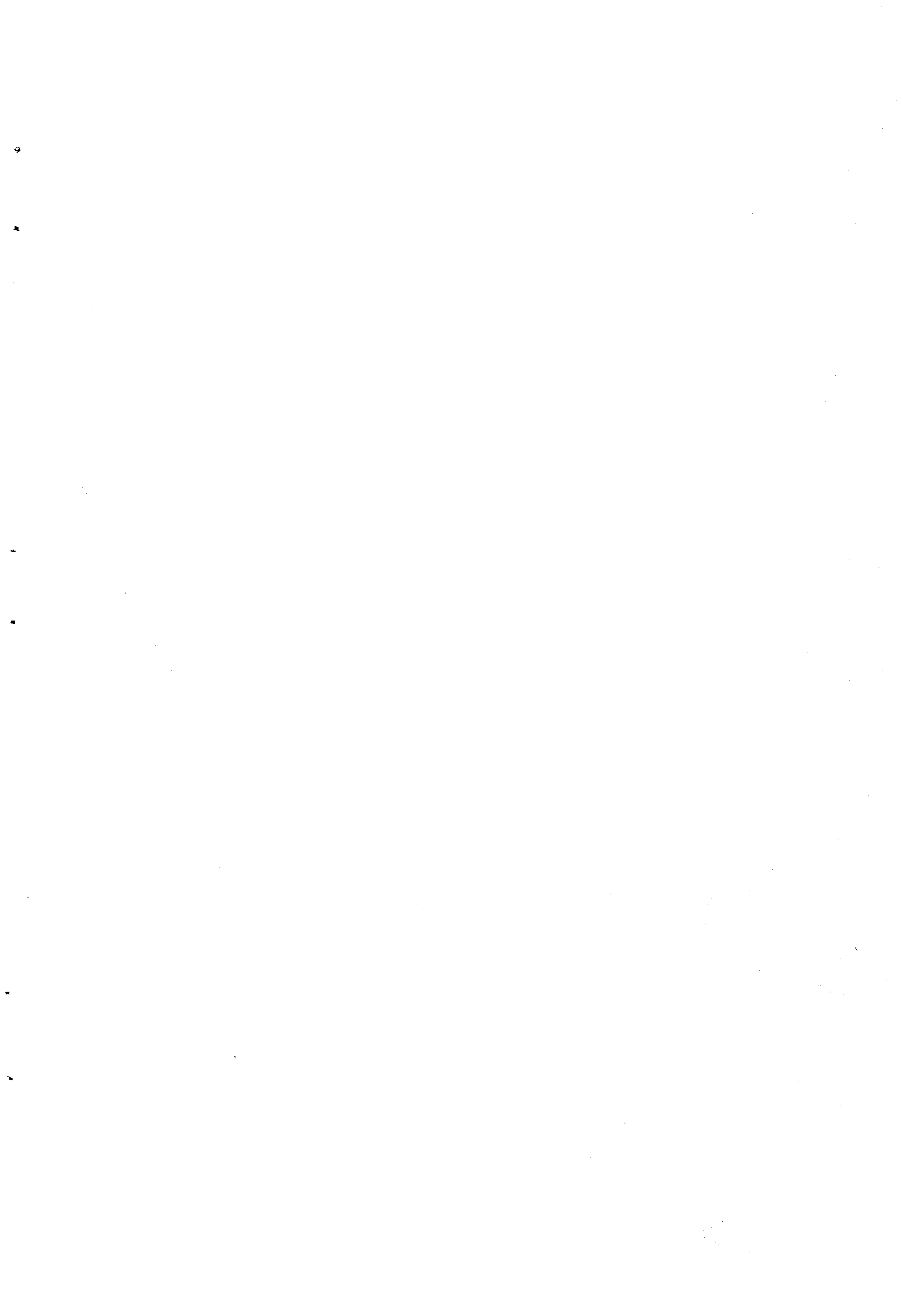
رسمة توضيحية يظهر فيها داعية مسلم يشرح عقيدة الإسلام أمام جمهور من المجتمعين في مجلس خاص



رسمة توضيحية يظهر فيها داعية مسلم يشرح للخان الإسلام . وقد تميز المغول برعايتهم لكافة الأديان واحترامها، وتقدير علمائها

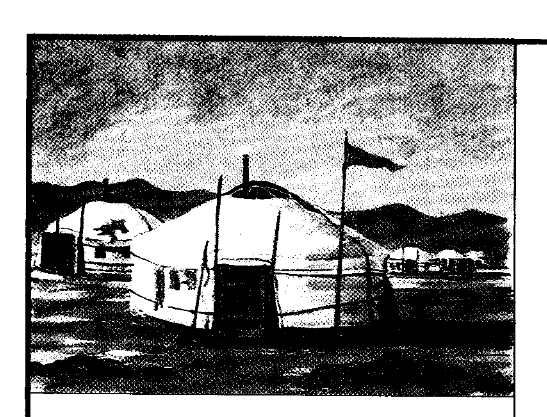


رسمة توضح مجموعة من الناس يقدمون طعاماً وشراباً للكاهن





رسمة توضيحية تبدو فيها امرأتان كاهنتان، أثناء عملية التطهير بالنار



رسمة لمنزل مغولي وقد وضع عليه علم يشير على أن في داخل المنزل مريضاً



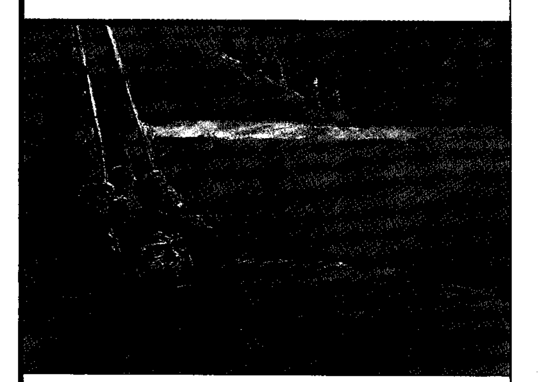
من واجبات الكاهن الحضور عند المريض للقراءة والتعاويذ ، وهذه صورة لكاهن يقوم بذلك



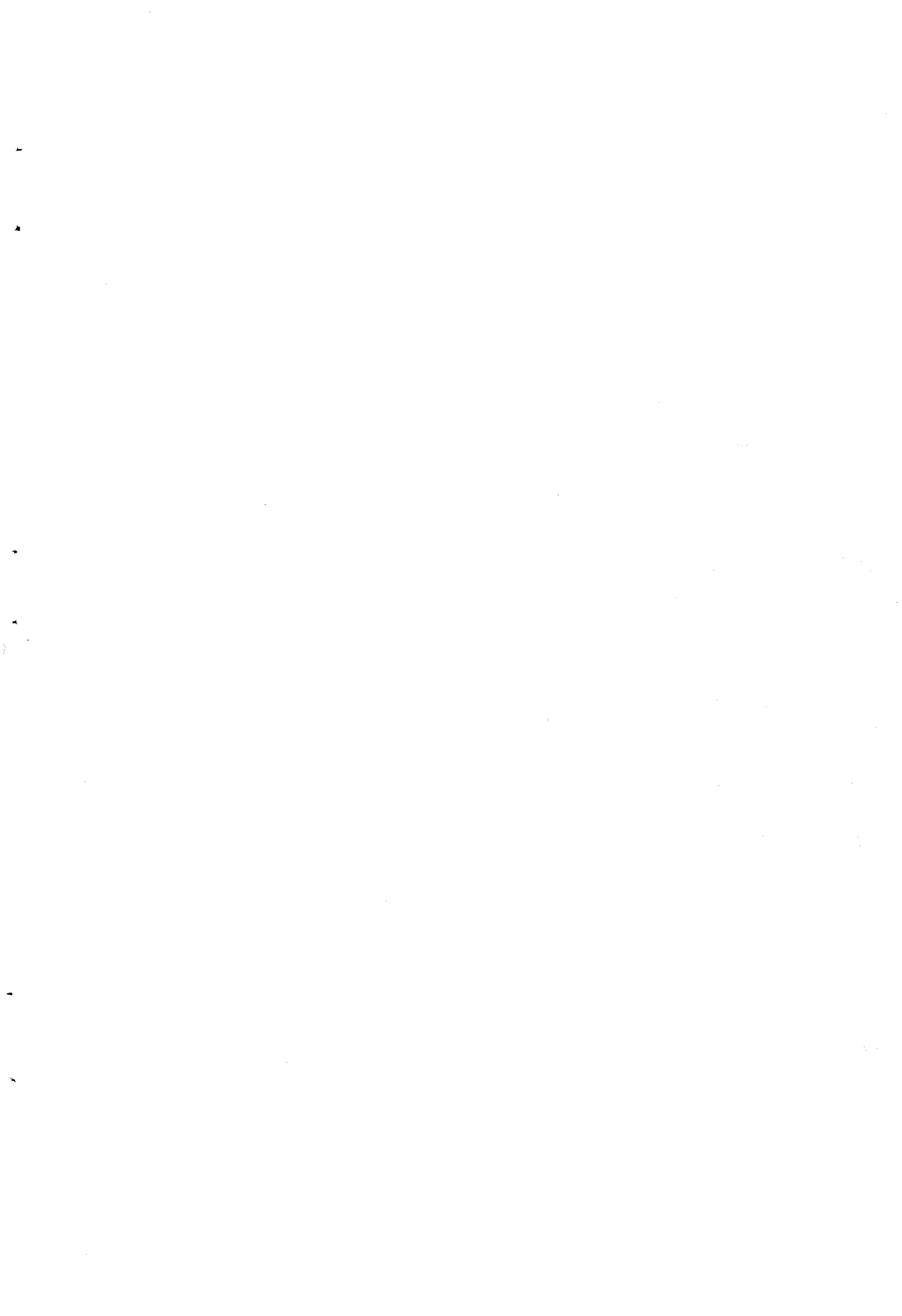
رسمة لرجل مغولي وفي يده قلب ذبيحة يقطر دماً ، ليقدمه إلى التماثيل في كأس

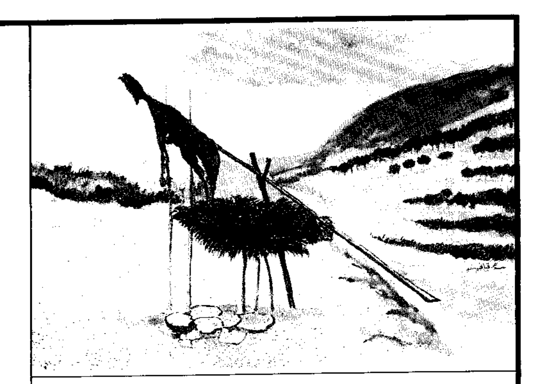


رسمة توضيحية لرجل حديث الوفاة والدفن ، وقد أضجع وحوله طعامه وشرابه ، وعدته الحربية وعتاده



رسمة توضيحية تخيلية لرجل مملوك كان مخلصاً لسيده ومحبوب إليه ، يحاول أقارب ذلك السيد أن يدفنونه معه حياً





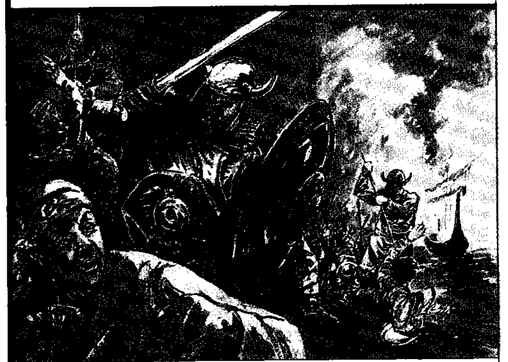
رسمة توضيحية ترى كيفية نصب إيهاب خيل ، على قبر إنسان متوفى حديثاً ، بعد حشوه بالقش



صورة تخيلية يظهر فيها جنكيز خان تحت شجرة وارفة، أوصى بأن يُوارَى جثمانُه تحتها



صورة تخيلية يظهر فيها جنكيز خان يتعهد المكان الذي أوصى بأن يُوارَى جثمانُه فيه



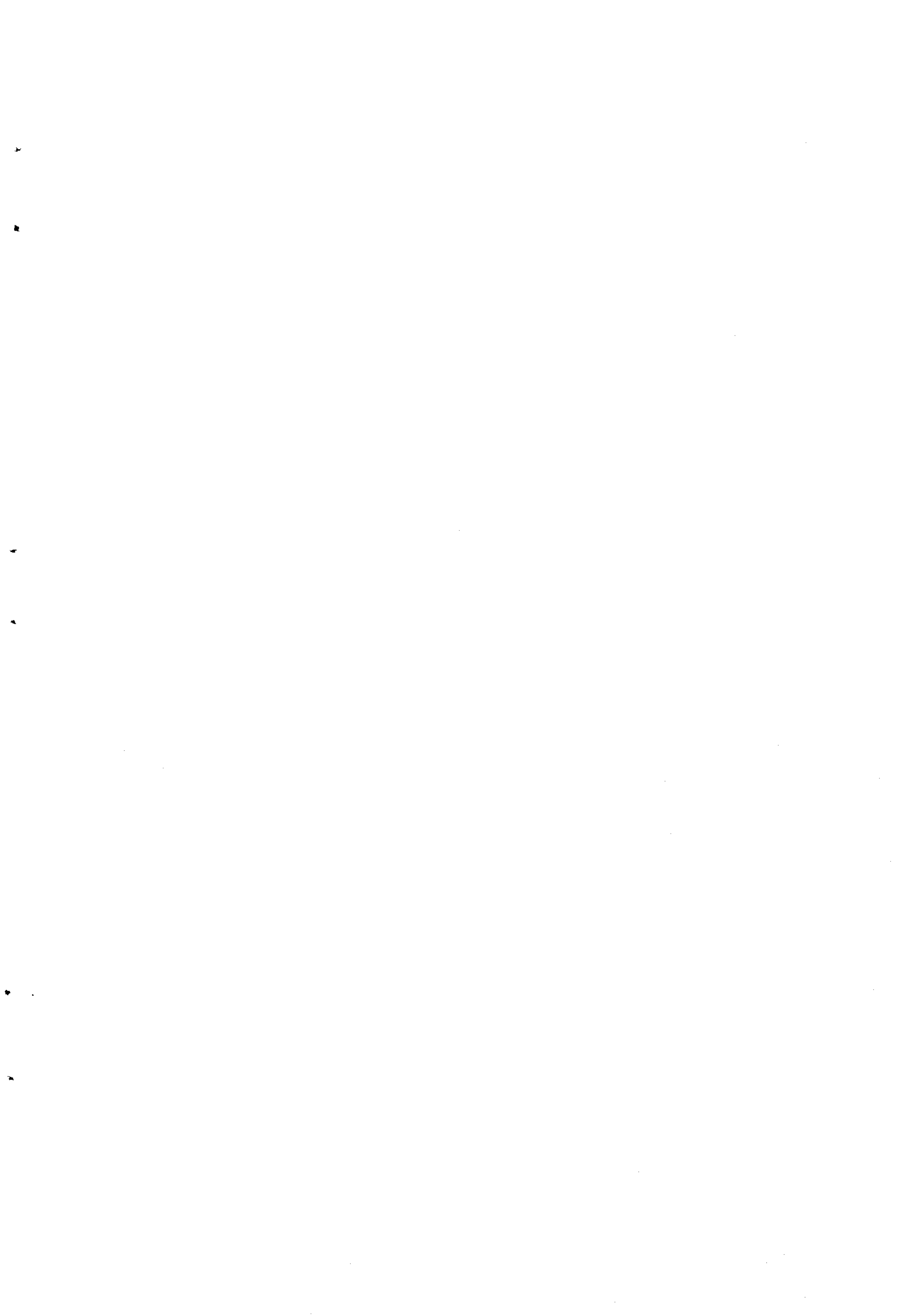
صورة تخيلية تبين جيش المغول يعود إلى الموطن المغولي في «أونون» ومعهم جثمان جنكيز خان وقد عمدوا إلى قتل كل من قابلهم في طريق العودة ليلحقوه بسيدهم لينال شرف خدمته (كما يزعمون)



رسمة تخيلية توضح كيف يوقع الحرس الامبراطوري بمن يحاول التقاط نبأ وفاة الخان والهروب لنشرها . وفي الصورة فارس حاول الهرب من مصيره المحتوم، فلم يفلت



رسمة تخيلية تظهر فيها مجموعة من الفتيات الجميلات ، وقد جُمعن لتزيينهن بأزهى الحلل وأبهاها استعداداً لقتلهن على ضريح جنكيز خان مباشرة بعد تتويج ابنه «اكتاي» من بعده ، بعد أن كان قد قتل أعداداً من الأفراس والجياد على قبر أبيه





رسمة توضيحية ترى كيف يحرق المغول الطعام والشراب إلى أرواح موتاهم رأس كل سنة

قائمة مصـادر البحـث ومراجعه

أولاً : المصـــادر :

(أ) المصادر الاسلامية ، العربية والفارسية :

١ – القرآن الكريم (العربية) قطب ، سيد «في ظلال القرآن» تفسير .

٢ – ابن الأثير ، عز الدين علي بن أبي الكرم ، «الكامل في التاريخ» ، بيروت ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧ م . (عربي اللغة) .

٣ – البدعوني ، عبدالقادر بن ملكشاه «منتخب التواريخ» ترجمة لو ، كراتشي ، ١٩٧٦ م (الفارسية ، مترجم إلى الانجليزية) .

٤ – ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد «رحلة ابن بطوطة» ، بيروت ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤ م . (العربية ، ولها ترجمات إلى لغات كثيرة منها الأنجليزية) .

٥ – بناكتي ، فخر الدين أبو سليمان ، «تاريخ بناكتي» معروف أيضاً بـ : «روضة أولى الألباب في معرفة التواريخ والانساب» تحقيق د. جعفر شعار ، طهران ، ١٣٤٨ هـ.ش ، (فارسي اللغة) .

٦ – الجوزاجاني ، القاضي منهاج الدين سراج عثمان ، «طبقات ناصري» تحقيق عبدالحي حبيبي ، كابل ، ١٣٤٣ هـ.ش ، (فارسي اللغة) .

٧ – الجويني ، علاء الدين عطا ملك ، «تاريخ جهانكشاي» أو «تاريخ فاتح العالم» تحقيق الأستاذ المرحوم ميرزا محمد بن عبدالوهاب القزويني ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٤ ، ١٣٥٥هـ/١٩١١ ، ١٩١٦ ، ١٩٣٧ م (فارسي اللغة) .

٨ – رشيد الدين ، فضل الله بن عماد الدولة ، «جامع التواريخ»

جزءان ، تحقيق د . بهمن كريمي ، طهران ، ١٣٣٨ هـ.ش (فارسي اللغة) . وله ترجمات إلى بعض اللغات منها الروسية ، والانجليزية والعربية وغيرها .

٩ - ابن العبري ، كَريكَوري أبو الفرج الملطي ، «تاريخ مختصر الدول» أو «مختصر تاريخ الدول» تحقيق صاليحاني ، بيروت ، ١٩٥٨ م ، ترجمه المؤلف أبن العبري من لغته الأصلية السريانية إلى اللغة العربية .

١٠ - أبو الفضل ، الشيخ العلامة ، «أكبر نامه» أو «تاريخ الامبراطور أكبر» ، مترجم إلى الانجليزية قام بها بفردج ، لاهور ، ١٩٧٦ م (الفارسية ، وله ترجمة إلى الانجليزية) .

١١ - القزويني ، حمدالله المستوفي ، «القسم الجغرافي من كتاب (نزهة القلوب) ترجمه إلى الانجليزية المستشرق ج . لوسترنج ، ليدن ١٩١٣ م . (الفارسية مترجم إلى اللغة الانجليزية) .

١٢ - مجهول المؤلف ، «التاريخ السري للمغول» ، أو «تاريخ سري مغولان» ، ترجمته عن الفرنسية الدكتورة شيريني بياني ، طهران ، ١٣٥٠ هـ.ش . (الصينية مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية) .

١٣ - مجهول المؤلف ، «حدود العالم» ترجمه وحققه إلى اللغة الانجليزية الأستاذ الدكتور : ف . مينورسكي ، ذكرى جب ، لندن ، ١٩٧٠ م (الفارسية ، مترجم إلى الانجليزية) .

١٤ - وصاف الحضرة ، شرف الدين عبدالله ، «تاريخ وصاف» والمعروف أيضاً بـ : «كتاب تجزية الامصار وتزجية الأعصار» تحقيق عبدالمحمد آيتي ، طهران ، ١٣٤٦ هـ.ش (فارسي اللغة) .

ثانياً : المراجع الحديثة :

(أ) مراجع باللغة العربية :*

٢٥ – الانصاري ، أ.د ، عبدالرحمن محمد «قرية الفاو» جامعة الرياض ، «الملك سعود حاليا» ١٤٠٢ هـ .

٢٦ – الصابوني ، محمد بن علي «النبوة والأنبياء» مكتبة الغزالي ، ١٣٩٠ هـ .

٢٧ – علي ، جواد (د) «المفصل في تاريخ العرب قبل الأسلام» ، بيروت ، ١٩٧٨ م .

٢٨ – الغامدي ، سعد محمد حذيفة «سقوط الدولة العباسية» ، بيروت ١٤٠١هـ .

٢٩ – «أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي» بيروت ١٤٠١ هـ .

٣٠ – «حياة جنكيزخان» ترجم من اللغة الانجليزية إلى العربية ١٤٠٣ هـ (أنظر المرجع رقم ٥٩ تحت) .

٣١ – «سقوط العباسيين ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م» رسالة الدكتوراه ١٤٠٠ هـ (باللغة الانجليزية) .

٣٢ – «مكان ومراسم دفن الخانات المغول خارج موطنهم» مجلة كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، المجلد الحادي عشر ، العدد الأول ، ١٤٠٤هـ ، ص.ص : ٢٩٧ – ٣١٢ .

٣٣ – «مكان ومراسم دفن الخانات المغول في منغوليا» ، مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز المجلد الخامس ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م ص.ص : ٢٢٣ – ٢٤١ .

٣٤ - «من غرائب المجتمع المغولي» مجلة الحرس الوطني ، العدد الثاني عشر ، السنة الثالثة ، ربيع الثاني ، ١٤٠٣ هـ .

٣٥ - «المغول والوحدانية» ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، السنة التاسعة ، شوال ، ١٤٠٣ هـ ص.ص : ٢٠٤ - ٢٢٠ .

٣٦ - «معركة قطوان ، أسبابها ونتائجها» مجلة العصور ، المجلد الثاني ، الجزء الأول ، جمادي الأولى ، ١٤٠٧هـ ص.ص : ٧٥ - ٩٤ .

٣٧ - «بيئة المغول وحياتهم الاجتماعية» نشرت في حلقات في قافلة الزيت ، في أعدادها ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ . من المجلد الحادي والثلاثين من عام ١٤٠٣ هـ .

(ب) المراجع باللغة الانجليزية :

٣٨ – Barthold, W.W. "Four Studies on the History of Central Asia" Leyden, 1962.

٣٩ – "Turkestan Down to the Mongol Invasion", Gibb Memorial Trust, N.S.V, London 1968 & 1977.

٤٠ – Boyle, Professor John Andraw, "A Form of Horse Sacrifice among the 13th and 14th-Century-Mongols" Central Asiatic Journal, 1965, X, 3-4, PP: 145-150.

٤١ – "The Burial Place of the Great Khan Ogedei", Acta Orientalia, Copenhagen, 1970, Vol. XXXII, PP: 45-50

٤٢ – "A Eurasian Hunting Ritual", Folklor 80, London 1969, PP: 12-16.

٤٣ – "The Thirteenth-Century Mongols' Conception of the After-Life: The Evidence of Their Funerary Practices", Mongolian Studies I, Bloomington, Ind., 1974.

٤٤ – Turkish and Mongol Shamanism in the Middle Ages", Folklore 83, London 1972, PP: 5-14.

٤٥ – Bretschneider, E., "Medeaeval Researches From Eastern Asiatic Sources, London, 1967.

٤٦ – De Rachewilts, Igor, "Papal Envoys to the Great Khans", London, 1971.

٤٧ – Douglas, Joseph "The Life of Jenghiz Khan", translated from the Chinese Contemporary Chroniclers, London, 1877.

Dupuy, T.N., "The Military Life of Genghis Khan of– ٤٨
Khans", New York, 1969.

Fox, Ralf, "Genghis Khan", London, 1936.– ٤٩

Martin, H.D. "The Mongol Wars With Hsi-Hsia,– ٥٠
(1205-1227), Journal of the Royal Asiatic Society, 1947,
PP: 195-228.

Micheli, Silvio, "Mongolia In Search of Marco Polo and– ٥١
other Adventures", translated from the Italian by: Bruce
Penman, London, 1967.

Milmour, James, "Among the Mongols", London, ?.– ٥٢

Newton, A.P. "Travel and Travellers of the Middle– ٥٣
Ages", London, 1930.

Perov, V.P. "Mongolia, A Profile", London, 1970.– ٥٤

Poppe, N., "On Some Geographic Names in the Jami'– ٥٥
Al-Tawarikh", Harvard Journal of Asiatic Studies, 1965,
19/1-2, PP:33-41.

Ross, Sir E.D. "Prester John and Empire of Ethiopia",– ٥٦
Travel and Travellers in the Middle Ages, Ed., by:
Newton, London 1930, PP: 174-194.

Saunders, J.J. "The History of the Mongol Conquests"– ٥٧
London, 1971.

٥٨ - Spuler, B. "History of the Mongol", Based on Eastern and Western Acconts of the 13th and 14th Centuries, translated from the German into English by Helga and Stuart Drummond, London, 1972.

٥٩ - Vladimirtsov, B. Ya. "The Life of Jenghis Khan", translated from the Russian into English by: Prince D.S. Mirsky, London, 1930. also translated from English into Arabic by the author of this Work, see No. 30 above.

٦٠ - Walker C.C. "Jenghis Khan", London, 1939.

٦١ - Wittfogel, K. A., and Fèng Chia-Sheng, "History of Chinese Society: Liao, 907-1152", translated from Chinese Sources, Philadelphia, 1949.

الفهـــارس

١ – فهرس الأعلام .

٢ – فهرس الشعوب والقبائل .

٣ – فهرس الأمكنة والبلدان .

٤ – فهرس الأنهار والبحيرات .

فهـــرس الأعـــلام

فهـــرس الشعـــوب والقبائـل

فهـــرس الأمكنـــة والبلـدان

فهـــرس الأنهـــر والبحيـــرات

إنتــاج المصنــف العلمــي

أولًا : الكتب المطبوعة والمنشورة :

١ – أوضاع الدول الاسلامية في الشرق الاسلامي «طبع في عام ١٤٠١هـ» .

٢ – سقوط الدولة العباسية «طبع في عام ١٤٠١هـ» .

٣ – حياة جنكيز خان من النواحي الادارية والسياسية والعسكرية «طبع في ١٤٠٣هـ» .

٤ – بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، وهو «هذا الكتاب» .

٥ – ضوابط المجتمع المغولي قوانينه «١٤١٠هـ/١٩٨٩ م» .

٦ – مدينة الفتح الاسلامية في سيكرى «تحت الطبع» .

٧ – أشتغل الآن على مشروع ضخم بعنوان «تاريخ ومعالم الاسلام في بلاد الهند والسند» يموله مركز البحوث في كلية الآداب ، وقد جمعت معظم المادة المتعلقة بالشرائح والصور والأفلام (الفيديو) ، ومصادر المادة العلمية .

ثانياً : بحوث ومقالات منشورة :

١ – بحث بعنوان «بيئة المغول الطبيعية» طبع في محرم ١٤٠٣هـ .

٢ – بحث بعنوان «تضاريس الأراضي المغولية ومناخها والحياة الحيوانية فيها» طبع في صفر ١٤٠٣ .

٣ – بحث بعنوان «طعام الفرد في المجتمع المغولي» نشر في ربيع الثاني ١٤٠٣هـ .

٤ – بحث بعنوان «لباس الفرد في المجتمع المغولي» نشر في رجب ١٤٠٣ هـ .

٥ – بحث بعنوان «مسكن الفرد في المجتمع المغولي» نشر في رمضان ١٤٠٣هـ .

٦ - بحث بعنوان «طباع وأخلاق الفرد في المجتمع المغولي» نشر في رمضان ١٤٠٣هـ .
٧ - بحث بعنوان «من عجائب المجتمع المغولي» نشر في ربيع الثاني لعم ١٤٠٣هـ .
٨ - بحث بعنوان «الزواج في المجتمع المغولي» نشر في شوال ١٤٠٣هـ .
٩ - بحث بعنوان «المرأة ومكانتها في المجتمع المغولي» نشر في شوال ١٤٠٣هـ .
١٠ - بحث بعنوان «المغول والوحدانية» نشر في شوال ١٤٠٣هـ.
١١ - بحث بعنوان «مكان ومراسم دفن الخانات المغول خارج موطنهم الأصلى نشر في عام ١٤٠٤هـ .
١٢ - «مكان ومراسم دفن الخانات المغول في منغوليا» نشر في عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م .
١٣ - «بطولة وفداء في ميافارقين» نشر في شوال ١٤٠٦هـ/يونيه ١٩٨٦ م .
١٤ - «الملك الناصر يوسف والمغول» نشر في ١٤٠٦هـ .
١٥ - «معركة قطوان» ، ٥٣٦هـ/١١٤١ م - أسبابها ونتائجها نشر في جمادى الأولى ١٤٠٧هـ .
١٦ - «الفتح الاسلامي لبلاد وادى السند» (٩٢ - ٩٦هـ/ ٧١١ - ٧١٥ م) نشر في نوفمبر ١٩٨٧ م .
١٧ - «مقتل الخليفة المعتصم بالله وعلاقة ذلك بثروته» نشر ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م .
١٨ - «معركة الراور - قادسية الفتح الاسلامي لوادي السند (رمضان عام ٩٣/١٦ - ٢٠ حزيران (يونية) سنة ٧١٢ م» . نشر في رجب ١٤٠٨هـ .
١٩ - هناك عدة مقالات ستنشر ويربو عددها على اثنتى عشرة

مقالة ، قبل بعضها والبعض الآخر لم يأتني ردٌ سَلباً أو إيجاباً .

٢٠ - «جوانب من حياة المغول المعيشية» ١٤٠٩هـ/٨٨ - ١٩٨٩ م .

٢١ - «الياسا» دراسة نقدية وتحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها /٤٠٩ - ١٤١٠هـ .

٢٢ - الجيش المغولي في عهد الخانات الكبار ١٤٠٩/١٤١٠هـ . دراسة نقدية وتحليلية مقارنة لـ أعداده ، تقسيماته ، قياداته ، ونماذج قادته العسكريين ، وجبهة القتال ومركز القيادة/ تحت التحكيم بمركز البحوث في كلية الآداب جامعة الملك سعود .

٢٣ - بحث بعنوان : «مسلمو شبه قارة الهند والسند وأماكن عبادتهم» . تم انجازه كمخطوط .

٢٤ - بحث بعنوان : «العسكرية المغولية : دراسة نقدية وتحليلية للجندي المغولي ، صفاته وسلاحه» ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م .

فهرست مواضيع البحث

بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية — الصفحة

الصفحة

الصفحة

« تصـــويب »

صفحة ٢١٣

الخطـــأ

٤– بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، وهو «هذا الكتاب» .

٥– ضوابط المجتمع المغولي قوانينه «١٤١٠هـ/١٩٨٩م» .

الصـــواب

٤– **المغول** «بيئتهم الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية» ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، وهو « هذا الكتاب » .

٥– **المجتمع المغولي** «ضوابطه وقوانينه» «١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م» .

مطابع الشريف
تلفون ٤٧٨٥٧٢١/٤٧٨٥٧٨٠